مجلة علمية نصف سنوية محكمة تصدر عن هيئة علماء فلسطين

السنة السادسة مجلد١١ العدد الحادي عشر ١٤٤٥هـ/٢٠٢٣م

رئيس هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور عبد الجبار سعيد

رئيس قسم القرآن والسنة كلية الشريعة- جامعة قطر

مدير التحرير

الدكتور مجدي قويدر

أعضاء هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور أيمن صالح- أستاذ الفقه وأصوله
الأستاذ الدكتور عبد القادر بخوش- أستاذ العقيدة والفكر الإسلامي
الأستاذ الدكتور محمد آيدن- أستاذ التفسير وعلوم القرآن
الدكتور محمد الشيب- أستاذ الفقه وأصوله المساعد
الدكتور محمد همام ملحم – أستاذ الفقه وأصوله المشارك
الدكتور منذر زيتون – أستاذ الفقه وأصوله المساعد

مستشارو هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني- المغرب

الأستاذ الدكتور علي القره داغي- قطر

الأستاذ الدكتور عبد الحكيم السعدي- قطر

الأستاذ الدكتور محمد عثمان شبير- الأردن

الأستاذ الدكتور أحمد أغراتشي- تركيا

الأستاذ الدكتور حمدي أرسلان- تركيا

الأستاذ الدكتور صالح الرقب- فلسطين

الأستاذ الدكتور خليل إبراهيم كوتلاي – تركيا

الأستاذ الدكتور إحسان ثريا صيرما- تركيا

اسم المجلة	مجلة المرقاة للدراسات والبحوث الإسلامية
الطبعة	كانون أول/ ديسمبر 2023
رقم الإيداع	52302
دار النشر والطباعة	**İKDAM matbaa ve yayın evi** ikitelli OSB mah. Aykosan çarşı blok Sk. Aykosan Sitesi Çarşı blok no: 11/ iç kapı no: 526 Başakşehir/ İstanbul

الموقع الإلكتروني للمجلة: https://www.almirqat.com/

المراسلات على البريد الإلكتروني: almirqatmagazine@gmail.com

FİLİSTİN ALİMLER HEYETİ DERNEĞİ
Göztepe Mahallesi, İstoç Oto Market, Cadde No 3 , N03 Blok, No:6, İç Kapı:119 /İSTANBUL

ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة أو هيئة علماء فلسطين

المجلة مدرجة في قواعد البيانات التالية

Arcif Analytics e-Marefa دار المنظومة DAR ALMANDUMAH

تعليمات النشر في مجلة «المرقاة» للدراسات والبحوث الإسلامية الصادرة عن هيئة علماء فلسطين

١- ألا يكون البحث قد سبق نشره، أو قدّم لأية جهة أخرى من أجل النشر. وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك يقرّ فيه بأن بحثه عمل أصيل له، وأنه ليس مستلاً من رسالة للدكتوراه أو الماجستير أو كتاب منشور له.

٢- أن يكون البحث متسما بالعمق والأصالة، وأن يضيف نشره جديداً إلى المعرفة، ويعالج القضايا المُعاصرة المستجدة، وأن يلتزم الباحث بالموضوعية والتجرد العلمي.

٣- أن يتصف البحث بحسن الصياغة العلمية، ومراعاة سلامة اللغة وخلوها من الأخطاء اللغوية والنحوية، ومراعاة قواعد الإملاء وعلامات الترقيم، والدقة في توثيق النصوص والتخريج .

٤- لهيئة التحرير الحق في تحديد أولويات نشر البحوث، وتعطى الأولوية للموضوعات المتعلقة بالقضية الفلسطينية.

٥- لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيئة التحرير إلا لأسباب تقتنع بها هيئة التحرير، ويتحمل الباحث نفقات التحكيم وغيرها من النفقات التي تحملتها المجلة في حال طلبه سحب البحث قبل نشره.

٦- في حال قبول البحث للنشر، تؤول كافة حقوق الملكية الفكرية للمجلة ويوقع الباحث على ذلك، ولا يجوز للمؤلف نشره في أي منفذ نشر آخر ورقياً أو إلكترونياً، إلا بموافقة المجلة.

٧- الآراء الواردة في البحوث المنشورة تعبر عن وجهة نظر الباحثين ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

٨- لا تدفع المجلة مكافآت ولا تتقاضى أية مبالغ مقابل البحوث المنشورة أو مراجعات الكتب أو أي أعمال فكرية ما لم تكن بتكليف. ولا تعاد أصول البحوث المقدمة للنشر في المجلة إلى أصحابها.

٩- يقدم الباحث سيرة ذاتية موجزة مع البحث بالإضافة إلى ملخصين باللغة العربية والإنجليزية على ألا يزيد كل منهما عن مائتي كلمة.

١٠- تخضع البحوث والدراسات المقدمة للنشر إلى عملية فحص وتحكيم سرية وفق المعايير والضوابط التي التزمت بها المجلة، ويقوم بعملية التحكيم اثنين من المحكمين المتخصصين على الأقل، بهدف الارتقاء بالبحث العلمي وتطويره.

١١- تحتفظ هيئة التحرير بحق رفض أي بحث مقدم للمجلة دون بيان أسباب عدم النشر.

١٢- يحق لهيئة التحرير إجراء التغييرات الشكلية اللازمة على البحث وفق سياسات النشر في المجلة.

١٣- يرسل للباحث خطاب النشر مع نسخة إلكترونية من المجلة التي تم نشر بحثه فيها.

١٤- ألا يزيد البحث عن ٨٠٠٠ كلمة أي بحدود ٣٠ صفحة بما في ذلك الأشكال والرسوم والجداول والمراجع، وتسلّم نسختان إلكترونيتان من البحث عبر موقع المجلة أو البريد الإلكتروني almirqatmagazine@gmail.com))، باستخدام برنامج (Microsoft Word) نسخة بصيغة doc أو dox وأخرى بصيغة pdf. ويستخدم خط (Tradi-tional Arabic) للغة العربية بحجم (١٦)، وبحجم (١٣) للحاشية. ويستخدم خط (Times New Roman) للغة الإنجليزية بحجم (١١)، وبحجم (٩) للحاشية والمستخلص. أما العناوين فتكون بخط أسود بارز(BOLD).

١٥- نظام التوثيق في الهوامش:

*عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة، ورقم الآية، وبينهما نقطتان، [مثل البقرة: ٢].

* عزو الحديث بذكر المخرج، والمدون الحديثي، والكتاب، والباب، ورقم الحديث.

* يحال على المصادر والمراجع كما يلي:

*عند أول إحالة على المصدر أو المرجع: يذكر اسم المؤلف، ثم اسم الكتاب كاملاً، ثم اسم المحقق (إن وجد)، ثم مكان النشر، ثم الناشر، ثم رقم الطبعة، ثم تاريخها، ثم رقم الجزء والصفحة، مثاله:ياسين، عبد السلام- تنوير المؤمنات، بيروت، دار لبنان، ط ١، ٢٠٠٣ م، ١/ ٨.

* وفي الإحالات الموالية لنفس المصدر يكتفى بذكر اسم المؤلف والكتاب مختصراً، ورقم الجزء والصفحة, مثاله ياسين، عبد السلام- تنوير المؤمنات ١/ ٨.

محتويات العدد

كلمة الافتتاحية ٧
أ. د. عبد الجبار سعيد

أحكام المقاطعة الاقتصاديّة للكيان الصهيونيّ وداعميه..... ٩
د. محمّد همام ملحم
أ. أنس ممدوح الأنصاري

معالم الشخصية وعوامل بنائها في القصص القرآني.....٥٥
-دراسة وصفية-
أ. د. فاتح حسني عبد الكريم

واقع الثقافة المقدسيّة للطلاب الفلسطينيين في لبنان «دراسة ميدانيّة للمرحلتين المتوسّطة والثانويّة، مخيّمات شماليّ لبنان».. ٨٩
د. رمزي غالب كريّم

المسكوتُ في المصطلح الأصوليّ ١٣٥
د. عصام عبد المولى

معركة طوفان الأقصى في ضوء السنن الإلهيّة..... ١٦٩
د. مجدي قويدر

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين وبعد

فيصدر هذا العدد الحادي عشر من مجلة المرقاة للبحوث والدراسات الإسلامية، في ظلال معركة طوفان الأقصى، واشتداد العدوان الصهيوني الهمجي على أهلنا في غزة العزة، وقد كان لطوفان الأقصى آثار هائلة نوعية ليس على حياة أهلنا في غزة فحسب، بل على مستوى الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية، حيث أعاد القضية إلى بؤرة الاهتمام بعد أن كادت تنسى، وجعل اقتحامات المسجد الأقصى أكثر صعوبة على المتطرفين، ووضع خيار المقاومة في مكانه الصحيح، وبين أهميته في مواجهة المشروع الصهيوني في المنطقة. وكذلك على مستوى العدو الصهيوني، حيث ألحق به من الهزيمة والخسائر ما لم يصبه في تاريخه، وأفقده توازنه وأصبح يتصرف كالثور الهائج، ورغم كل الطاقات والقدرات العسكرية والتكنولوجية التي يمتلكها العدو فإنه لم يحقق من أهدافه التي أعلنها للحرب على شعبنا شيئاً، سوى القتل الواسع للمدنيين والأطفال والنساء وهدم البيوت والمساجد والمستشفيات والكنائس واتباع سياسة الأرض المحروقة. بل وأصبحت إدانته على مستوى العالم غير مسبوقة وأصبحت شرعيته الدولية تتلاشى في المحاكم الدولية وعلى امتداد العالم، ولعل هذا من أهم آثار طوفان الأقصى، فلأول مرة نرى هذا الحجم من التعاطف العالمي مع القضية الفلسطينية، وبحجم يفوق التحركات الشعبية في الدول العربية والإسلامية، فضلاً عن آثار أخرى كثيرة ليس هذا مجال الاستفاضة في عرضها واستقصائها.

ولا تفوتني هنا دعوة العلماء والباحثين إلى الارتقاء إلى مستوى طوفان الأقصى، وتكثيف وتعميق الدراسات المتعلقة بنتائجها، وآثارها، وامتداداتها، وكيفية توظيفها والبناء عليها وصولا إلى معركة التحرير الفاصلة والشاملة. مع دعوتي للتركيز على التأصيل الشرعي للقضايا، وربطها بالعقيدة والقرآن والسنة، فقد رأينا- وما زلنا نرى- آثار القرآن الكريم، وحفظه، وتربية المساجد، على المجاهدين، وآثارها على نتائج المعركة.

ولعل من أبرز محاور البحث التي يمكن أن يتناولها الباحثون: ما يتعلق بعينية الجهاد في فلسطين

وكيفية القيام به، وبعض أوجه الجهاد والرباط المعاصرة وأشكالها، وهل تغني المشاركة فيها عن فرضية الجهاد بالنفس أم لا؟ وبعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالجهاد في فلسطين: مما يحتاجه المجاهدون والناس من مثل: حكم مشاركة الجنود والضباط المسلمين في دول الطوق في حصار أهل فلسطين، ومنع الناس من الوصول إليهم والجهاد معهم، ومنع المساعدات والإغاثات من الوصول إلى أهلنا بدرجة كافية، بل وإرسال المساعدات والمنتجات إلى العدو الصهيوني، وما مدى صحة اعتذار بعضهم بتنفيذ أوامر من هم أعلى رتبة منهم في السلم الوظيفي والعسكري؟ وهل تجوز الهجرة والخروج من غزة وفلسطين في ظل العدوان والإجرام أم لا تجوز ولا بد من الثبات والصمود والجهاد؟ وعلى من تنطبق هذه المسألة؟ وهل يدخل فيها الرجال والنساء والشباب؟ وماحكم الأخذ من ممتلكات الغير بعلمه أو بدون علمه، سواء كان طعاماً أو مالاً أو استخدم بيته ونحو ذلك من الاحتياجات الميدانية للناس؟ وغير ذلك من الأحكام الشرعية المطلوبة في هذه المرحلة. يضاف لذلك العديد من الدراسات التربوية للآيات والأحاديث وربطها بالطوفان، ودراسة السنن الإلهية في ضوء القرآن والسنة، والكثير الكثير مما لا يتسع المجال لحصره وإنما ذكرنا ما ذكرناه هنا على سبيل التمثيل والاستئارة لا على سبيل الحصر.

وغني عن التأكيد على استعدادنا في المجلة للمسارعة في نشر البحوث من هذا القبيل، بل ودعم النوعي منها، وهذا هو خط مجلتنا فيما يلي الدراسات الإسلامية المتعلقة بالقضية الفلسطينية. كما يظهر في عددنا هذا المتضمن ثلاثة بحوث متعلقة بالقضية الفلسطينية، وبعضها مرتبط بطوفان الأقصى، ونحن نثق بقدرات باحثينا وكفاءاتهم وإبداعهم، وقدرتهم على الإتيان بالجديد دائماً خدمة للقضية الفلسطينية ونصرة لها وللمسجد الأقصى، كما هو الحال على امتداد العالم وفي شعوبنا العربية والإسلامية، بل والإنسانية جمعاء.

هذا وإننا رغم اشتداد آلام أهلنا في غزة، وتزايد أعداد الشهداء، والجرحى من النساء والأطفال والمدنيين، أقول رغم كل ذلك الحجم من الألم فإننا ندرك أن عدونا يألم أكثر. ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ النساء ١٠٤. ونثق بوعد الله تبارك وتعالى بنصرنا على عدونا وأن العاقبة للمتقين.

رئيس هيئة التحرير

أ.د. عبد الجبار سعيد

أحكام المقاطعة الاقتصاديّة للكيان الصهيونيّ وداعميه

د. محمّد همام ملحم[١]
أ. أنس ممدوح الأنصاري[٢]

الملخّص

يهدف البحث إلى بيان الأحكام الشرعيّة لمقاطعة الكيان الصهيونيّ وشركاته والشركات الداعمة له، وشركات الدول الداعمة له، وذلك من خلال التأصيل الشرعيّ للمقاطعة الاقتصاديّة، وبيان علاقتها بجهاد الدفع، وقد انطلق البحث من كون المقاطعة إحدى مجالات النصرة، وكونها ضربًا من ضروب الجهاد بالمال، وخلص إلى بيان الأحكام العامّة للمقاطعة، والأحكام التفصيليّة لها باعتبار الجهات المقاطِعة.

الكلمات المفتاحية:

Abstract

The research aims to clarify the legal provisions for boycotting the Zionist entity, its companies, the companies that support it, and the companies of the countries that support it, through the legal foundation of the economic boycott, and explaining its relationship to the payment jihad. The research started from the fact that the boycott is one of the fields of victory, and that it is a form of jihad with money, and it concluded To explain the general provisions of the boycott, and the detailed provisions thereof, considering the boycotting parties.

(١) أستاذ الفقه وأصوله المشارك في جامعة صباح الدين زعيم- إسطنبول، تاريخ استلام البحث، ٢٠٢٣/١١/١م، وتاريخ قبوله للنشر، ٢٠٢٣/١٢/٢٥م

(٢) الباحث في مركز معراج للدراسات.

المقدمة

الحمد لله الذي بعث رسوله بدين الحقّ، ليظهره على الدين كلّه، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد الذي جاء رحمة للعالمين بالدعوة والجهاد المبين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد اقتضت حكمة الله في هذه المعمورة التدافع بين الحقّ والباطل، وأن يكون بينهما سجال طويل من الهزيمة والنصر.. والكرّ والفرّ.. والصبر واليأس.. ليظهر معادن الناس.. وتبلى أخبارهم.. حتى تمحص صفوف المؤمنين، ويُصطفى الشهداء، وتستدرج صفوف الكافرين، فإذا كان هذا جاء النصر، وحصلت الغلبة للمؤمنين، ولقد قدر لنا الحقّ وقضى أن نحيا في ظلال عقود استثنائية من تاريخ المسلمين.. عقود من الوهن واليأس بعد سقوط الخلافة الإسلامية في طورها العثماني، فقسّم العالم الإسلامي على طاولة الأعداء، وزُرع الكيان الصهيوني في بيت المقدس، وأعلنت دولته المزعومة حتى توغّل بأرتاله من الجولان إلى السويس، بيد أنّ من سنن الله في هذه الأمّة العظيمة وجود الطائفة المنصورة الثابتة على الحقّ، تلك العصبة التي تصلح ما أفسده الناس، وتعيد ما اندثر من الشريعة، وتجدّد ما انطمس من الديانة، ولم تغب هذه الطائفة عن بيت المقدس وأكنافه لحظة واحدة منذ تكالب الأعداء عليه، فناضلت ضد الاستعمار البريطاني، فكانت الثورات تلو الثورات، وكان منها ثورة الشيخ عز الدين القسام، ثمّ لمّا حلّ الصهاينة مكان الإنجليز جاهدت العدو الصهيوني بكلّ الوسائل الممكنة ابتداء من الثورات المسلحة والعمليات الفدائية وكتائب الشيوخ، ومرورًا بثورة الحجارة إلى ثورة السكاكين، ثمّ العمليات الاستشهادية، ثمّ إطلاق الصواريخ، ثمّ إلى الجهاد الشامل باستخدام أنواع متعدّدة من الأسلحة التي تمّت صناعتها في مصانع العزّ والشموخ في غزّة العزة، ثمّ كلّل هذا الجهاد المستمر بالطوفان العظيم، طوفان الأقصى معلنًا مرحلة جديدة من تاريخ الجهاد في أمّة الإسلام. ومع بزوغ هذه المرحلة الجديدة أصبحت الخيارات الجذريّة أكثر واقعية من ذي قبل، ومن هذه الوسائل الفاعلة سلاح المقاطعة الاقتصادية.

مشكلة البحث:

يحاول هذا البحث الجواب على عدد من الأسئلة الهامّة:

ما مفهوم المقاطعة الاقتصاديّة؟ وما جدواها؟ وما الأدلة على مشروعيّتها؟ وما أهميّة تكاتف الأمّة للقيام بها؟ وما أحكام المقاطعة الاقتصاديّة مع الكيان الصهيوني وداعميه؟

أهداف البحث:

١) تأصيل شرعيّ ومفاهيميّ لموضوع المقاطعة الاقتصادية.
٢) بيان أحكام المقاطعة الاقتصادية مع الكيان الصهيوني وشركاته والدول والشركات الداعمة له.

أسباب اختيار الموضوع:

الأوّل: مواكبة الحدث- طوفان الأقصى- بالتنظير والتأصيل الدقيق لما يخدمه.

الثاني: إثراء المكتبة ببعض الأبعاد الشرعيّة والاقتصاديّة لهذا الموضوع.

تقويم الدراسات السابقة:

وقفت على عدد من الدراسات السابقة المهمّة في هذا الحقل، ومن أهمّها ما يأتي:

١) المقاطعة الاقتصادية -حقيقتها وحكمها- دراسة فقهيّة للدكتور خالد بن عبد الله الشمراني.

وهي رسالة مختصرة، مكتنزة بالأفكار، عرّف فيها المقاطعة الاقتصادية، وحكم التعامل مع الكفّار اقتصاديًّا، وسرد نماذج تاريخية من صور المقاطعة الاقتصادية، وعدّ المقاطعة ضربًا من ضروب الجهاد العام، ثمّ دلّل على مشروعيّتها.

٢) المقاطعة الاقتصادية رؤية شرعيّة للشيخ هاني بن جبير.

وهي رسالة وجيزة، أشار فيها إلى أبحاث جديدة في حقل وسائل التعامل مع الكفّار، وأنواع بضائعهم، ودور سدّ الذرائع في مشروعيّة المقاطعة، وارتباط المقاطعة الاقتصاديّة بوليّ الأمر.

٣) المقاطعة الاقتصادية تأصيلها الشرعي، واقعها والمأمول لها-عابد بن عبد الله السعدون.

وقد ركّز فيها الباحث على تخريج العلّة الشرعيّة للمقاطعة الاقتصاديّة، وضبط مسألة علاقة وليّ الأمر بها، وأحوال المسلمين، وتنزيل أحكام المقاطعة الاقتصادية عليها، وموقف المسلمين من الحصار الاقتصاديّ المفروض عليهم.

٤) أحكام المعاملات الماليّة، نوّاف التكروري.

وهو كتاب تأسيسيّ في بابه، وهناك أبحاث كثيرة فيه لها علاقة ببحثنا، ومن هذا ما جاء في أمر القيود في الاستيراد والتصدير لديار الكفر، وأحكام الشركات بين أهل الدارين، وأحكام المعاملات التجارية غير المشروعة بين أهل الدارين، وأحكام عقود الأمانات بين أهل الدارين، ومما له علاقة بموضوعنا صيغ تطبيقية: المعاملات المالية بين المسلمين واليهود في فلسطين المغتصبة ومنه، حكم أموال اليهود داخل فلسطين، وحكم التعامل التجاري داخل فلسطين.

الإضافة العلميّة للبحث:

تميّزت هذه الرسالة عن غيرها من الرسائل والكتيّبات ببعض الإضافات العلميّة التفصيليّة والمركّزة، وأبرزها:

١) ارتباط المقاطعة الاقتصادية بعقيدة الولاء والبراء، واعتبارها ضربًا من ضروب جهاد الدفع.

٢) تفصيل أحكام المعاملات المالية مع الكفّار غير الحربيّين، وحكم التعامل مع اليهود الصهاينة والشركات الداعمة لهم.

٣) أحوال المسلمين في المقاطعة الاقتصادية، ومن تقع عليه المقاطعة، وتحديد الجهات التي لم تقاطع، وحكم من لم يقم بالمقاطعة.

٤) أحكام المقاطعة الاقتصادية بحسب الجهة المقاطعة.

منهج البحث:

اعتمدنا في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، ويتناول الآتي:

١) تغطية كلّ ما يتعلّق بموضوع المقاطعة لا سيّما مع اليهود.

٢) الاحتجاج بالأدلّة الواضحة، وبيان وجوه الدلالة، وعلاقتها بمركز الموضوع.

٣) عزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث والحكم عليها.
٤) الاعتناء بذكر التعريفات والمفاهيم المتعلّقة بهذا الموضوع، وتلخيص ما فيها.
٥) وضع خاتمة متضمّنة لأهمّ النتائج.

وفي هذا جاء البحث بتمهيد، وستّة مطالب، وخاتمة:

- التمهيد – طوفان الأقصى وبثّ الروح في الأمّة، وإحياء فقه الجهاد فيها.
- المطلب الأوّل: ضرورة النصرة ومجالاتها.
- المطلب الثاني: مجالات المقاطعة عمومًا.
- المطلب الثالث: مفهوم المقاطعة الاقتصادية ومجالاتها وأبعادها.
- المطلب الرابع: أقسام الجهاد في سبيل الله، وموقع المقاطعة الاقتصادية منه.
- المطلب الخامس: مشروعيّة المقاطعة الاقتصادية.
- المطلب السادس: أحكام المعاملات الماليّة مع الكفار، والحربيّين، والصهاينة ومن ساندهم.
- الخاتمة: حول الأحكام التفصيليّة للمقاطعة الاقتصاديّة باعتبار الجهات المقاطِعة.

التمهيد: طوفان الأقصى وبثّ الروح في الأمّة، وإحياء فقه الجهاد فيها.

منذ زراعة السرطان الخبيث الكيان الصهيونيّ في أرض فلسطين، وعالمنا يعاني شرهم وإفسادهم وقتلهم للآمنين، وقد تصاعد الإفساد الصهيوني في الفترة الأخيرة ابتداء من التدنيس المستمرّ للمسجد الأقصى، وإقامة الشعائر التلموديّة الباطلة من أجل تحقيق سيادتهم التامّة عليه تمهيدًا لهدمه وإقامة هيكلهم المزعوم مكانه، وتدنيسهم لعموم المقدّسات في فلسطين، ومرورًا بسجن الآلاف المؤلّفة من الرجال والأطفال والنساء من الفلسطينيين وغيرهم، والتنكيل بهم، وإطالة سجنهم وتكراره، وانتهاء بالقتل اليوميّ للفلسطينيين، وهدم بيوتهم، واجتياح المدن والمخيّمات، وغير ذلك من أنواع الإفساد وأشكاله، وهذا في الحقيقة لم يحدث مثله في تاريخ القضيّة.

وقد عاني العالم العربيّ حالة شديدة من الإخفاق خصوصًا بعد انتكاسة الربيع العربي، فقد عادت القبضة الأمنية على شعوب المنطقة، لتقتل الثوّار في الطرقات، وتعتقل المخلصين من تيار الصحوة الإسلاميّة، وتطفئ جذوة الأمل في التغيير، وهذا أدّى إلى تفشّي مشاعر اليأس والقنوط، بل ولّد لونًا من الغفلة في ردّة الفعل، وقد تلقف اليهود هذه الفرصة الاستثنائية؛ لتنفيذ أهدافهم الخبيثة في المنطقة العربية والإسلامية وفي القلب منها فلسطين، فسارعوا في عمليّة تهويد القدس، وسعوا لإغلاق ملفّ القضيّة الفلسطينيّة من خلال مشاريع التطبيع والتحالف مع الدول العربية والإسلاميّة حيث طبَّعت الكثير من الأنظمة العربيّة والإسلاميّة خلال السنوات الأخيرة، أضف على هذا تحرّكهم الحثيث للتطبيع مع دول أخرى، وربط دول المنطقة مع الكيان الصهيوني في مشروع اقتصاديّ يحقّق السيادة التامّة لهذا الكيان، مع السعي لإمضاء صفقة القرن واحتلال غزة وتهجير أهلها إلى صحراء سيناء، وتهجير الفلسطينيين من الضفة الغربية ومناطق الـ٤٨ إلى الأردن، وقد أدرك المجاهدون في غزة العزة خطورة الوضع، فأعدّوا العدّة لإيقاف مخططات هذا العدوّ الخبيث، فكانت معركة طوفان الأقصى تحقيقًا لسنن الله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١]. فمن سنن الله أنّه يدفع المؤمنين ليردّوا اعتداء الكافرين حتّى لا تفسد الأرض، والصهاينة أئمة الفساد وسدنة الشر.

وكان من فضل الله سبحانه وتعالى أن يتجاوز هذا الطوفان العظيم قضيّة إيقاف مخطّطات العدوّ إلى فتح الأمل أمام الأمّة من أجل استعادتها لسيادتها، هذا بالإضافة إلى بعث روح الجهاد من جديد، وظهور معادن الرجال الداعية للحقّ والمسوّقة له، فالثبات على الحقّ والتضحية في سبيل الله ومن أجله يجذب الآخرين له، بل يثير مشاعل النور في قلوب المستضعفين ليتحرّروا من ربقة الظلمة، ولا جرم أنّه حان الوقت لكي تتحرّك الأمّة دعمًا لطوفان الأقصى بكلّ الأدوات والوسائل الممكنة، فهذا هو الوقت المناسب لكي يتحرك المسلمون لنجدة قدسهم ومسرى نبيّهم، وهذا هو الوقت المناسب للخروج من اليأس والقنوط، فسبحان مالك الملك، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وهو على كلّ شيء قدير.

المطلب الأوّل: ضرورة النصرة ومجالاتها.

الفرع الأوّل: ضرورة النصرة:

أنعم الله على هذه الأمّة الإسلامية بالتوحيد، التوحيد في كلّ ضروبها وأحوالها، وفي كلّ عبادتها واجتماعها، فربّها واحد.. ونبيّها واحد.. وقبلتها واحدة.. قال جلّ وعلا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. وأمّتها واحدة مرتبطة بالسابقين واللاحقين من المؤمنين.. قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وأوصال هذه الوحدة العقائديّة مرتبطة بالوحدة العضويّة الاجتماعيّة التي تجعلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى، كما في الحديث: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[(١)]، فالوحدة العقائديّة تستلزم الوحدة العضويّة والاجتماعيّة.

وكذلك لا بدّ أن تصاحبهما الولاية بعضهم لبعض، قال الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

---

(١) مسلم، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. ج٤/ ص١٩٩٩، رقم الحديث: ٢٥٨٦.

فهي ولاية في كلّ حال وفي كلّ أمر فيه طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وإنّ تحقيقها مؤدٍّ لرحمة الله العزيز الحكيم، ويا لها من مكافأة لا تعدلها مكافأة، وقال الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۖ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٢- ٧٤]. فهذه الآيات الكريمات توجب التناصر والمولاة بين المؤمنين وبعضهم لبعض كما قال المفسّرون[١] وهذا يشمل كلّ ما جاء في المولاة والتناصر، وكلّ ما جاء في البراءة من غيرهم وعدم موالاتهم، قال الكيا الهراسي: «وفي نفي الولاية، دليل على قطع الولاية بينهما في المال والنفس جميعًا»[٢].

الفرع الثاني: مجالات النصرة

يمكن تقسيم مجالات النصرة بتقسيم حاصر من حيث الوجود إلى جانبين:

١) النصرة من جانب الوجود: ويقصد به جانب وجود النصرة وجلبها وتحقيقها.

٢) النصرة من جانب العدم: ويقصد بذلك درء كلّ ما يؤدّي إلى الخذلان وعدم النصرة.

وكلّ جانب من الجانبين ينقسم باعتبار الذات إلى ناحيتين:

١) الناحية المادّيّة: ويقصد بها كلّ ما له أثر حسّيّ، فيدخل فيها النصرة بالمال، والنصرة بالرجال، والنصرة بالمقاطعة الاقتصاديّة وعدم بيع البضائع والمواد.

---

(١) انظر: الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج٦/ص٣٢٧. قال الجصاص: «أوجب عليهم التناصر والمولاة» (سورة الأنفال) قال ابن العربي: «قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، وجعل المنافقين بعضهم أولياء بعض، يتناصرون بدينهم، ويتعاملون باعتقادهم» انظر: ابن العربي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ج٢/ص٤٤١.

(٢) الكيا الهراسي، علي بن محمد، أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ، ج٢/ ص٢٨٥.

٢) الناحية المعنويّة: ويقصد بها ما له أثر لكنّه ليس حسّيًّا مادّيًّا، مثل: النصرة بالكلمة، والنصرة في الإعلام، والنصرة في كشف إجرام الصهاينة، والنصرة في كشف المتعاملين مع العدوّ الصهيوني والداعمين له وإساءة وجوههم.

وعند الجمع بين التقسيمين تتكوّن عندنا مجالات النصرة بشكل عامّ، وهي كما يأتي:

١) النصرة من حيث الوجود المادّيّ، وذلك من خلال النصرة بالمال وبالمواد العينيّة، والنصرة بالرجال وأصحاب الخبرات والكفاءات كالأطبّاء والمهندسين والعسكريّين وغيرهم ممّن يحتاج إليهم.

٢) النصرة من حيث الوجود المعنويّ، وذلك من خلال النصرة بالكلمة والإعلام، وتوعية الأمّة ونخبها بواجباتها في النصرة والإمداد.

٣) النصرة من حيث العدم المادّيّ، وذلك من خلال المقاطعة بكلّ أشكالها، ومنها المقاطعة الاقتصاديّة.

٤) النصرة من حيث العدم المعنويّ، وذلك من خلال الترويج لثقافة المقاطعة بكلّ أشكالها، وبيان خطورة الخذلان.

فكما تبيّن فإنّ المقاطعة الاقتصاديّة نوع من النصرة من حيث العدم من الناحيتين المادّيّة والمعنويّة، حيث تدخل في الناحية المادّيّة باعتبار منع التعامل الاقتصاديّ مع الكيان المحتلّ وشركاته وشركات الدول الداعمة له والشركات الداعمة له في كل مكان، وفي ذلك تأثير مادّيّ ملموس حيث سيقلّ حجم التعامل مع هذه الشركات بيعًا وشراء وتعاملًا وسيقلّ عدد المتعاملين معها، وتدخل الناحية المعنويّة باعتبار ما يجب أن يترافق مع المقاطعة من إعلام وإعلان وإساءة لوجه المتعاملين مع الكيان الصهيونيّ وشركاته والشركات الداعمة له وفضحهم.

المطلب الثاني: مجالات المقاطعة عمومًا:

تأسيسًا على ما سبق ذكره حول المجالات الشموليّة للنصرة، وكون المقاطعة من مجالات النصرة، فإنّنا يمكن أن ننظر إلى المقاطعة بنظر شموليّ، حيث يمكن تصوّر أنواع عديدة من المقاطعة، وفيما يأتي بيان أهمّها:

١) المقاطعة السياسيّة

٢) المقاطعة الاقتصاديّة
٣) المقاطعة العلمية والتعليمية والثقافية
٤) المقاطعة الصحية
٥) المقاطعة الاجتماعية
٦) المقاطعة الرياضية
٧) المقاطعة الإعلامية
٨) المقاطعة السلوكية

المطلب الثالث: مفهوم المقاطعة الاقتصادية، ومجالاتها، وأبعادها.

الفرع الأول: مفهوم المقاطعة الاقتصادية للكيان الصهيوني وداعميه

تعريف الاقتصاد في اللغة: الاقتصاد في اللغة يدلّ على: استقامة الطريق، وخلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير[١]، والتوسّط في الأمور.

تعريف الاقتصاد في اصطلاح الاقتصاديين: عرّفه الدكتور أحمد فهمي: «العلم بالقوانين التي تنظّم الثروة من حيث إنتاجها واستبدالها وتوزيعها واستهلاكها وصيانتها على وجه يسدّ حاجة الشعب والدولة»[٢].

تعريف المقاطعة في اللغة:

المقاطعة في اللغة من الجذر قطع، وهو كما قال ابن فارس: «أصل صحيح واحد، يدل على صرمٍ وإبانة شيءٍ من شيءٍ»[٣]، فمرجع المقاطعة إلى الهجر وعدم الاتّصال والخنق، وقطعت الصديق

(١) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي. دار النشر: دار المعارف، البلد: القاهرة. ج٥/ ص ٣٦٤٢.
(٢) أحمد فهمي أبو سنة، علم الاقتصاد الإسلامي- ضرورة قائمة، وحقيقة واقعة، مجلّة المجمع الفقهي، العدد (١٣) نقلًا عن عابد بن عبد الله السعدون، المقاطعة الاقتصادية- تأصيلها الشرعي، واقعها والمأمول لها، دار التابعين، ص(٢٣-٢٥)
(٣) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٥/ ص١٠١.

قطيعةً هجرته، وقطعته عن حقّه منعته، وبينهما رحم قطعاء إذ لم توصل[١].

تعريف المقاطعة اصطلاحًا:

عرّف مصطلح المقاطعة في المعجم الوسيط بأنّه: «الامتناع عن معاملة الآخرين اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا وفق نظام جماعي مرسوم»[٢].

تعريف المقاطعة الاقتصاديّة في اصطلاح الاقتصاديين:

عرفت المقاطعة الاقتصادية في الموسوعة الاقتصادية بأنّها: «سحب كلّ العلاقات، ورفض التفاوض في أيّ معاملات تجارية»[٣].

مفهوم المقاطعة الاقتصادية للكيان الصهيوني وداعميه:

المقاطعة الاقتصادية للكيان الصهيوني: هي إجراء فردي وجماعي بالامتناع عن أيّ تعامل تجاريّ مع الكيان الصهيوني وشركاته والشركات الداعمة له في أيّ مكان.

الفرع الثاني: أهميّة المقاطعة، والأمثلة التاريخيّة عليها:

تعدّ المقاطعة عمومًا في فحواها الاجتماعية فعلًا إنسانيًّا يقصد به: التأديب والضغط وفرض الإرادة على الآخر، ومن أهمّ مجالاتها: المقاطعة الاقتصادية، والتي تعدّ من أقوى أسلحة الضغط، فهي سلاح فعّال في مواجهة العدو الصهيوني وداعميه، وممّا يدلّ على أثر هذا السلاح أن رئيس

(١) انظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، باب العين/ فصل القاف، ج١/ ص٧٥٣-ص٧٥٤. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قطع، ج٥/ ص٣٦٧٤. انظر: الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، كتاب القاف/ القاف مع الطاء وما يثلهما، مادة قطع، ج٢/ص٥٠٨.

(٢) مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، المعجم الوسيط، الناشر: دار الدعوة، مادة قطع، ج٢/ص ٧٤٦.

(٣) حسين عمر، الموسوعة الاقتصادية، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ص٤٥٥، نقلًا عن: الشمراني، خالد عبد الرحمن، المقاطعة الاقتصادية تأصيلها الشرعي واقعها والمأمول لها، الطبعة الأولى- ١٤٢٦ ه، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ص ٢٣.

وزراء الكيان الصهيوني أعاد ذكر اسم منظّمة «بي دي إس» (والتي تعني: مقاطعة، سحب استثمار، وعقوبات - وهي من التنظيمات الشعبيّة المنتشرة في العالم، والتي تعمل على المقاطعة الاقتصاديّة للكيان الصهيوني-) أكثر من ١٥ مرة في خطاب له في أمريكا، وقد استخدم النبي ﷺ سلاح الحرب الاقتصادية مع يهود بعد اعتداء اليهودي على المرأة المسلمة في سوق بني قينقاع حيث عاقبهم النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بالمقاطعة الاقتصاديّة ثم الحصار والإجلاء، فقد كان سوق بني قينقاع أكبر سوق في المدينة ولم يكن للمسلمين أيّ سوق فيها، فقام النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بإنشاء سوق إسلاميّة لأهل المدينة وجعلها في مكان مركزيّ بحيث تستقبل التجّار من خارج المدينة من الجهات كافّة في مكان واسع في طرف المدينة، فقد روي عن صالح بن كيسان قال: «ضرب رسول اللَّه ﷺ في موضع النبيط، فقال: هذا سوقكم، فأقبل كعب بن الأشرف، فدخلها، وقطع أطنابها[1]، فقال ﷺ لا جرم، لأنقلنها إلى موضع هو أغيظ له من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة، ثمّ قال: هذا سوقكم، لا يحجر، ولا يضرب عليه الخراج»[2] ومن الملاحظ هنا ما قام به كعب بن الأشرف وهو من زعماء يهود بني النضير من قطع أطناب خيمة السوق، حيث أدرك أن هذا السوق سيكون له أثر بالغ على أسواق يهود في المدينة حيث كانت أسواقهم وبشكل خاصّ سوق قينقاع هي الأسواق الوحيدة في المدينة، فقام النبيّ ﷺ بنقلها إلى مكان أغيظ له من المكان الأوّل، ثمّ يلاحظ أيضًا أنّ سوق المدينة الإسلاميّ كان سوقاً مفتوحًا لا يحجر ولا تفرض فيه أيّ ضرائب على التجّار، بعكس أسواق يهود، ممّا أدّى إلى كساد تجارة اليهود في المدينة المنوّرة.

وجاء في تاريخ الأمم مثل هذه النوعيّة من المقاطعة، مثل ما جرى بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥م) إذ امتنع كثير من الناس في أوروبا من شراء البضائع المصنّعة في ألمانيا، بسبب احتلالها لبلادهم، ومثل ما دعا له المهاتما غاندي بمقاطعة البضائع الأجنبيّة بإحراقها علنًا في بومباي ضمن سلسلة من أعمال الاحتجاج ضد الاستعمار البريطاني للهند، ومن أمثلة المقاطعة الاقتصاديّة: أنّ معظم الدول العربية كانت تقاطع الكيان الصهيوني بسبب احتلاله لأرض فلسطين المسلمة لا

(١) الطُّنُبُ: طُنُبُ الْخِيَامِ، وَهِيَ حِبَالُهَا الَّتِي تُشَدُّ بِهَا. انظر مقاييس اللغة لابن فارس، ٣/ ٤٢٦.

(٢) انظر: المقريزي، أحمد بن علي، إمتاع الأسماع بما للنبيّ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، إمتاع ج٩/ ص٣٦٢.

سيّما ما قام به الملك فيصل من استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية بشكل مؤثّر، في أعقاب حرب ١٩٦٧م وحرب ١٩٧٣م، فبعد يومين من نشوب الحرب الأولى، أعلن حظر البترول السعوديّ عن بريطانيا والولايات المتّحدة، وعلى إثر نشوب حرب ١٩٧٣م تزعّم حركة الحظر البتروليّ الذي شمل دول الخليج، فكان لهذا الحظر أثره في توجيه المعركة.

وقد كان للمقاطعة الاقتصادية للشركات الصهيونية أو الداعمة للصهاينة التي ابتدأت منذ ما بعد السابع من أكتوبر من العام ٢٠٢٤م بسبب الحرب على غزة أثر بالغ، فعلى سبيل المثال أعلنت شركة «ماكدونالدز» فشلها في تحقيق مبيعاتها المستهدفة لأوّل مرّة منذ ٤ سنوات، وقد خسرت نحو ٧ مليارات دولار من قيمتها في يوم واحد بعد إعلان مديرها المالي (إيان بوردن) عن استمرار تأثير المقاطعة في المنطقة العربية والعالم الإسلامي على المبيعات خلال العام الحالي[١]، وتواصل شركة (ستاربكس) الأمريكية على سبيل المثال، خسائرها مع تزايد مخاوف المستثمرين بشأن تباطؤ المبيعات، بعد تكبدها خسائر بأكثر من ١٢ مليار دولار خلال ٢٠ يومًا فقط[٢].

وبينت حملة (بي دي إس)، أنّ حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات أدّت سابقًا إلى إقدام شركات كبرى مثل (فيوليا) (Veolia)، و(أورانج) (Orange)، و(سي آر إتش) (CRH)، على إنهاء تورّطها في المشاريع الصهيونية كلّيًّا، كما أدّت إلى سحب مجموعة واسعة من المستثمرين لاستثماراتهم من الشركات الصهيونية، وكذلك من الشركات العالمية المتواطئة[٣]. ويتخوّف الاحتلال الصهيوني من توسّع حملات المقاطعة، حتى إنّ وزير الأمن العام والشؤون الاستراتيجيّة السابق (جلعاد أرادان) قال خلال كلمة ألقاها في مؤتمر لحزب اللكود عام ٢٠١٧، إنّهم انتقلوا من «حالة الدفاع إلى الهجوم»[٤]. فهذا كلّه يدلّ بشكل قطعيّ على كون سلاح المقاطعة من الأسلحة الفعّالة التي لها أثر بالغ على الكيان المحتل وداعميه.

(١) مقال بعنوان: ماكدونالدز تخسر ٧ مليارات دولار متأثّرة بالمقاطعة لأجل غزة، منشور في: https:// www.aljazeera.net/ebusiness

(٢) مقال: تأثير حملات المقاطعة.. ستاربكس تخسر ١٢ مليار دولار خلال ٢٠ يومًا، منشور في موقع: https://www.alaraby.com/news

(٣) المصدر السابق .

(٤) مقال: حملات المقاطعة ضد إسرائيل.. كيف تمنع قتل طفل فلسطيني؟ منشور في موقع: https:// www.alaraby.com/news

الفرع الثالث: مجالات المقاطعة الاقتصادية:

للمقاطعة الاقتصادية مجالات متعدّدة تتوسّع بحسب موارد العدوّ وما يعتمد عليه، وما يخشى منه، ومن هذه المجالات:

أ) الامتناع عن الشراء منهم ومن الشركات الداعمة لهم ومن شركات الدول المؤيّدة لهم، والبيع لهم ولهذه الشركات.

ب) الامتناع عن التعامل الاقتصاديّ معهم عن طريق أيّ نوع من أنواع العقود ومع الشركات الداعمة لهم.

ج) التحذير من التعامل معهم ومع شركاتهم ومع الشركات الداعمة لهم وشركات الدول الداعمة لهم، وبيان حرمة ذلك شرعًا مع ضرورة المقاطعة عقلًا والمصالح المترتّبة عليها للبلدان الإسلاميّة.

د) الحرب الإعلامية، والتقليل من شأن التجارة معهم وبيان مفاسدها العامّة والخاصّة.

هـ) إيجاد الأسواق المقاطعة للعدو الصهيوني وشركاته ولسلع الشركات الداعمة له.

و) إيجاد التجارة المستقلة البديلة، في المنتجات والبضائع والسلع والمواد.

المطلب الرابع: أقسام الجهاد في سبيل الله، وموقع المقاطعة الاقتصادية منه.

الفرع الأول: أقسام الجهاد في سبيل الله:

المسألة الأولى: أقسام الجهاد من حيث مجاله:

جهاد النفس والشيطان: وهو بذل الوسع لمخالفة الشهوات والشبهات والتخلّص من أمراض القلوب: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

جهاد الحجّة والبيان: وذلك بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[1].

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر وأنّ الإيمان يزيد وينقص وأنّ

الجهاد بالبدن: وهو القتال في سبيل الله، ويدخل فيه التحريض عليه، والإخبار بثغور العدوّ وإعداد العدّة.

الجهاد بالمال: بتمويل الجهاد، وإعداد الغزاة وآلة السلاح، وإمداد المجاهدين بكلّ ما يحتاجون إليه، والتكفّل بأسرهم، قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقد قدّم الجهاد بالمال على النفس في القرآن في معظم مواضعه؛ لأهمّيّته وضرورته، ولكنّه لا يرقى إلى مرتبة الجهاد بالنفس كما قال الإمام ابن قيّم الجوزيّة: «فإذا بذلوا محبوبهم في حبّه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي بذل نفوسهم له، فهذا غاية الحبّ، فإنّ الإنسان لا شيء أحبّ إليه من نفسه، فإذا أحبّ شيئًا بذل له محبوبه من نفسه وماله»[(١)].

ونحن في عصر استضعف فيه أهل الإسلام استضعافًا شديدًا، وحيل بين الأمّة وحماية دينها بالبدن بشكل كبير، بيد أنّ مجالات التعاون والتواصي واسعة كما قرأنا في تعريفات الفقهاء، فتجهيز الغزاة له أجر الغزو كما جاء في الحديث: «من جهّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا»[(٢)] لذلك وجّهت الزكاة لإعانة هذه الفريضة الغائبة، بل ذهب عدد من العلماء إلى إعطاء الغازي الغنيّ من هذه الزكاة[(٣)]، وقد تسابق الصحابة في المشاركة بالمال، مثل سيّدنا عثمان -رضي الله عنه- في تجهيز الهجرة وتجهيز جيش العسرة في تبوك، وكذا ذهب الصدّيق -رضي الله عنه- بكلّ ماله، وذهب الفاروق -رضي الله عنه- بنصف ماله، وكذلك كان سيّدنا عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- وكذلك عدد كبير من الأنصار.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ج١/ص٦٩، رقم الحديث: ٥٠.

(١) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي- بيروت، ج ١/٧٨.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، باب فضل من جهّز غازيًا أو خلفه بخير، ج٤/ص٢٧. رقم الحديث: ٢٨٤٣.

(٣) قال الصنعانيّ في شرح حديث: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِعَامِلٍ عَلَيْهَا أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ أَوْ غَارِمٍ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِسْكِينٍ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيٍّ مِنْهَا» إلى أنّ الغازي يحلّ له أن يتجهّز من الزّكاة وإن كان غنيًّا؛ لأنّه ساع في سبيل الله. انظر: الصنعاني، محمّد بن إسماعيل، سبل السلام، الناشر: دار الحديث، كتاب الزكاة، باب قسمة الصدقات: من تجوز له الزكاة من الأغنياء، ج١/ ص٥٥٠.

المسألة الثانية: أقسام الجهاد في سبيل الله باعتبار حالته وواقعه:

ينقسم الجهاد في سبيل الله باعتبار حالته إلى قسمين:

١) جهاد دفع: وهو الجهاد بالبدن والمال وبكلّ وسيلة إذا دخل العدوّ أيّ جزء من ديار المسلمين أو همّ بدخوله.

٢) جهاد طلب: وهو الجهاد بالبدن والمال والكلمة والحجّة وبكلّ وسيلة في حالة قصد جيش الإسلام ديار العدوّ من أجل كسر القيود والحواجز المانعة من نشر دعوة الله وتبليغها للناس، فهو الذي يُطلَب فيه العدوّ في أرضه، ويغزو المسلمون فيه الكفارَ في أرضهم، كما فعل رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وفعَلَ الصحابة رضوان الله عليهم مِن بعده، والخلفاء المسلمون من بعدهم.

الفرع الثاني: موقع المقاطعة الاقتصاديّة من الجهاد بالمال:

إنّ الجهاد بالمال يسير في مَسلكين، المسلك الأوّل: داعم لصفّ الجهاد والمجاهدين، فكلّ ما يؤدّي إلى تقوية المجاهدين وتمكينهم من الناحية المادّيّة يدخل في هذا المسلك، والثاني: يتضمّن كلّ ما يؤدّي إلى إضعاف العدوّ ومحاصرته وتجفيف منابع تمويله، وذلك من خلال المقاطعة الاقتصاديّة للعدو المجرم ومنع دعمه ومقاطعة كلّ من يدعمه.

فالجهاد بالمال فيه دعم للمجاهدين ولجهازهم الاجتماعي العضوي والإداري والإعلامي. والمقاطعة الاقتصادية فيها قطع للموارد عن صفوف المحاربين، وفيها ضغط حقيقيّ على كلّ من يدعمهم أو يعينهم من أجل إيقاف دعمهم وإعانتهم لهم، فالامتناع الاقتصاديّ عمّا ينفعهم أو يعود بالنفع عليهم هو جهاد منع، كما أنّ الإنفاق جهاد دعم، فالله عزّ وجلّ أمرنا بالإنفاق في سبيل الله لتأييد أهل الحقّ، ومفهوم المخالفة للأمر بالجهاد بالمال، جهاد الكفّار المحاربين بمنع وصول المال والمدد لهم عن طريق مقاطعتهم ومقاطعة كلّ من يدعمهم، فالمقاطعة ما هي إلّا قطع لدابر الكافرين، قال الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

وكما يقوم العدوّ المجرم والدول الداعمة له باتّباع كلّ السبل لتجفيف مصادر تمويل المجاهدين فإنّ من أوجب الواجبات على المسلمين أن يتّبعوا كلّ الأسباب لتجفيف مصادر تمويل العدوّ الصهيونيّ الذي يقتّل النساء والأطفال والشيوخ، ويدمّر كلّ صور الحياة في غزّة العزّة وعموم فلسطين، وفي

المقاطعة تحقيق لجملة من مقاصد الجهاد في سبيل الله من إرهاب العدوّ وإيهان كيده وإذلاله.

وبناء على ما سبق، فإنّ المقاطعة ضرب من ضروب الجهاد، وهي نوع من أنواع الجهاد بالمال في سبيل الله. وبالإضافة إلى كون المقاطعة من ضروب الجهاد بالمال ففيها تربية لأبناء الأمّة الإسلاميّة على التحرّر، وفيها استعادة للسيادة والسلطة لأمّة الإسلام،؛ لأنّه لا يقصد بالمقاطعة مجرّد الفعل السلبيّ بعدم التعامل بل لا بدّ أن يكون مع ذلك فعل إيجابيّ بإنشاء الأسواق الإسلاميّة والمنتجات الإسلاميّة البديلة، قال العلّامة الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله: «على أنّ في المقاطعة معاني أخرى غير المعنى الاقتصادي: أنّها تربية للأمّة من جديد على التحرّر من العبوديّة لأدوات الآخرين ... وهي إعلان عن أخوّة الإسلام، ووحدة أمّته، وأنّنا لن نخون إخواننا الذين يقدّمون الضحايا كلّ يوم، بالإسهام في إرباح أعدائهم. وهي لون من المقاومة السلبيّة، يضاف إلى رصيد المقاومة الإيجابيّة، التي يقوم بها الإخوة في أرض النبوّات، أرض الرباط والجهاد. وإذا كان كلّ يهوديّ يعتبر نفسه مجنّدًا لنصرة الكيان الصهيونيّ بكلّ ما يقدر عليه، فإنّ كلّ مسلم في أنحاء الأرض مجنّد لتحرير الأقصى، ومساعدة أهله بكلّ ما يمكنه من نفس ومال. وأدناه مقاطعة بضائع الأعداء. وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧٣]»[١]

المطلب الخامس: مشروعيّة المقاطعة الاقتصادية

قضيّة التعامل الاقتصادي مع الصهاينة المحتلّين والمقاطعة الاقتصادية للكيان المحتلّ ولشركاته وللشركات الداعمة له من القضايا المستجدّة التي تحتاج اجتهادًا جديدًا بسبب ما يحيط بها من ظروف وأحوال مستجدّة، وذلك بعد بيان الأدلّة التي تدلّ على مشروعيّة المقاطعة عمومًا، وبيان أقوال الفقهاء حول أحكام مقاطعة العدوّ المحارب.

وقد دلّت الأدلّة من القرآن، والسنّة، والإجماع، وشرع من قبلنا، والاستصلاح، وسدّ الذرائع على مشروعيّة المقاطعة الاقتصاديّة:

أوّلًا: الأدلّة من كتاب الله تعالى:

(١) المصدر: https://www.al-qaradawi.net/node/٣٥٧٩

من النصوص الدالّة على مشروعيّة المقاطعة الاقتصاديّة ما يأتي:

١) في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة الممتحنة: ٩]. قال الشافعي: «وكانت الصّلة بالمال، والبرّ، والإقساط، ولين الكلام، والمراسلة: بحكم الله، غير ما نهوا عنه: من الولاية لمن نهوا عن ولايته: مع المظاهرة على المسلمين، وذلك: أنّه أباح برّ من لم يظاهر عليهم: من المشركين، والإقساط إليهم... (ثمّ) ذكر الذين ظاهروا عليهم، فنهاهم: عن ولايتهم. وكأنّ الولاية: غير البرّ والإقساط»[(١)].

وجه الاستدلال: قتال المسلمين وإخراجهم من ديارهم والمظاهرة عليهم يوجب البراء ممّن قاتلهم وأخرجهم، وقد فعل اليهود في غزة والقدس والضفّة أكثر من هذا، فمقاطعتهم اقتصاديًّا من البراء من الكافرين، والبر بالمؤمنين.

٢) قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: ٥]. أخرج البخاريّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «حَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ البُوَيْرَةُ» فَنَزَلَتْ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾»[(٢)].

وجه الاستدلال: كان النخيل من موارد العدوّ التي تموّلهم وتقوّيهم، ولمّا رأوا النخل والعجوة منها وهي تقطع جزعوا جزعًا شديدًا، ومن شدّة هذا الأمر عليهم أرسلوا إلى النبيّ ﷺ يستنكرون هذا الفعل حيث روى الواقدي أنّه أرسل حُيَيّ إلى رسول الله ﷺ: «يا مُحمّد، إنّك كنت تنهَى عن الفساد، لِمَ تقطع النّخل؟»[(٣)] فبيّنت الآية الكريمة أنّه ليس فسادًا إنّما إصلاحًا من وجه درء الفساد الأكبر لهذا العدوّ الخائن الجبان وإلحاق الخزي به، وفي هذا قال فخر الدين الزيلعي: «ولأنَّ فِي ذَلك كلّه إلحاق

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين، أحكام القرآن للشافعي - الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ج٢/ ص١٩٣.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم، ج٥/ ص ٨٨. رقم الحديث: ٤٠٣١.

(٣) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي، المغازي، تحقيق: ماردن جونس، الناشر: دار الأعلم – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. ج١/ ص٣٧٣.

الْغَيْظ بِهِم وَكَبتهم وَكَسر شوكتهم وَتَفْرِيق شَملهم فَيكون مَشْرُوعًا، وقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾»[1] وينطبق هذا على حكم المقاطعة، إذ فيها قطع لموارد العدو وما يقوّيهم، وإلحاق الغيظ بهم وكبتهم.

١) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. قال الإمام الزمخشريّ: «﴿واغلظ عَلَيْهِمْ.. ﴾ في الجهادين جميعًا، ولا تحابِهم»[2].

وجه الاستدلال: أنّ الله تعالى أوجب على المؤمنين جهاد الكفّار إمّا وجوبًا عينيًّا أو كفائيًّا، ومن المعلوم أنّ في جهادهم استباحة لدمائهم وأموالهم، فإلحاق الضرر بهم عن طريق المقاطعة الاقتصاديّة مشروع من باب أولى[3].

٤) قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وجه الاستدلال: في المقاطعة الاقتصادية نَيْلٌ من الكفّار وإغاظة لهم، وما كان كذلك فهو محبوب إلى الله تعالى.

ثانيًا: الأدلّة من السنّة النبويّة الشريفة:

١) أخرج البخاري -رحمه الله- في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟»

(١) الزيلعي، عثمان بن علي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ومعه حاشية الشِّلْبِيِّ، شهاب الدين أحمد بن محمد، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣١٣ هـ، ج٣/ ص٢٤٤.

(٢) الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، ج٢/ ص٢٩٠.

(٣) انظر: الشمراني، خالد عبد الرحمن، المقاطعة الاقتصادية تأصيلها الشرعي واقعها والمأمول لها، الطبعة الأولى- ١٤٢٦ ه، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ص ٦٩.

فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟»، قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ العُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلاَ وَاللَّهِ، لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1] وفي رواية عند البيهقي مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال ثمامة لأهل مكة: «إنّي، والله، ما صبوت، ولكنّي أسلمت وصدقت محمّدًا، وآمنت به، وايم الذي نفس ثمامة بيده لا يأتيكم حبّة من اليمامة، وكانت ريف مكّة، ما بقيت حتّى يأذن فيها محمّد صلّى الله عليه وسلّم. وانصرف إلى بلده، ومنع الحمل إلى مكّة حتّى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ»[2].

وجه الاستدلال: في قول ثمامة رضي الله عنه: «وَاللَّهِ، لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ» فقد أقسم ثمامة -رضي الله عنه- بأنّه سيمنع بيع الحربيّين الحنطة وغيرها، وهذا التهديد صورة من صور المقاطعة، قال ابن هبيرة في تعليقه على الحديث: «فيه.. جواز قطع المادة عن المشركين حتى يفيئوا إلى أمر الله»[3] ولو كان هذا الفعل غير مشروع لما أقرّه النبيّ ﷺ عليه، ثمّ إنّ ثمامة -رضي الله عنه- جعل أمر المقاطعة وإنهاءها بيد النبيّ ﷺ، وفي أمر النبيّ ﷺ لثمامة بإنهاء المقاطعة بعد أن جهدت قريش وطلبت منه ﷺ إيقاف المقاطعة دلالة على ما هو أعلى من

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج٥/ ص١٧٠، رقم الحديث: ٤٣٧٢.
(٢) البيهقي، السنن الكبرى للبيهقي، الطبعة الهندية، حديث رقم ١٨٠٩٥، ج٩/ ٦٦.
(٣) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، ٦/ ٢٨٣.

مجرّد الإقرار، فهو يدلّ على اتّفاق ثمامة -رضي الله عنه- مع النبيّ ﷺ وجعل الأمر إليه، ويدلّ أيضًا على أثر المقاطعة، وأنّ فيها إذلال للعدوّ حتّى يصل به الأمر إلى التوسّل من أجل إنهاء المقاطعة، ولا يصحّ الاحتجاج بطلب النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من ثمامة إنهاء المقاطعة على عدم مشروعيّتها؛ لأنّ النبيّ -صلى الله عليه وسلّم- لم يطلب من ثمامة إنهاء المقاطعة إلّا بعد أن تحقّق المقصود منها، ولأنّ ذلك حصل بعد توسّل قريش للنبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، وهذا يدلّ على تنازلهم وضعفهم، وأنّ أمر اقتصادهم صار بيد الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- فتحًا وإغلاقًا.

٢) ما جاء في سرايا النبي وغزواته ﷺ لاعتراض قوافل قريش التجاريّة، إذ بعث النبيّ ﷺ سعد بن أبي وقّاص فقال: «اخرج يا سعد حتّى تبلغ الخرّار؛ فإن عيرًا لقريش ستمرّ بك»[١]، وغزا بنفسه في غزوة الأبواء، وخرج في المهاجرين خاصّة يعترض عيرًا لقريش، وغزا أيضًا في غزوة بواط، وخرج ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيرًا لقريش[٢]، وخرج ﷺ لغزوة العشيرة بخميس ومائة من أصحابه وقيل في مائتين من المهاجرين، وخرجوا على ثلاثين بعيرًا يعتقبونها يعترضون عيرًا لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد كان جاءه الخبر بفصولها من مكّة فيها أموال قريش[٣]، وكان من أسباب غزوة بدر الكبرى طلبه ﷺ عير أبي سفيان التي كانت تحمل أموال قريش، فلمّا سمِع رسولُ اللهِ ﷺ بأبي سفيانَ مُقبِلًا من الشّامِ ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عيرُ قريشٍ فيها أموالُهم، فاخرجوا إليها لعلَّ اللهَ أن يُنفلكموها»[٤].

وجه الاستدلال: ما فعله النبيّ ﷺ من قطع الطريق على تجارة المشركين، ومن السيطرة على قوافلهم ومنع وصولها لهم، يمثّل صورة متقدّمة من صور المقاطعة الاقتصادية.

---

(١) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس. الناشر: دار الأعلمي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٩/١٩٨٩.ج١/ ص١١.

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون , ١٤١٥هـ /١٩٩٤م، زاد المعاد، ج ٣/ ص ١٤٨.

(٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، ج٣/ ص١٤٩.

(٤) انظر: ابن هشام، عبد الملك، سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥، ج١/ ص٦٠٧. وانظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، وقال الشيخ عبد الرزاق المهدي: ولبعضه شواهد في الصحيح. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ ج٢/ص٢٧٠.

٣) إقرار النبي ﷺ لأبي بصير تكوين عصابة ممّن أسلموا من قريش واعتراضهم لأيّ بعير خارج من قريش إلى الشام، فكما في نصّ رواية البخاري رحمه الله: «فَجاءَ أبو بَصِيرٍ فَقالَ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، قدْ -واللَّهِ- أوْفى اللَّهُ ذِمَّتَكَ؛ قدْ رَدَدْتَنِي إليهِم، ثُمَّ أنْجانِي اللَّهُ منهمْ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: ويْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ! لو كانَ له أحَدٌ. فَلَمّا سَمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنَّه سَيَرُدُّهُ إليهِم، فَخَرَجَ حتّى أتى سِيفَ البَحْرِ، قالَ: ويَنْفَلِتُ منهمْ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِن قُرَيْشٍ رَجُلٌ قدْ أسْلَمَ إلّا لَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، حتّى اجْتَمعتْ منهمْ عِصابَةٌ، فَواللَّهِ ما يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إلى الشَّأْمِ إلّا اعْتَرَضُوا لَها، فَقَتَلُوهُمْ وأَخَذُوا أمْوالَهُمْ»[1].

وجه الاستدلال: إقراره ﷺ لصحابته بأخذ مال الحربيّين وقتلهم، انتصارًا للديانة، وضبطًا للسياسة، وهذا فيه الإفادة بقطع المعاملات التجارية وترسيخ للمقاطعة الاقتصادية.

ثالثًا: الإجماع:

اتّفق علماء الأئمّة الأربعة على عدم بيع ما يتقوّى به العدوّ على المسلمين، ونقل النوويّ الإجماع في مسألة بيع السلاح للحربيّين، فقال: «وَأَمَّا بَيْعُ السِّلَاحِ لِأَهْلِ الْحَرْبِ فَحَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ»[2].

رابعًا: شرع من قبلنا:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩-٦٠]. قال النسفي: «أي فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا فهو داخل في حكم الجزاء»[3].

وجه الاستدلال: هذا كلام نبي الله يوسف عليه السلام، ويدخل ضمن شرع من قبلنا، والجمهور على قبوله ما لم يخالف شرعنا، وهذا يدلّ على مشروعيّة منع الكيل لتحقيق مصلحة المسلمين ودرء

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ج٣/ ص ١٩٣. رقم الحديث: ٢٧٣١.

(٢) النووي، يحيي بن شرف، المجموع شرح المهذب، الناشر: دار الفكر، ج٩/ ص٣٥٤.

(٣) النسفي، عبد الله بن أحمد، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ج٢/ ص١٢١.

مفسدة عدوان العدوّ عليهم، فكيف إذا كان هذا العدو مغتصبًا لأقدس مقدّساتهم مع سفكه لدماء الأطفال والنساء والشيوخ وعموم الفلسطينيين.

خامسًا: الاستصلاح والمقاطعة الاقتصادية:

قضيّة المقاطعة تدور حول التعامل الاقتصادي مع العدوّ بيعًا وشراء وغير ذلك من أنواع العقود، ومآل هذا التعامل من المصالح والمفاسد، وعند النظر في مآلات التعامل الاقتصادي مع العدوّ المجرم يتبيّن لنا أنّ هذا التعامل يقوّي العدو ويمكّنه من مواصلة العدوان، بل قد يكون فيه دعم عسكريّ لهذا العدوّ المجرم، وفي هذا مفسدة كبيرة واضحة مخلّة بالضروريّ العامّ من حفظ الدين والنفس والمال، والمصلحة في ذلك إن كانت هنالك مصلحة وهي ليست من المصالح المعتبرة أو المرسلة في النظر الشرعيّ بل هي مصلحة ملغاة متوهّمة، فهي مصلحة خاصّة بفئة قليلة من التجّار والمستهلكين، ولا تعدو مرتبة التحسينيّ من حفظ المال إذا سلّمنا جدلًا باعتبارها.

سادسًا: سدّ الذرائع والمقاطعة الاقتصادية:

ربط العلماء، وبشكل خاصّ علماء المالكيّة، قضية التعامل الاقتصاديّ مع الكفّار بمآل المعاملة وأثرها على الإسلام والمسلمين بحيث لا تؤدّي إلى ظهور الكافرين على المؤمنين أو تقويتهم أو تمكينهم، فمنعوا بيع النصارى ممّا له علاقة بالإعانة على شيء من دينهم، ومن مثال هذا بيعهم اللحوم والأدم والثياب فيما يستخدمونه في أعيادهم؛ لأنّه من التعظيم لشركهم وعونهم على كفرهم، قال ابن الحاج: «لا يحلّ للمسلمين أن يبيعوا للنصارى شيئًا من مصلحة عيدهم، لا لحمًا ولا إدامًا ولا ثوبًا، ولا يعارون دابّة، ولا يعانون على شيء من دينهم؛ لأنّ ذلك من التعظيم لشركهم وعونهم على كفرهم، وينبغي للسلاطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك، وهو قول مالك وغيره لم أعلم أحدًا اختلف في ذلك»[1]، وقد استدلّوا بسدّ الذرائع أيضًا في تحريم بيع الحربيّين ما يتقوّون به من سلاح وطعام وسلع: قال الإمام الحطّاب: «يحرّم بيع الحربيّين آلة الحرب من سلاح أو كراع أو سروج أو غيرها ممّا يتقوّون به في الحرب من نحاس، وخرثي... وآلة السفر وماعونه... وأمّا بيع الطعام فقال ابن يونس عن

(١) ابن الحاج، محمّد بن محمد، المدخل، الناشر: دار التراث، ج٢/ ص٤٨.

ابن حبيب يجوز في الهدنة، وأمّا في غير الهدنة فلا قاله ابن الماجشون»[١] ثمّ قال بعد أن أورد صورًا أخرى من صور المحرّمات: «والمذهب في هذا سدّ الذرائع»[٢].

هذا، وإذا نظرنا في قضيّة التعامل الاقتصاديّ مع الصهاينة المحتلّين وشركاتهم والشركات الداعمة لهم، فسنجد أنّ تحريم التعامل معهم أولى ممّا أورده الفقهاء من صور التحريم سدًّا للذريعة، فالتعامل معهم يفضي إلى تمكينهم وتقويتهم وتطويل أمد الحرب على المسلمين المستضعفين في غزة وفي عموم فلسطين، ويفضي إلى صبر المجتمع الصهيونيّ وتحمّله وهو مجتمع مترف لا يحتمل انقطاع المؤن والغذاء والموادّ المختلفة أو تضاعف أسعارها، وهذا فيه عون على الفساد في الأرض وما ينجم عن هذا من تدمير العمران وقتل العباد ونشر الفساد في الأرض، فالتعامل معهم يؤدّي إلى مفسدة عظيمة في الدين والنفس والمال، وهو مفضٍ إلى الحرام والفساد، وقد قال ابن تيميّة رحمه الله: «الذرائع إذا كانت تفضي إلى المحرّم غالبًا فإنّه يحرمها مطلقا»[٣]. وقال ابن القيّم رحمه الله: «إذا حَرَّمَ الربُّ تعالى شيئًا وله طرق ووسائل تُفْضِي إليه فإنّه يحرّمها ويمنع منها، تحقيقًا لتحريمه، وتثبيتًا له، ومنعًا أن يقرب حِمَاه، ولو أباح الوسائل والذرائع المُفْضِية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم، وإغراءً للنفوس به»[٤].

المطلب السادس: أحكام المعاملات الماليّة مع الكفّار

الفرع الأوّل: حكم التعامل الاقتصادي مع الكفار غير الحربيّين:

اتّفقت المذاهب الأربعة على جواز المعاملات الماليّة مع الكفار غير الحربيّين، واتّفقوا على مقاطعتهم في أنواع التعامل إذا كانوا حربيّين[٥] قال النووي رحمه الله: «وقد أجمع المسلمون على

(١) الحطاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ج٤/ ٢٥٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ج ٦/ ١٧٣.

(٤) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ، ج٤/ص٥٥٣.

(٥) انظر: السرخسي، المبسوط، دار المعرفة، ج١٠/ ص ٨٨- ٨٩. انظر: مالك، المدونة، كتاب التجارة في أرض العدو، ج٤/ ٢٧٥. انظر: الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج،

جواز معاملة أهل الذمّة وغيرهم من الكفّار إذا لم يتحقّق تحريم ما معه، لكن لا يجوز للمسلم أن يبيع أهل الحرب سلاحًا، ولا ما يستعينون به في إقامة دينهم، ولا بيع مصحف، ولا العبد المسلم لكافر مطلقًا، والله أعلم»[١].

ومن الأدلّة على ذلك ما يأتي:

قوله جلّ وعلا: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وقد ثبت تعامل النبيّ ﷺ وأصحابه مع يهود المدينة حينما كانوا من أهل العهد، وشملت المعاملة كلّ مضامين العلاقة التجارية، من بيع وشراء، ورهن. وقد تعامل النبي ﷺ مع آحاد المشركين في الشراء، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ مُشْعَانٌّ طَوِيلٌ بِغَنَمٍ يَسُوقُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْعًا أَمْ عَطِيَّةً؟ - أَوْ قَالَ: - أَمْ هِبَةً «، قَالَ: لاَ، بَلْ بَيْعٌ، فَاشْتَرَى مِنْهُ شَاةً»[٢]،

ووجه الاستدلال: أحلّ الله عزّ وجلّ البيع وهذا حكم عامّ يحتمل التخصيص. ووقوع البيع بين النبيّ ﷺ وبين المشرك دليل على إباحة التعامل إلّا أن تكون هنالك مفسدة مترتّبة عليه، وفي هذا قال ابن بطّال رحمه الله: «الشراء والبيع من الكفّار كلّهم جائز إلّا أنّ أهل الحرب لا يباع منهم ما يستعينون به على إهلاك المسلمين من العدّة والسلاح، ولا ما يقوون به عليهم»[٣]، ولا يصحّ الاستدلال بتعامل النبيّ ﷺ مع هذا المشرك في إباحة التعامل مع الكفّار الحربيّين المعتدين، وذلك لأنّ هذ المشرك من مشركي العرب وهؤلاء وإن كانوا كفّارًا حربيّين إلّا أنّهم لم يحتلّوا جزءًا من ديار الإسلام، فلا يقاس التعامل معهم على التعامل مع الكفّار الحربيّين المحتلّين.

الناشر: دار الكتب العلمية، ج٢/ ٣٣٨. انظر: ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، المغني، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي- عبد الفتاح محمد الحلو. دار عالم الكتب/ الرياض، ج٦/ ص ٣١٩.

(١) النووي، المنهاج، كتاب البيوع، باب جواز بيع الحيوان بالحيوان من جنسه متفاضلا، ج١١/ ص٤٠.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، ج٣/ ص٨٠. رقم الحديث: ٢٢١٦.

(٣) ابن بطّال، عليّ بن خلف، شرح صحيح البخاري لابن بطّال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم. دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. ج٦/ ص٣٣٨.

الفرع الثاني: حكم التعامل الاقتصاديّ مع الكفّار الحربيّين:

الحربيّون هم غير المسلمين الذين لم يدخلوا في عقد الذمّة ولا يتمتّعون بأمان المسلمين وعهدهم[١]، وقد انعقد الإجماع على حرمة التعامل مع الكفّار الحربيّين فيما يتقوّون به على المسلمين، وبشكل خاصّ فيما يستخدم في السلاح والعدّة وحمل الجند[٢]، وتفصيل الأقوال في الآتي:

أ) المذهب الحنفي:

يرى الحنفيّة بأنّ التعامل الاقتصاديّ مع الحربيّين مكروه، وهو محرّم إذا كان في ذلك تقوية لهم على المسلمين بأيّ شيء يتقوّون به، والتحريم عندهم في ذلك سواء في حالتي الحرب والموادعة، قال الإمام المرغيناني: «ولا ينبغي أن يباع السلاح من أهل الحرب، ولا يجهز إليهم؛ لأنّ النبيّ -عليه الصلاة والسلام- نهى عن بيع السلاح من أهل الحرب وحمله إليهم؛ ولأنّ فيه تقويتهم على قتال المسلمين، فيمنع من ذلك، وكذا الكراع لما بيّنّا، وكذا الحديد؛ لأنّه أصل السلاح، وكذا بعد الموادعة؛ لأنّها على شرف النقض»[٣].

ب) المذهب المالكيّ:

ذهب المالكيّة إلى حرمة بيع الحربيّين آلة الحرب وكلّ ما يتقوّون به أو يستخدمونه في الحرب، وذهبوا إلى حرمة التعامل الاقتصاديّ مع الحربيّين إذا لم تكن هنالك هدنة سدًّا للذريعة[٤]، وأباحوا التعامل الاقتصاديّ معهم في الأطعمة في حالة الهدنة، قال الإمام الحطّاب: «يحرم بيع الحربيّين آلة

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الطبعة: (من ١٤٠٤-١٤٢٧هـ).

(٢) انظر: السرخسي، المبسوط، ج١٠/ ص ٨٨- ٨٩. انظر: مالك، المدونة، كتاب التجارة في أرض العدو، ج٤/ ٢٧٥. انظر: مغني المحتاج، ج٢/ ٣٣٨. انظر: ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، المغني، ج٦/ ص ٣١٩.

(٣) المرغيناني، علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني، الهداية في شرح بداية المبتدي، المحقق: طلال يوسف، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت – لبنان، ج٢/ص٣٨٢.

(٤) انظر: ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري لابن بطال، ج٦/ ص٣٣٨. انظر: ابن رشد، محمد ابن أحمد، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تحقيق: د محمد حجي وآخرون. دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ج١٨/ ٦١٤. انظر: الدردير، أحمد بن محمد، الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك -ومعه حاشية الصاوي- تحقيق: مصطفى كمال وصفي، دار المعارف، ج٢/ ٢٨٨-٢٨٩.

الحرب من سلاح أو كراع أو سروج أو غيرها ممّا يتقوّون به في الحرب من نحاس، وخرثي... وآلة السفر وماعونه... وأمّا بيع الطعام فقال ابن يونس عن ابن حبيب يجوز في الهدنة، وأمّا في غير الهدنة فلا قاله ابن الماجشون» وعن سحنون أنّه «قال: قلت لابن القاسم: هل كان مالك يكره أن يتجر الرجل إلى أرض الحرب؟ قال: نعم، كان يكرهه مالك كراهية شديدة، ويقول: لا يخرج إلى بلادهم حيث تجري أحكام الشرك عليه، قلت لابن القاسم: أرأيت أهل الحرب هل يباعون شيئًا من الأشياء كلّها، كراعًا أو عروضًا أو سلاحًا أو سروجًا أو نحاسًا أو غير ذلك في قول مالك؟ قال: قال مالك: أمّا كلّ ما هو قوّة على أهل الإسلام ممّا يتقوّون به في حروبهم من كراع أو سلاح أو خرثي أو شيئًا ممّا يعلم أنّه قوّة في الحرب من نحاس أو غيره فإنّهم لا يباعون ذلك»[١].

ج) المذهب الشافعي:

ذهب الشافعيّة إلى تحريم بيع السلاح وآلة الحرب لأهل الحرب، وتحريم التعامل معهم بكلّ ما يستعينون به على إقامة دينهم، أو يستعينون به على قتال المسلمين والظهور عليهم، وذهبوا إلى إباحة التعامل معهم في غير عدّة الحرب وغير ما يتقوّون به على المسلمين، قال النوويّ رحمه الله: «وأمّا بيع السلاح لأهل الحرب فحرام بالإجماع، ولو باعهم إيّاه لم ينعقد البيع على المذهب الصحيح، وبه قطع جماهير الأصحاب في الطريقتين... واحتجّوا للمذهب بأنّهم يعدّون السلاح لقتالنا، فالتسليم إليهم معصية، فيصير بائعًا ما يعجز عن تسليمه شرعا فلا ينعقد»[٢]، وقال الخطيب الشربيني رحمه الله: «ولا يصحّ شراء الحربيّ سلاحًا، كسيف ورمح أو غيره من عدّة الحرب كدرع وترس...؛ لأنّه يستعين بذلك على قتالنا بخلاف الذمّيّ في دارنا، فإنّه في قبضتنا، وبخلاف عدّة غير الحرب»[٣].

د) المذهب الحنبلي:

ذهب الحنابلة في المذهب إلى تحريم بيع السلاح باعتبار المآل، فكلّ ما يقصد به الحرام حرام، قال ابن قدامة رحمه الله: «الحكم في كلّ ما يقصد به الحرام، كبيع السلاح لأهل الحرب.. حرام، والعقد باطل»[٤].

(١) مالك، المدونة، كتاب التجارة في أرض العدو، ج٤/ ٢٧٥.
(٢) النووي، يحيي بن شرف، المجموع شرح المهذب، الناشر: دار الفكر، ج٩/ ص٣٥٤.
(٣) الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ج٢/ ٣٣٨.
(٤) ابن قدامة، المغني، ج٦/ ص ٣١٩.

الفرع الثالث: حكم التعامل الاقتصاديّ مع اليهود الصهاينة:

قبل بيان حكم التعامل الاقتصاديّ مع الصهاينة المحتلّين، لا بدّ من إيراد حكم الجهاد إذا احتلّ العدوّ الكافر جزءًا من ديار الإسلام؛ لأنّ حكم المقاطعة تابع لهذا الأصل ومنبثق عنه.

المسألة الأولى: حكم جهاد الصهاينة المحتلّين بالنفس والمال وبكلّ السبل والوسائل:

أجمع علماء الإسلام على أنّ العدوّ إذا احتلّ شبرًا من بلاد الإسلام أو نزل بأيّ أرض من أراضي المسلمين، فإنّ الجهاد يسمّى في هذه الحالة بالنفير العامّ، ويصبح فرض عين على أهل هذه البلد وعلى من قرب منهم، وإذا عجزوا عن دفع هذا العدوّ فإنّ الفرض العينيّ يعمّ الأقرب فالأقرب من بلاد الإسلام، فبلاد الإسلام كلّها بمنزلة البلدة الواحدة، وإذا لم تتحقّق بهم الكفاية أو تخاذلوا فعندها يصير الجهاد فرض عين على كلّ بلاد الإسلام وعلى كلّ مسلم في الأرض، قال الإمام الماوردي في بيان حكم الجهاد في حالة احتلال العدوّ جزءًا من بلاد الإسلام: «أن يدخل العدوّ بلاد الإسلام ويطأها، فيتعيّن فرض قتاله على أهل البلاد التي وطئها ودخلها، فإن لم يكن بأهلها قدرة على دفعه تعيّن فرض القتال على كافّة المسلمين حتّى ينكشف العدوّ عنهم إلى بلاده»[1]، وقال الكمال ابن الهمام الحنفيّ: «فإن كان بأن هجموا -أيّ الكفار- على بلدة من بلاد المسلمين فيصير من فروض الأعيان.. فيجب على جميع أهل تلك البلدة النفر، وكذا من يقرب منهم إن لم يكن بأهلها كفاية، وكذا من يقرب ممّن يقرب إن لم يكن بمن يقرب كفاية أو تكاسلوا أو عصوا، وهكذا إلى أن يجب على جميع أهل الإسلام شرقًا وغربًا»[2] وقال الإمام القرطبي: «إذا تعيّن الجهاد بغلبة العدوّ على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافًا وثقالًا، شبابًا وشيوخًا، كلّ على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له، ولا يتخلّف أحد يقدر على الخروج من مقلّ أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتّى يعلموا أنّ فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كلّ من علم بضعفهم عن عدوّهم وعلم أنّه يدركهم ويمكنه غياثهم

(١) الماوردي، الحاوي الكبير، ١٤/ ٣١٠

(٢) ابن الهمام، كمال الدين، فتح القدير، الناشر: دار الفكر، ج٥/ص٤٣٩.

لزمه أيضًا الخروج إليهم، فالمسلمون كلّهم يد على من سواهم»[١]، وقال الإمام الخرقي: «وواجب على الناس إذا جاء العدوّ أن ينفروا المقلّ منهم والمكثر»[٢] فهذه هي أقوال العلماء، وقد لبّى المجاهدون في غزّة أمر الله سبحانه بالجهاد؛ دفعًا للعدوّ المحتلّ الذي احتلّ المقدّسات، وسفك الدّماء، واستحلّ الحرمات، وأسر الآلاف المؤلّفة من الرجال والنساء والأطفال، فأعدّوا له عدّته ففاجؤوا العدوّ، ودخلوا عليه الباب، وخلطوا عليه كلّ حساباته، لكنّ العدوّ الجبان استعان بالدول العظمى فأمدّوه بجسر جوّيّ متواصل من أحدث الأسلحة والمعدّات الحربيّة مع مساعدة شاملة في الجوانب الاستخباراتية واللوجستية والاستشارية، فاجتمع عليهم مع الكيان الصهيوني حلف عالميّ من الدول العظمى، ولا يمكنهم إيقاف هذا العدوان الوحشيّ، ولا إيقاف ما ترتّب عليه من دمار شامل، وإبادة للمدنيّين العزّل من الأطفال والنساء والعجزة، ولأجل ذلك كلّه، ولأجل اغتصاب هذا العدوّ المجرم لفلسطين منذ أكثر من ٧٥ سنة، فإنّ الجهاد يتحوّل إلى فرض عين في دفعهم على دول الطوق أوّلًا، وحال هذه الدول لا يخفى على ذي عينين، فمنها دول مطبّعة ولا تزال حكوماتها مصرّة على التطبيع مع الكيان المسخ وعلى الاتّفاقيّات الذليلة معه، ومنها دول منشغلة بأحوالها، ففرضيّة الجهاد لا بدّ أن تنتقل إلى من بعدهم، وإذا لم يتمكّن المسلم من الجهاد بنفسه فالفرض المتعيّن عليه أن يجاهد بماله وأن يجاهد بكلّ الوسائل الممكنة، ومنها الجهاد بمقاطعة العدوّ وشركاته والشركات الداعمة له، فالجهاد بالمال تابع لحكم الجهاد، فإذا صار الجهاد متعيّنًا فالجهاد بالمال متعيّن، والمقاطعة الاقتصاديّة جزء من الجهاد بالمال وتأخذ حكمه، فالمقاطعة من الفرض المتعيّن على كلّ مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: «ومن عجز عن الجهاد ببدنه وقدر على الجهاد بماله وجب عليه الجهاد بماله»[٣]، وقد ذكر روايتين عن الإمام أحمد، إحداهما يفهم منها أنّ الجهاد بالمال فرض كفاية والأخرى وهي الأصح أنّه فرض عينيّ»[٤]، ثمّ قال: «فأمّا إذا هجم العدوّ فلا يبقى للخلاف وجه، فإنّ دفع ضررهم عن الدين والنفس والحرمة واجب إجماعًا»[٥].

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب، ٨/ ١٥١.
(٢) الخرقي، متن الخرقي على مذهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، دار الصحابة، ١٣٨.
(٣) ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ٥/ ٥٣٧.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المرجع السابق.

المسألة الثانية: نوع النهي الشرعيّ المتعلّق بالمقاطعة الاقتصادية:

قسم علماء الأصول المنهي عنه من حيث متعلقه إلى قسمين رئيسين، وهما:

١) المنهيّ عنه لذاته، ويفهم من كلام الحنفيّة أنّهم يقسمونه إلى قسمين، قال الإمام البزدوي: «النهي المطلق نوعان: نهي عن الأفعال الحسّيّة، مثل: الزنا والقتل وشرب الخمر، ونهي عن التصرّفات الشرعيّة، مثل: الصوم والصلاة والبيع والإجارة وما أشبه ذلك، فالنهي عن الأفعال الحسّيّة دلالة على كونها قبيحة في أنفسها لمعنى في أعيانها بلا خلاف إلّا إذا قام الدليل على خلافه، وأمّا النهي المطلق عن التصرّفات الشرعيّة فيقتضي قبحًا لمعنى في غير المنهيّ عنه لكن متّصلًا به»[(١)].

٢) المنهيّ عنه لغيره، وينقسم عند التحقيق إلى قسمين[(٢)]، وهما:

أ) المنهيّ عنه لغيره لوصف ملازم للفعل غير منفكّ عنه. وذلك كالنهي عن الصلاة في الأوقات المنهي عنها وفي الأماكن المنهي عنها، وكالنهي عن صيام يومي الفطر والنحر.

ب) المنهيّ عنه لغيره لوصف منفكّ عنه مجاور له، وذلك كالبيع وقت النداء لصلاة الجمعة.

وبناء على هذه التقسيمات فإنّ ما تقتضيه المنهيّات من تحريم أو كراهة يمكن تقسيمها إلى ما يأتي بحسب أقوال العلماء في أقسام المنهي عنه من حيث متعلّقه، فتنقسم كلّ من المحرّمات والمكروهات إلى قسمين عند الجمهور، كما يأتي:

١) تنقسم المحرّمات إلى: محرّمات لذاتها، ومحرّمات لغيرها.

٢) تنقسم المكروهات إلى: مكروهات لذاتها، ومكروهات لغيرها.

ولهذه التقسيمات أثر على قاعدتين رئيستين من قواعد باب النهي، وهما: قاعدة: هل يقتضي النهي التحريم أم الكراهة؟ وقاعدة: هل يقتضي النهي البطلان أو الفساد أو لا يقتضي أيًّا منهما؟[(٣)]،

---

(١) البزدوي، علي بن محمد، أصول البزدوي -كنز الوصول الى معرفة الأصول، مطبعة جاويد بريس، كراتشي، ص٥٠.

(٢) انظر: ابن أمير حاج، التقرير والتحبير، ١/٣٩١-٣٩٢، العلائي، تحقيق المراد، ج١/ ص٩٤-٩٧، وانظر: الزركشي، البحر المحيط، ٣/ ٣٨٠- ٣٨٣.

(٣) انظر الأقوال في: الشاشي، أصول الشاشي، ص ١٦٥، والسبكي، الإبهاج في شرح المنهاج، طبعة دبي، ٤/ ١١٥٤، والعلائي، تحقيق المراد في أن النهي يقتضي الفساد، ١/ ٨٩- وما بعدها، والزركشي، البحر المحيط، ٣/ ٣٨٠- ٣٨٣.

وقد وقع اختلاف بين الأصوليّين في أثر تقسيمات المنهيّات على القاعدتين السابقتين وفيما يأتي بيان مختصر لأقوالهم دون تفصيل:

١- إذا كان النهي متعلّقًا بذات المنهيّ عنه فإنّ حكمه يكون حرامًا وباطلًا بالاتّفاق إذا لم تكن هنالك قرينة صارفة له.

٢- إذا كان النهي متعلّقًا بوصف لازم غير منفكّ فإنّ حكمه يكون حرامًا لذاته عند الجمهور، وحرامًا لغيره عند الحنفيّة، ويكون باطلًا في العبادات باتّفاق، ويكون باطلًا في غير العبادات أيضًا عند الجمهور، وفاسدًا عند الحنفيّة. والذي يترجّح لدينا عدّه حرامًا لذاته وباطلًا.

٣- إذا كان النهي متعلّقًا بوصف مجاور منفكّ فالعلماء مختلفون في حكمه التكليفيّ، فهنالك من يجعله مكروهًا، وهنالك من يجعله مكروهًا تحريمًا، وهنالك من يقول إنّه حرام. وكذلك هنالك اختلاف في حكمه الوضعيّ من حيث ترتّب الأثر عليه، فمنهم من يقول هو صحيح، ومنهم من يقول هو باطل. والذي يترجّح لدينا اعتباره صحيحًا من جهة ترتّب الأثر عليه لكنّه حرام لغيره من جهة النهي عنه، وقد يصرف إلى الكراهة في حالة وجود قرائن صارفة.

المسألة الثالثة: مَن تقع عليه المقاطعة؟ وما هي ضوابط تحديد الجهات التي تقاطع؟

تعد مسألة تحديد الجهات التي تجب مقاطعها وضوابط تحديدها من المسائل التي تحتاج نوعًا من الدقّة، ويمكن تقسيم الجهات المقاطعة إلى أنواع بحسب أولويّة مقاطعتها كما يأتي:

١- مقاطعة الكيان الصهيونيّ والشركات الحكومية الصهيونية والشركات والمنتجات المتعلقة بالمستوطنات والمنتجات الناتجة عن أيّ عمل استثماري صهيوني والشركات الصهيونية عمومًا.

٢- مقاطعة الشركات الصهيونية العالميّة، وهي الشركات العالميّة المملوكة للصهاينة والمسجّلة خارج الكيان الصهيونيّ.

٣- مقاطعة الشركات والمتاجر العالميّة التي تدعم الكيان الصهيونيّ.

٤- مقاطعة الشركات المحلّيّة في الدول الإسلاميّة، والتي تمثّل فروعًا أو لديها اعتماد من شركات

صهيونيّة أو شركة عالميّة داعمة للكيان الصهيوني.

٥- مقاطعة شركات الدول الداعمة للصهاينة إلّا الشركات التي تعلن بأنّها لا تدعم الكيان الصهيونيّ، والتي تعلن عدم الرضا بسياسة دولها الداعمة للكيان الصهيونيّ.

ولكي يكون للمقاطعة أثر واضح فلا بدّ من القيام بحملات إعلاميّة تستهدف فيها المنتجات الصهيونية في كلّ مكان والشركات والمتاجر الكبرى الصهيونية أو التي تدعم الكيان الصهيوني، ويتمّ توسيع دائرة المقاطعة حتّى تشمل كلّ من سبق ذكرهم، وينبغي أن تشتمل هذه الحملات الشركات التابعة للدول الكبرى الداعمة للاحتلال الصهيوني وعلى رأسها أمريكا، فأمريكا هي في حقيقتها راعية الكيان الصهيوني، ولولا دعمها لهذا الكيان المسخ لما تمكّن هذا الإجرام والعدوان، وقد آن الأوان لأمّتنا الإسلاميّة أن تقول كما قال الشيخ العلّامة يوسف القرضاوي رحمه الله: «لا لأمريكا. ولبضائعها التي غزت أسواقنا، حتّى أصبحنا نأكل ونشرب ونلبس ونركب ممّا تصنع أمريكا. إنّ الأمّة الإسلاميّة التي تبلغ اليوم مليارًا وثلث المليار[١] من المسلمين في أنحاء العالم يستطيعون أن يوجعوا أمريكا وشركائها بمقاطعتها. وهذا ما يفرضه عليهم دينهم وشرع ربّهم، فكلّ من اشترى البضائع الصهيونيّة والأمريكيّة من المسلمين، فقد ارتكب حرامًا، واقترف إثمًا مبينًا، وباء بالوزر عند الله، والخزي عند الناس. إنّ المقاطعة سلاح فعّال من أسلحة الحرب قديمًا وحديثًا، وقد استخدمه المشركون في محاربة النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- وأصحابه، فآذاهم إيذاءً بليغًا.. وهو سلاح في أيدي الشعوب والجماهير وحدها، لا تستطيع الحكومات أن تفرض على الناس أن يشتروا بضاعةً من مصدر معيّن. فلنستخدم هذا السلاح لمقاومة أعداء ديننا وأمّتنا، حتّى يشعروا بأنّنا أحياء، وأنّ هذه الأمّة لم تمت، ولن تموت بإذن الله»[٢].

المسألة الرابعة: أحكام مقاطعة الكيان الصهيوني وشركاته والشركات الداعمة له:

سبق وأن قلنا بأنّ هذه المسألة بكلّ ما يحيط بها من ظروف وأحوال ووقائع من المسائل المستجدّة، فلا يمكن اعتماد الأقوال التفصيليّة للفقهاء في حكم مقاطعة الكفار الحربيّين فيها، وإنّما يمكن الاعتماد على العلّة التي ربطوا بها الأحكام والضابط الذي قيّدوها به، فقد أجمعوا على

(١) قاربت على المليارين.

(٢) سبق ذكره.

حرمة التعامل مع الكافر الحربيّ في أيّ شيء يقوّيه، ولم يكن الفقهاء حينئذ يتصوّرون أنّ الطعام أو الخضراوات والفواكه يمكن أن تكون ممّا يتقوّى به العدوّ، وقد تغيّر الحال في هذا الزمن فصار أيّ نوع من أنواع التعامل الاقتصاديّ فيه تقوية للعدوّ؛ لأنّ اقتصاد الدول لا ينظر له بشكل جزئيّ فحسب، بل لا بدّ فيه من النظر الكلّيّ أيضًا، ولأنّ أيّ نوع من أنواع التعامل الاقتصاديّ له أثر في الاقتصاد الكلّيّ، وبالتّالي ينبني عليه تقوية المحتلّين وتمكينهم، وقد انتبه لذلك عدد من الفقهاء المتبحّرين المتأخّرين فأفتوا بالتحريم التامّ لأيّ نوع من أنواع التعامل حتّى ولو كان في الطعام، وكان من أهمّ هذه الفتاوى فتوى كبير علماء المالكيّة في الأزهر في ذلك الوقت الشيخ عليش في حكم إمداد الجيش الفرنسيّ المحتل للجزائر بالطعام واللحوم والحيوانات من قبل ملك المغرب بعد حصاره من قبل المجاهدين الجزائريّين، وذلك بعد أن استفتاه بذلك الأمير الشيخ عبد القادر الجزائريّ فقال في استفتائه: سلطان المغرب فعل بنا الأفعال التي تقوّي حزب الكافر على الإسلام، وتضعفنا وأضرّ بنا الضرر الكثير... فأوّل ما فعل بنا أنّنا لمّا كنّا حاصرنا الكافر في جميع ثغوره نحوًا من ثلاث سنين، وقطعنا عليه السبل، ومادّة البرّ من الحبّ والحيوان وغيرهما، تضييقًا عليه، وتضعيفًا له، خصوصًا من جهة الحيوان؛ لأنّ قانون عسكره أنّهم إذا لم يأكلوا اللحم يومين، أو ثلاثة يفرّون عن طاغيتهم ولا يقاتلون ولا يلامون حتّى بلغت قيمة الثور عندهم مائة ريال دورو[1]، فإذا بالسلطان المذكور أمدّهم وهم في الضيق الشديد بألوف من البقر وغيرها»، فأفتى الشيخ عليش رحمه الله، فقال: «نعم يحرم على السلطان المذكور أصلح الله أحواله جميع ذلك الذي ذكرتم حرمة معلومة من الدين بالضرورة لا يشكّ فيها من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»، وقال: «والنصوص التي ذكرتم صحيحة صريحة لا تقبل التأويل والمهادنة التي أوقعها فاسدة منقوصة.. وبيع البقر وسائر الحيوان والطعام والعروض وكلّ ما ينتفعون به في النازلة المذكورة حرام قطعًا إجماعًا ضرورة، لا يشكّ فيه مسلم، سواء في حال حصر المسلمين إيّاهم وفي حال عدمه إذ قتالهم فرض عين على كلّ من فيه قدرة عليه، ولو من النساء والصبيان من أهل تلك البلاد ومن قرب منها»[2].

وبعد ذكر هذه السابقة التاريخية التي تمثّل واقعة مشابهة نوعًا ما لمسألتنا، والتي يتّضح فيها أنّ

(١) هذه إحدى العملات التي كانت تستعمل إبّان الاستعمار الفرنسيّ للجزائر، وكانت تسمّى في الأغلب ريال بودجو، وهي من الفضّة.

(٢) عليش، محمد بن أحمد، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، ج١/ص٣٨٢.

العلّامة الشيخ عليش رحمه الله بنى القول بتحريم بيع الفرنسيّين أيّ شيء ينتفعون به سواء أكان طعامًا أو عروضًا أو أيّ نوع من أنواع السلع تحريمًا قطعيًّا على حكم الجهاد، وبهذا يتّضح كون المقاطعة تابعة للجهاد وحكمه، فإذا كان الجهاد فرض عين تصير المقاطعة فرض عين، وبناء عليه، وانطلاقًا من وجوب نصرة المسلمين المجاهدين في فلسطين، وتأسيسًا على قاعدة ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب، حيث إنّ كلّ ما فيه إضعاف لهذا العدوّ فهو واجب شرعيّ، وتخريجًا على إجماع العلماء على تحريم التعامل مع العدوّ الحربيّ بأيّ شيء يقوّيه، فإنّ حكم التعامل مع الصهاينة المحتلّين وشركاتهم والشركات الداعمة لهم حرام قطعًا، وأنّ هذه الحرمة من الحرام لذاته، وهو معلوم من الدين بالضرورة، وأنّ الذي يتعامل مع الكيان الصهيونيّ أو مع شركاته فهو مرتكب لكبيرة عظيمة من الكبائر، وأنّ الذي يتعامل مع الكيان المحتلّ وشركاته، وهو موالٍ له، ويحبّ انتصاره على المسلمين في غزّة وعموم فلسطين فهذا مرتّد خارج عن الملّة، أمّا حكم التعامل مع الشركات الأجنبيّة الداعمة للاحتلال والشركات الحاصلة على ترخيصها في الدول الإسلاميّة فحكم التعامل معها من الحرام لغيره، وذلك لأنّ أصل التعامل مع الشركات مباح لكنّه يحرم بسبب دعمها للكيان الصهيونيّ، ولو كان هذا الدعم معنويًّا فقط، وكذلك الحال بالنسبة لشركات الدول الداعمة للكيان المحتلّ والتي لم تنأ بنفسها عن تصرّفات دولها، فالتعامل معها محرّم لغيره، وذلك من أجل الضغط على تلك الدول الداعمة للاحتلال.

وبناء على هذه الأحكام، وبناء على قواعد الرخص المتعلّقة بالضرورات والحاجات العامّة، وهي قاعدتا: الضرورات تبيح المحظورات بشرط عدم نقصانها عنها[1]، وما حرّم سدًّا للذريعة والمحرّم لغيره يباح للحاجة العامّة[2]، ومع الأخذ بعين الاعتبار الضوابط والمعايير المتعلّقة بهما، والتي لا بدّ من مراعاتها عند إجراء الموازنات في أحوال الترخّص، فإنّه يمكن التفصيل في حكم بعض الصور كما يأتي:

١- إذا كانت هنالك ضرورة في شراء سلعة كالدواء مثلًا من شركة من الشركات الأجنبيّة غير

(١) السبكي، الأشباه والنظائر، دارا لكتب العلمية، ١٩٩٢م، ١/ ٤٥. الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة، ٤/ ١٤٦. الزركشي، المنثور في القواعد الفقهية، ٢/ ٣١٧.

(٢) ابن قيّم الجوزيّة، إعلام الموقّعين ٣/ ٤٠٨، القرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق، دار الكتب العلمية، ٦٢/٢، القرافي، شرح تنقيح الفصول، شركة الطباعة الفنية المتحدة، تحقيق: طه سعد، ط١، ١٩٧٣م، ص٤٤٩، المقري، القواعد ٣٩٤/٢.

الصهيونيّة الداعمة للاحتلال أو من شركة من شركات الدول الداعمة للاحتلال ولم يكن لها بديل، فإنّه يباح شراؤها بقدر الضرورة، ولا يباح شراء ما يزيد عن الحاجة، ولا شراء ما هو للتحسين والتكميل.

٢- إذا كانت هنالك حاجة عامّة لأهل بلد عمومًا أو لفئة كبيرة من فئات المجتمع، مثل: فئة أصحاب المصانع أو شركات صيانة السيارات وتصليحها مثلًا في شراء سلعة معيّنة من شركة من الشركات الأجنبيّة الداعمة للاحتلال أو من شركات الدول الداعمة للاحتلال، فإنّ هذا الشراء الأصل فيه الحرمة لكن يترخّص فيه للحاجة العامّة.

الخاتمة:

سنفرد خاتمة البحث ببيان أحكام المقاطعة الاقتصاديّة بحسب الجهة المقاطِعة، وأحكام من يتعامل مع الاحتلال الصهيوني وشركاته والشركات الداعمة له؛ لأنّ ذلك يمثّل خلاصة أحكام البحث وأهمّ نتائجه، ونبدأ ببيان أحكام المقاطعة الاقتصاديّة بحسب الجهة المقاطِعة:

١- حكم المقاطعة الاقتصاديّة للاحتلال من قبل الدول الإسلامية: يجب على كلّ دولة من الدول الإسلاميّة مقاطعة الكيان الصهيونيّ المحتلّ، ويحرم على حكّام هذه الدول والمسؤولين فيها التعامل مع الاحتلال بأيّ شكل من أشكال التعامل سواء أكان اقتصاديًا أو سياسيًا أو علميًا أو رياضيًا أو غيرها من صور التعامل، ويجب على أهل الحكم في كلّ دولة تتعامل مع هذا العدوّ المجرم أو بينها وبينه اتفاقيّات معيّنة أو بينها وبينه أيّ نوع من أنواع التطبيع أن تقطع هذه العلاقات وأن توقفها، وذلك في الأصل؛ لكونه احتلّ أرضًا إسلاميّة، فكيف إذا كانت هذه الأرض تحتوي على المسجد الأقصى؟ وكيف إذا قام بعد احتلاله بالمجازر المتتالية حتّى وصل به الأمر إلى مستوى الإبادة الجماعيّة للشعب الفلسطيني بعد طوفان الأقصى؟

وكلّ من لا يقاطع هذا العدوّ المجرم ولا يقطع العلاقات معه فهو مرتكب لكبيرة عظيمة، وهو خائن لله ورسوله -صلّى الله عليه وسلّم ومسراه وللمسلمين، وإذا كان سبب القيام بالعلاقة مع الكيان الصهيونيّ يرجع إلى موالاة هذا العدّة وحبّ انتصاره على المسلمين في فلسطين ولبغض المسلمين الفلسطينيين فإنّ ذلك مخرج من الملّة.

ويجب على الشعوب المسلمة الضغط على الحكومات المطبّعة مع الاحتلال أو التي تمدّه بأيّ نوع من السلع والبضائع بكلّ الوسائل والسبل، ويجب على الشعوب قطع طرق إمداد العدوّ الصهيونيّ بالسلع والمواد الغذائيّة ولو أدّى ذلك إلى اعتقال بعضهم أو دفعهم لغرامات أو وقوع بعض المشاقّ عليهم، فهذا من الجهاد الواجب، وأيّ دولة تحتجّ بتحقيق بعض المصالح من هذه العلاقة، أو درء بعض المفاسد فهي مصالح ومفاسد موهومة ملغاة لا اعتبار لها في الشرع ولا تساوي شيئًا أمام المفاسد العظمى التي يمثّلها هذا الاحتلال المجرم وأمام المصالح العظمى في جهاده ومقاطعته وعدم التعامل معه، وإنّ الاحتجاج بوجود مصالح في التطبيع مع الاحتلال وفي التعامل الاقتصاديّ معه أو الخوف من مفاسد في حال قطع العلاقات معه ومنها الاقتصادية ما هو إلّا تكرار لحجّة المنافقين الأوائل الذين أنزل الله سبحانه فيهم قوله سبحانه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

قال الإمام الواحديّ في تفسيره: والدائرة التي تخشى كالهزيمة والدبرة والقحط والحوادث المخوّفة، وقال عبد الله بن مسلم: نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه فلا يميروننا، وقال قتادة: قالوا: نخشى أن ينقطع الذي بيننا من الميرة والقرض، فقد كانت حججهم الباطلة كلّها مرتبطة بالخوف من فقدان بعض المصالح الدنيويّة الزائلة أو الخوف من مفاسد موهومة، وكلّ من يحتجّ بأيّة حجج من هذا القبيل فإنّه متّبع لحجّة المنافقين ومتّصف بصفتهم، ونحن نؤمن بحتميّة نصر الله لعباده المجاهدين، وعندها لا عزاء للمتخاذلين والمطبّعين.

أمّا تعامل الدول مع الشركات الأجنبية الداعمة للاحتلال وشركات الدول الداعمة للاحتلال فهذا التعامل ينبغي أن يوزن بموازنة دقيقة من أجل النظر هل الحاجة إليه ضروريّة لا غنى عنها ولا بديل عنها أو الحاجة إليه من الحاجيّ العامّ الذي يؤدّي في حالة المقاطعة إلى وقوع المجتمع في مشقّة وحرج شديدين مع عدم وجود البديل المناسب؟ ففي هاتين الحالتين يباح التعامل مع هذه الشركات من قبل الدول الإسلاميّة، أمّا في غير ذلك وذلك إذا كان التعامل مع هذه الشركات في الأمور الكمالية والتحسينية فهذا التعامل محرّم شرعًا.

٢- حكم المقاطعة من قبل الشركات والتجّار: يجب على كلّ شركة أو تاجر من تجّار المسلمين

أن يقاطع هذا العدوّ المجرم وشركاته والشركات الداعمة له وشركات الدول الداعمة له، ويجب عليهم البحث عن البدائل، وإن لم تكن موجودة أو مناسبة فيجب عليهم أن يبذلوا جهدهم من أجل إيجاد البديل المناسب، ويباح لهم التعامل مع الشركات الأجنبيّة الداعمة للاحتلال أو شركات الدول الداعمة للاحتلال فيما يدخل في الضروريّ أو الحاجيّ العامّ دون غيره، أمّا الشركات الصهيونيّة فلا يباح لهم التعامل معها بأيّ شكل من الأشكال.

٣- حكم المقاطعة من قبل الأفراد من المسلمين في البلاد الإسلامية وفي البلاد التي لا تدعم الكيان الصهيوني: يجب على المسلمين في البلاد الإسلامية وفي الدول التي لا تدعم الكيان الصهيوني مقاطعة الكيان الصهيوني وشركاته والشركات الداعمة له وشركات الدول الداعمة له بشكل عامّ، وإذا كان هنالك ضرورة أو حاجّة عامّة للتعامل من ناحية شراء بعض المنتجات فهذا الأمر مباح بقدر الضرورة أو الحاجة مع الشركات غير الصهيونيّة، أمّا الشركات الصهيونية فلا يباح التعامل معها بشكل عامّ.

٤- حكم المقاطعة من قبل الأفراد في الدول الداعمة للكيان الصهيوني: يجب على المسلمين الذين يقطنون في الدول الداعمة للاحتلال أن يقاطعوا الاحتلال الصهيوني وشركاته بشكل عامّ، ويجب عليهم مقاطعة الشركات الداعمة للاحتلال الصهيونيّ في دولهم أو خارجها والتي ثبت بالدليل القطعيّ وقوفها مع الاحتلال، وبشكل خاصّ في حربه الأخيرة على قطاع غزّة، أمّا الشركات التي لم يثبت دليل على دعمها المباشر للاحتلال فهذه ممّا يباح التعامل معها، وإذا كانت هنالك ضرورة أو حاجة عامّة للتعامل مع الشركات غير الصهيونيّة الداعمة للاحتلال فيباح التعامل معها بقدر الضرورة أو الحاجة.

٥-حكم المقاطعة من قبل أهل الضفة الغربيّة: يجب على المسلمين من الفلسطينيّين في الضفة الغربيّة مقاطعة شركات الكيان الصهيوني ومنتجاته بشكل عامّ إلّا في حالة الضرورة مع عدم وجود البديل ولو كانت جودته أقلّ، أمّا تزويد الاحتلال بالبضائع والموادّ والسلع من قبل الشركات الفلسطينيّة في الضفّة الغربيّة أو من قبل المزارعين الفلسطينيّين فالأصل في ذلك كلّه الحرمة.

٦- حكم المقاطعة من قبل أهل الداخل الفلسطينيّ المحتلّ: يجب على المسلمين من أهل الداخل الفلسطينيّ في مناطق ال ٤٨ الذين يعيشون تحت سلطة الاحتلال بشكل مباشر أن يبحثوا

عن المنتجات الفلسطينيّة أو المنتجات الأجنبيّة المستوردة من خارج دولة الاحتلال، فإذا لم يجدوا فيباح لهم شراء سلع الشركات الصهيونية.

٧- بالنسبة للعمّال الذين يعملون في الشركات الصهيونية في البلاد الإسلامية وفي الدول الغربية عمومًا فهؤلاء يجب عليهم البحث عن أعمال بديلة، ولا يباح لهم البقاء في أعمالهم إذا وجدوا البديل ولو كان براتب أقل.

٨- بالنسبة للعمال الذين يعملون في الشركات الداعمة للصهاينة في البلاد الإسلامية والدول الغربيّة، فهؤلاء يجب عليهم أيضًا أن يبحثوا عن البديل ولا يباح لهم البقاء في أعمالهم إذا وجدوا البديل ولو كان براتب أقلّ، علمًا بأنّه لا بدّ من النظر في ظروف كلّ حالة من أجل بيان الفتوى الخاصّة بها، وذلك من خلال النظر في الواقع والحال والموازنة بين المصالح الشرعيّة والمفاسد المتوقّعة.

أحكام من لا يمتنع عن التعامل مع الاحتلال الصهيوني وشركاته والشراكات الداعمة له:

تأسيسًا على ما سبق بيانه في التفريق في الحكم بين حالة التعامل مع الاحتلال الصهيوني وشركاته والشركات الصهيونية العالميّة، وبين التعامل مع الشركات الأجنبية العالمية والشركات المحلّيّة الداعمة للاحتلال أو التي تتعامل معه حيث بيّنّا أنّ الحكم في الحالة الأولى حرام لذاته، والمرتكب له مرتكب لكبيرة من الكبائر، وفي الحالة الثانية من الحرام لغيره، والمرتكب له مرتكب لصغيرة من الصغائر لكن تتحوّل إلى كبيرة بالإصرار أو الإكثار أو الاستمرار. ولهذا فإنّنا سنقسم حالات التعامل مع الاحتلال الصهيونيّ وشركاته وداعميه وشركات الدول الداعمة له إلى قسمين، وهما:

أ- الذين يتعاملون مع الاحتلال وشركاته بأيّ نوع من العقود سواء في البيع والشراء والإجارة والشركة وغيرها، وهم من المسلمين الذين لا يقعون تحت الاحتلال الصهيوني، فهؤلاء يمكن تقسيمهم كما يأتي:

١- أن يكونوا ممّن لا يهتمّون بالحكم الشرعيّ ولا يفرّقون بين الحرام وغيره، فهؤلاء إمّا أن يكون الواحد منهم ملحدًا أو علمانيًّا وبالتّالي فهو غير مسلم، وإمّا أن يكون مواليًا للاحتلال يحبّ تقويتهم فهذا خارج من الملّة أيضًا، وإمّا أن يكون مسلمًا اسمًا ويعتقد كونه من المسلمين لكنّه لا يلتزم بأحكام

الشرع فهذا أقلّ أحواله أنّه مرتكب لكبائر عظيمة في الدين وخائن لله ورسوله والمسلمين.

٢- أن يدّعي الواحد منهم جهله بالحكم الشرعيّ في المسألة أو اتّباعه لبعض علماء السلاطين الذين يبيحون هذه المعاملات، فهؤلاء لا يعذرون بجهلهم؛ لأنّ المسألة من المعلوم من الدين بالضّرورة، وهم في هذه الحال مرتكبون لكبيرة عظيمة؛ لأنّ حكم التعامل مع المحتل المعتدي المجرم الذي قتل مئات الآلاف من الفلسطينيّين وغيرهم من المسلمين منذ احتلاله لفلسطين إلى الآن حرام لذاته، وهم خائنون لله ولرسوله وللمسلمين.

٣- أن يدّعي الواحد منهم وجود ضرورة لهذا التعامل أو حاجة أو مصلحة كبيرة أو إكراه أو تهديد من سلطة مع علمه بحرمة التعامل، فهذا يقال له بأنّ ادعاء الاضطرار متوهّم وغير صحيح مهما كان المبّرر لذلك، فالبدائل متوفّرة، وبالتّالي فالذي يتعامل مع الاحتلال بهذه الحجّة آثم شرعًا ومرتكب لكبيرة عظيمة من الكبائر، وأما الحاجة والمصلحة فلا يباح لأجلها المحرّم لذاته، وأمّا حالة الإكراه فالواجب في حقّ المكرَه هنا أن لا يستجيب للإكراه وإذا استجاب له فهو آثم إثمًا عظيمًا.

٤- أن يكون المتعامل مع الشركات أو المنتجات الصهيونية جاهلًا بكونها صهيونيّة بسبب كون هذه المنتجات والسلع موجودة في السوق المحلّيّ وهو يشتري منها دون بحث وتحرٍّ، فهذا يجب عليه شرعًا أن يتحرّى ويبحث كما يتحرّى في حالة الخمر والخنزير، وهو آثم لتقصيره في البحث والتحرّي مع قدرته على ذلك.

٥- أن يكون المتعامل مع منتجات الاحتلال ممّن يطلب الجودة في السلع بغضّ النطر عن كونها سلعًا من الاحتلال وشركاته أم لا، فهذا أيضًا آثم إثمًا عظيمًا ومرتكب لكبيرة عظيمة.

٦- أن يكون المتعامل ممّن يستعينون بالخبراء الصهاينة أو يحصل منهم على الموادّ الخامّ أو يوظّف منهم من يعمل لديه من أجل تحقيق أرباح أو إنتاج سلع منافسة، فهذا المتعامل إذا كان يستعين بأيّ صهيونيّ يهوديّ مجرم ينتمي إلى دولة الاحتلال أو يدعمها وهو يحبّه ويواليه فهو خارج من الملّة، أمّا إن كان المتعامل يستعين بهم لخبرتهم مع عدم ولائه لهم وبغضه لهم وحرصه على التخلّص من العلاقة معهم عندما يتمكّن من ذلك فهذا مرتكب لكبيرة عظيمة؛ لأنّه غير مضطر للتّعامل معهم.

ب- الذين يتعاملون مع الشركات الأجنبيّة أو المحلّيّة الداعمة للاحتلال الصهيوني اليهودي أو مع شركات الدول الداعمة للاحتلال وهو ليس من أهل تلك الدول:

فهؤلاء يشتركون مع أصحاب القسم الأوّل في الحكم الأوّل، لكنّ أحكامهم تختلف في الحالات من الثانية إلى الخامسة كما يأتي:

١-أن يدّعي الواحد منهم جهله بالحكم الشرعيّ في المسألة أو اتّباعه لبعض علماء السلاطين الذين يبيحون هذه المعاملات، فهؤلاء لا يعذرون بجهلهم، وهم في هذه الحال مرتكبون لصغيرة من الصغائر؛ لأنّ حكم التعامل حرام لغيره، وقد قرّر العلماء بأنّ الصغيرة تنحصر في الحرام لغيره، لكنّ الصغيرة تتحوّل إلى كبيرة لأسباب عديدة منها الإصرار والتكرار.

٢-أن يدّعي الواحد منهم وجود ضرورة لهذا التعامل أو حاجة أو مصلحة كبيرة مع علمه بحرمة التعامل، فإذا كانت هنالك ضرورة حقيقيّة للتعامل ولم يكن هنالك بديل فيرخّص لهم التعامل معهم، أمّا الحاجة والمصلحة فلا يباح لأجلهما المحرّم لغيره إلّا إذا كانتا عامّتين تشمل جميع الناس أو جميع من في البلد على الأقلّ.

٣-أن يكون المتعامل مع الشركات الداعمة للاحتلال أو منتجاتها جاهلًا بكونها داعمة للاحتلال بسبب كون هذه المنتجات والسلع موجودة في السوق المحلّي وهو يشتري منها دون بحث وتحرٍّ، فهذا يجب عليه شرعًا أن يتحرّى ويبحث، وهو آثم ومرتكب لصغيرة من الصغائر؛ لتقصيره في البحث والتحرّي مع قدرته على ذلك.

٤-أن يكون المتعامل مع الشركات الداعمة للاحتلال أو منتجاتها ممّن يطلب الجودة في السلع بغضّ النظر عن كونها سلعًا تدعم الاحتلال أم لا، فهذا أيضًا آثم ومرتكب لصغيرة من الصغائر إلّا إذا استمرّ وأصرّ.

قائمة المراجع والمصادر

القرآن الكريم

١) إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، الناشر: دار الدعوة.

٢) ابن الحاج، محمد بن محمد، المدخل، الناشر: دار التراث.

٣) ابن العربي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤) ابن امير حاج، محمد بن محمد، التقرير والتحبير، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥) ابن بطال، علي بن خلف، شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم. دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٦) ابن تيمية، أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، وساعده: ابنه محمد وفقه الله، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة – السعودية، عام النشر: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٧) ابن رشد، محمد بن أحمد، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تحقيق: د محمد حجي وآخرون. دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨.

٨) ابن رشد، محمد بن أحمد، المقدمات الممهدات، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٩) ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على الدر المختار -حاشية ابن عابدين- الناشر: دار الفكر- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٠) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١١) ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، المغني، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي- عبد الفتاح محمد الحلو. دار عالم الكتب/ الرياض.

١٢) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي- بيروت.

١٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

١٤) ابن مفلح، محمد بن مفلح، كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع لعلاء الدين علي بن سليمان المرداوي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ مـ.

١٥) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي. دار النشر: دار المعارف، البلد: القاهرة.

١٦) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار الوطن، سنة النشر: ١٤١٧ه، عدد المجلدات: ٨.

١٧) ابن هشام، عبد الملك، سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

١٨) ابن همام، كمال الدين، فتح القدير، دار الفكر.

١٩) أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٢٠) أبو زرعة، أحمد بن عبد الرحيم، تحرير الفتاوى على «التنبيه» و«المنهاج» و«الحاوي» المسمى (النكت على المختصرات الثلاث)، تحقيق: عبد الرحمن فهمي محمد الزواوي، الناشر: دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م.

٢١) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الخراج، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، سعد حسن محمد.

٢٢) أحمد فهمي أبو سنة، علم الاقتصاد الإسلامي- ضرورة قائمة، وحقيقة واقعة، مجلة المجمع الفقهي، العدد (١٣) نقلا عن عابد بن عبد الله السعدون، المقاطعة الاقتصادية- تأصيلها الشرعي، واقعها والمأمول لها، دار التابعين.

٢٣) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة،

الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٤) البزدوي، علي بن محمد، أصول البزدوي -كنز الوصول الى معرفة الأصول، الناشر: مطبعة جاويد بريس – كراتشي.

٢٥) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٢٦) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٢٧) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الطبعة: الأولى ـ ١٣٤٤ هـ.

٢٨) البيهقي، أحمد بن الحسين، أحكام القرآن للشافعي - الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

٢٩) الجويني، عبد الملك، نهاية المطلب في دراية المذهب، تحقيق: عبد العظيم محمود الدّيب، الناشر: دار المنهاج، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣٠) حسين عمر، الموسوعة الاقتصادية، دار الفكر، الطبعة الرابعة.

٣١) الحطاب، محمد بن محمد، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣٢) الخرقي، عمر بن الحسين، متن الخرقي على مذهب أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، الناشر: دار الصحابة للتراث، الطبعة: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٣٣) الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الناشر: دار الكتب العلمية.

٣٤) الدردير، أحمد بن محمد، الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك -ومعه حاشية الصاوي- تحقيق: مصطفى كمال وصفي، دار المعارف.

٣٥) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

٣٦) الزركشي، محمد بن عبد الله، البحر المحيط في أصول الفقه، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٣٧) الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي –

بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

٣٨) الزيلعي، عثمان بن علي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ومعه حاشية الشِّلْبِيِّ، شهاب الدين أحمد بن محمد، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣١٣ هـ.

٣٩) السبكي، تقي الدين، الإبهاج في شرح المنهاج، (منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي المتوفي سنه ٧٨٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت، عام النشر: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م.

٤٠) السرخسي، محمد بن أحمد، المبسوط، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٤١) الشاشي، أحمد بن محمد، أصول الشاشي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.

٤٢) الشمراني، خالد عبد الرحمن، المقاطعة الاقتصادية تأصيلها الشرعي واقعها والمأمول لها، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى- ١٤٢٦ ه.

٤٣) الصنعاني، محمد بن إسماعيل، سبل السلام، الناشر: دار الحديث.

٤٤) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

٤٥) الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٤٦) المرغيناني، علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني، الهداية في شرح بداية المبتدي، المحقق: طلال يوسف، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت – لبنان.

٤٧) العلائي، صلاح الدين، تحقيق المراد في أن النهي يقتضي الفساد، المحقق: د. إبراهيم محمد السلفيتي، الناشر: دار الكتب الثقافية – الكويت.

٤٨) الفتاوى الهندية، لجنة علماء برئاسة نظام الدين البلخي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثانية، ١٣١٠ هـ.

٤٩) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٥٠) الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥١) الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

٥٢) القاضي عياض، عياض بن موسى، شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: يحيي بن إسماعيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٥٣) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، الناشر: دار عالم الكتب، سنة النشر: ١٤٢٣ – ٢٠٠٣.

٥٤) الكاساني، علاء الدين، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥٥) الكيا الهراسي، علي بن محمد، أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ.

٥٦) مالك بن أنس، المدونة برواية سحنون عن ابن القاسم، تحقيق: عامر الجزار- عبد الله المنشاوي. دار الحديث.

٥٧) الماوردي، علي بن محمد، كتاب الحاوي الكبير، الناشر: دار الفكر ـ بيروت.

٥٨) مسلم، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥٩) مصطفى بن سعد، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٦٠) المقريزي، أحمد بن علي، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٦١) المناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦ه.

٦٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، (١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ).

٦٣) النسفي، عبد الله بن أحمد، تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٦٤) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٦٥) النووي، يحيي بن شرف، المجموع شرح المهذب، الناشر: دار الفكر.

٦٦) النووي، يحيي بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢م.

٦٧) الهيثمي، نور الدين علي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

٦٨) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، الناشر: دار الأعلمي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٦٩) يوسف القرضاوي، فقه الجهاد- دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، مكتبة وهبة.

٧٠) عليش، محمد بن أحمد، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، جمعها ونسقها وفهرسها: علي بن نايف الشحود.

معالم الشخصية وعوامل بنائها في القصص القرآني
-دراسة وصفية-

أ. د. فاتح حسني عبد الكريم[١]

ملخص البحث

سعى البحث إلى بيان التصور الشامل الذي رسمته القصة القرآنية للشخصية الإنسانية؛ في تحليل عناصرها وأنواعها وأبعادها، والثوابت المتعلقة بها والمتغيرات، وأبدى الباحث وجهة النظر في مدى قابلية الشخصية الإنسانية للتغيير والتطوير من أَقْواع الانحطاط إلى أَنَفَة التَسَنُّم والارتقاء؛ وضرب على ذلك أمثلة لشخصيات قرآنية استحالت إلى السُؤْدَد والسُموق بعد الخَساسَة والضَعَة، وتلمّس البحث العوامل المؤثرة في الشخصية الإنسانية كما رسمتها القصة القرآنية ومنهج البناء فيها، وعرض للعلاقة بين مقاصد القصة القرآنية والشخصية الإنسانية وبنائها، وختاماً اجتهد الباحث في بيان الحوائل التي تقف دون الانتفاع بالقصص القرآني والتأثر بها.

كلمات مفتاحية: قصص - بنائي- الشخصية - معالم

Abstract

The researcher stated the comprehensive perception drawn by the Qur‹anic narration of the human personality ،analyzed its elements ،types and dimensions as well as the related constants and variables .The researcher also demonstrated the extent of the human personality to change and develop ،from the decadence to the ascension and progression mentioning examples for some Quranic characters that have been promoted to the summit from villainous and immoral levels

The researcher then stated the factors affect the human personality as pictured by the Quranic narration and the method of constructing this character .The researcher presented the relationship between the purposes of the Quranic narration and the human personality and its construction ،and concluded the research with a statement of the barriers that stand without the use of Quranic stories and influenced by it

Keywords :Narration ،constructive ،Personality ،Features

(١) أستاذ التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية- مينيسوتا- أمريكا، تاريخ استلام البحث، ٢٠٢٣/١٢/١م، وتاريخ قبوله للنشر، ٢٠٢٣/١٢/٢٠م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فإنّ تدبر القرآن ليس نافلة من نوافل العلم، وليس مسألةً متروكة للترف الفكري والتنوع الثقافي؛ بل هي غاية غايات نزول القرآن، لا تختص بعالم أو دارس أو مختص، بل هي وظيفة قلب كل مسلم، مهما تنوعت ثقافته، أو ابتدأت علومه، هي دعوة الله لنا وأمره، وهي حياة قلوبنا ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ ص: ٢٩ وهي نعي الله لمن أهملها﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾محمد: ٢٤.

ومن هنا يدرك الباحث أهمية المساحة الواسعة التي بسطها الله للقصص في القرآن، ودليل أهميتها في صياغة وتشكيل الذهنية العقلية والشخصية للفرد المسلم والأمة المسلمة، فإنّ هدي القرآن هو للإنسان ولكيان الإنسان ولينتفي عنه الضلال والشقاء والخوف والحزن؛ وما كانت هذه الآفات الأربعة لتزول إلا باتباع هديه ومزج أنواره في الروع والذهن والعقل والروح، قال الله تعالى ضامناً لمن اتبع- ولم يقل حفظ أو قرأ فقط- هداه بأن يعصمه منها فقال:﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٣٨ ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ طه: ١٢٣ فلا فكاك بين تكامل الشخصية وبنائها التام الصحيح وبين القرآن الكريم: هدياً ونوراً، وخاصة ما قصه الله علينا من قصص الأنبياء والسابقين.

فقام الباحث بإعداد واستنباط ما تيسر من هذه المعالم القرآنية، وعوامل بناء الشخصية المسلمة كما يريدها الله عز وجلّ، وماهي عوامل ثبات هذه الشخصية وحوائل التفاعل معها.

وقد سلك الباحث-بقدر الاستطاعة- المنهج الاستقرائي من القرآن؛ بتتبع كيفية عرض هذه العوامل في القرآن والقصة القرآنية، والمنهج الوصفي التحليلي؛ بالربط والتفسير واستخلاص النتائج.

أولاً: مشكلة البحث: إنّ البحث في الشخصية واتزانها وتطويرها أخذ بعداً كبيراً في الدراسات

الأدبية والطبية على حد سواء، وكثير من الباحثين قد أغفل عبودية الإنسان في بحثه، فتاه في دراسات نفسية حادت عن الصواب وقربت من الخطيئة، فجاء البحث ليجيب عن التساؤلات الآتية:

هل سيقت القصة القرآنية للترف والتسلية أم للعبرة والترقية؟ ماذا قدمت القصة القرآنية من بيان لمعالم ومجاهيل وأغوار النفس الإنسانية وعوامل تشكيلها وتطويرها وتزكيتها؟ وكيف رسمت القصة القرآنية الشخصية قبل الإيمان وبعده؟

ثانياً: أهداف البحث: يهدف البحث لبيان الدور المحوري للقصة القرآنية في تصوير الشخصيات ورسمها، وأثرها الكبير في تطوير وتنمية وتزكية الشخصية الإنسانية.

ثالثاً: أهمية البحث: أولى القرآن الكريم القصة اهتماماً كبيراً لما لها من تأثير عميق الغور في النفس الإنسانية وصياغة جُوّانيتها وتطورها وزكائها؛ لذلك فقد فصّل القرآن وبين معالم الشخصية ومداخلها وأبعادها وعوامل تزكيتها وتطويرها.

رابعاً: دراسات سابقة:

رسالة ماجستير من جامعة اليرموك الأردنية، بكلية الآداب: الشخصية في القصص القرآني (دراسة نصية نقدية تحليلية لشخوص مختارة) خالد الدولات ١٩٩٦، لكنّ هذه الدراسة توسعت في تفاصيل كثيرة اقتضتها ظروف الرسالة، وقصرت الدراسة على شخصيات محدودة.

١) بناء الشخصيةٌ في القصة القرآنيةٌ دراسة نفسيةٌ/ د. عبد الوهاب الشيخٌ /كليةٌ التربيةٌ / قسم علوم القرآن مجلة الجامعة العراقية وهي دراسة جادة لكنها قاصرة على شخصية قارون فقط.

٢) بناء الشخصية في القصة القرآنية د مصطفى عليان، جامعة أم القرى في مكة، دار البشير للثقافة والعلوم ١٩٩٢، والدراسة جادة ومسهبة، ولكنها عالجت الجانب النفسي وصفيا للشخصيات القصصية، ولم تعمد لبيان وتشخيص عوامل تنمية وتزكية الشخصية الإنسانية بمنهجية واضحة.

خامساً: حدود الدراسة: التزم الباحث- بحسب وسعه- ببيان المعالم البانية للشخصية وأبعادها بحدود قرآنية، وحوائل التفاعل بينها وبين تزكية الشخصية، ولم يتوسع البحث اجتماعيا أو نفسياً، ولم يتفرع البحث في الاستفاضة بالأمثلة على ما يعنون من مطالب خشية الإطالة، وما ذكر يؤشر على ما وُصف.

سادساً: خطة البحث: جاءت الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وعشرة مطالب وفق الآتي:

المقدمة: بين فيها الباحث وصفاً عاماً لعناية القرآن ببناء الشخصية، ومنهج الدراسة وأدبياتها.

المبحث الأول: معالم الشخصية في القصة القرآنية

المبحث الثاني: عوامل بناء الشخصية في القصص القرآني

المبحث الثالث: منهج القصة القرآنية في تشكيل الشخصية وبنائها

الخاتمة والتوصيات: حيث عرض الباحث أهم نتائج الدراسة واهم التوصيات.

المبحث الأول: معالم الشخصية في القصة القرآنية

تمهيد: أخذت الشخصية الإنسانية اهتماماً كبيراً عند مفكري العالم، قديماً وحديثاً: من فلاسفة وعلماء نفس[١] وعلماء اجتماع[٢]، وغيرهم من أصحاب المناهج البحثية وتطورها، وكلٌ ينظر إليها بحسب فكره وثقافته؛ فمن يرفع العقل ليجعله مقياساً للشخصية المثالية، ومن يختزلها بتركيبتها الداخلية المعقدة، أو على أثرها في محيطها ومجتمعها، لتعكس البيئة من حولها. وبقي الخوض في ماهية الشخصية وارتباطاتها وتحليل أبعادها حتى العصور الناهضة. [٣] التي قرنت بين التفوق والنجاح وبين المكانة الاجتماعية والدور المشغول للشخصية في البنية المجتمعية.

والقرآن الكريم حين يبني الشخصية، يجعل من القيم أساساً لها، ويلهمها معايير راقية رفيعة وواقعية؛ للنظر في الكون، وتصور الحياة بشقيها: الدنيا والآخرة، ولا يهمل القرآن قيمة على حساب أخرى، بل يوازن بينها ضمن ضوابط تنظّم العلاقات البشريّة، وينوّع بينها لتشمل قيم الأفراد والأسر، والقيم الاجتماعية، حتى السياسية؛ فأسقط من معيار التفاضل والكمال كل صور الانتماء القبلي أو

(١) ينظر فيصل عباس، أساليب دراسة الشخصية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠.

(٢) علي جلبي، دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، من ص ٣٤٥، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م. وحسين حسن، علم الاجتماع الأدبي، ص ١١٩، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١٩٩٠٢.

(٣) راجع كتاب توفيق إميل، الشخصية: توجهاتها وحاجاتها في نظرية إيريش فروم، مكتبة الأنجلو المصرية.

التقلب الوراثيّ، وجعلها مساحة فارغة بين صفحتين متقابلتين من وثيقة الحياة والحساب. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣١)﴾ الحجرات: ١٣ ومحّض اتجاه الأمة لرفع قيمة الخير وحطّ من قيمة الشر ونكّسه ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٠٤. وللقصة القرآنية دور كبير في إبراز العديد من الشخصيات وبيان أنواعها وتطوراتها، والمؤثرات فيها، والحوائل دون تزكيتها وتطويرها، والثوابت والمتغيرات فيها، وعوامل بنائها ونكوصها؛ لذلك احتفى القرآن بالقصة القرآنية احتفاء كبيراً، وأفرد للقصة القرآنية ثلث مساحته. فما هي القصة وما هو دورها في بناء الشخصية؟

أولاً: القصة لغة: قال ابن منظور: « قال الليث: القَص فعل القاص إذا قص القصص، والقصة معروفة، ويقال: في رأسه قصة يعني: الجملة من الكلام، ونحوه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف: ٣: أي: نبين لك أحسن البيان. ويقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ القصص: ١١ [(١)] « والقِصّة: الخبر، وهو القَصَصُ، وقصّ عليّ خبَره يقُصُّه قَصّاً وقَصَصاً: أَوْرَدَه، والقَصَصُ الخبرُ المَقْصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أَغْلَبَ عليه»[(٢)].

ثانياً: القصة اصطلاحاً: « هي الخبر الطويل الذي يتبع بعضه بعضاً، حتى يتناول الأمر من جميع جوانبه»[(٣)]. ولا يستقيم تقييدها بالطويل[(٤)]، فيمكن إنشاء القصة ببلاغة عالية وبعبارات قصيرة، وقصة أصحاب الفيل شاهدة.

ثالثاً: القصة القرآنية: لا يرى الباحث الأحداث التي عاصرها النبيّ ﷺ داخلة في القصة القرآنية؛ ويقتصر القصص- حسب فهمه للقرآن- فقط في الذي قصه الله على نبيه عن الماضين من

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، ٧، ٧٣، دار صادر، بيروت، ط١.
(٢) نفسه ص ٧٣.
(٣) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص ٤.
(٤) فؤاد قنديل، فن كتابة القصة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، يونيو ٢٠٠٢

أنبياء وسابقين؛ تلك التي قال الله عنها ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾[١] « فالقرآن الكريم أطلق لفظ القصص على ما حدث من أخبار القرون الأولى، في مجالات الرسالات السماوية، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال، وبين مواكب النور وجحافل الظلام»[٢] فهي أخبار الأمم السابقة، من أنبياء وغيرهم، التي عرضت على خاتم النبيين وأمته؛ لتكون لهم عظة وعبرة ومعلماً ودرساً؛ وما أخبر به الله عن أحداث حصلت في زمن النبي محمد ﷺ فهي من قبيل السيرة وما مهّد للرسالة والنبوة.

رابعاً: أهمية القصة: للقصة دور فعال في بناء وتكوين وتطوير الشخصية، وحمايتها من الانحراف والانتكاس؛ فالإنسان مجبول على حب القصة ومولع بها؛ ومن خلق هذا الكيان العجيب فهو أدرى به وبتوجهاته، لذلك ترى القصة وآدابها قد أخذت رواجاً كبيراً في العالم، وغطت مساحات بشرية شملت المثقف والعاميّ، بعكس الكِتاب الأكاديمي المقصور على العلماء والمثقفين؛ وما كان للقصة هذا الحضور لولا سهولتها ويسرها، وواقعية أحداثها وشهودها، وترابط الأحداث بشكل أخاذ جذاب كخيط العقد، ثم إنّ الناس يعشقون المغامرات والانفعالات، فيجدون في القصة ما يشبع حاجاتهم. وكم من أدب رفيع أو مكشوف قد انتشرت مضامينه وتمكنت؛ بسبب عرضه كقصة مقروءة، أو جُسد شخوصاً وحركات.

المطلب الأول: الشخصية عنصر أساس من عناصر القصة القرآنية:

تمتاز القصة بتنوع بنيتها، وأوّليات تكوّن عناصرها، وقد استقرأ النقاد عناصر ومقومات القصة، فكانت توصيفاتهم متفاوتة، بين اعتبار الزمان والمكان والحدث والجو، والصراع والتشويق والمزاج والحبكة والأزمة والذروة، ثم انحلال الذروة، وقبل كل ذلك الشخصية.

وعلى العموم فقد تواطؤوا على عناصر تجمع القصص كله[٣]، وكان الاتفاق عند الجميع على اعتبار الشخصية من أهم مقومات وعناصر القصة؛ كيف لا؟ وهي عمودها الفقري، ومحور أحداث

(١) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ آل عمران: ٤٤ ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾[سورة هود: ٤٩] ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف: ١٠٢]

(٢) ينظر عبد الكريم الخطيب، القصص القُرْآني في منظومه ومفهومه.. بيروت، لبنان. (د. ت).: ص٤٠.

(٣) انظر مثلاً حسن القباني، فن كتابة القصة، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٩٧م.

القصة تدور عليها؛ فلا قيام لحدث من غير شخوص تقوم عليه، بغض النظر عن نوعية القصة كما سيجيئ لاحقاً.

وقد اشتملت القصة القرآنية على كل العناصر التي اتفق عليها النقاد[١]، وعند تحليل القصة القرآنية إلى عناصرها الأولية نجد الشخصية أحد أهم عناصر القصة القرآنية؛ فاعتماد البناء الفني للقصة القرآنية على الشخصية يمثل الركيزة الأساس في تسلسل الحدث وفاعليته وتنوعه، وتعتمد عليها في إبراز الجانب الأدبي والخلقي من جهة، ونشأة الأحداث وصخبها من جهة أخرى.

وهذا المصطلح وإن لم يستخدم في القرآن قالباً حرفياً، إلا أنه حافل بمضمونه في القصة القرآنية؛ وهو مصطلح فنيّ أدبيّ، ولا ضير ولا حرج في استخدامه في القصة القرآنية، مَثَلُه مثل المكان في القصة القرآنية، الزمان في القصة القرآنية، بصفتها مصطلحات محايدة لا تنتمي لعقيدة أو اتجاه معين.. فما هو مفهوم الشخصية؟

أولاً: أصل الكلمة في اللغة: مادة «ش خ ص» في المعجم تدلّ على سواد الإنسان إذا كان من بعيد، وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه. والشخص: هو كل جسم له ارتفاع وظهور، وجمعه أشخاص وشخوص وشِخاص. وشَخَصَ تعني ارتفع، والشخوص ضد الهبوط، كما يعني السير من بلد إلى بلد. وشَخَصَ ببصره أي رفعه فلم يطرف عند الموت[٢].

ثانياً: معنى الشخصية: هي كلمة – في بنيتها ولفظها- مترجمة عن اللغة الفرنسية في الأصل التي استخدمت فيها كلمة شخص (Personnalite) في القرن الثاني عشر الميلادي[٣]. أما تعريفها الاصطلاحي فهو تعريفات كدوامة[٤] مستديرة؛ تدور ولا تستقر إلا بمنطقة محدودة؛ تعبر عن مرجعية قائلها ورائم أبعادها ومحدداتها، وبحسب القاعدة الفكرية لمعرّفها. وهي» صِفَات تميز الشَّخْص من

(١) منتصر الغضنفري، عناصر القصة في الشعر العباسي، ص ٢٦، دار مجدلاوي، الأردن، ط١، ٢٠١١م.
(٢) بن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ٤٥/٧، مادة: شخص.
(٣) نفس المرجع، مادة شخص. والكلمة التي ذكرها Personne ومعناها شخص، والصحيح ما أثبتناه.
(٤) لا أريد دخول دوامة التعريفات، لطول النفس بها، وقد احتار بها علماء النفس والاجتماع، وتاهت مراسيهم.

غَيره وَيُقَال فلَان ذُو شخصية قَوِيَّة ذُو صِفَات متميزة وَإِرَادَة وكيان مُسْتَقل»[١] وتتبع هذه التعريفات وتعقبها يطول، لكن أكتفي- التزاماً بحدود الدراسة - بتعريف الأستاذ عثمان فراح، أنها: « التنظيم الهيكليّ الداخليّ لاستجابات الفرد الانفعاليّة الذاتيّة والخارجيّة، بالإضافة إلى العمليات العقلية العليا، كالإدراك والتذكّر التي تحدّد شكل الأنماط السلوكيّة الاستجابية للفرد»[٢]، قلت: هي ذلك الكم المركب من الروح والجسم والعقل بأبعادها ومرجعيتها، بتفاوت بينها في الفعل والعلة[٣]؛ « فالشخصية إذن نظام متكامل من سمات تتفاعل مع بعضها وتؤثر في بعض، وهذه السمات ليست صفات طارئة عابرة، ترتبط بموقف دون موقف، وإنما هي ثابتة يبدو أثرها في معظم المواقف، ولها أثر كبير في سلوكه»[٤] ويتعلق الشخوص بالظهور، فإن امتنع شخوصه فلا حضور له، ومنه الحضور الماديّ والحضور الفاعليّ والتفاعليّ. ومنه ظهرت تصنيفات الشخصيات؛ فمن كانت حضرته بارزة فشخصيته حاضرة فاعلة مؤثرة، والعكس يتفاوت من شخص لآخر بحسب ظهورها وانكماشها وقوتها وضعفها، ومرجع ذلك كله لما تحويه هذه الشخصية من قيم دينية وتربويات واتجاهات وخبرات، وشيء من الموروثات الاجتماعية. « فالمجتمع يقوم على علاقات متبادلة، يكون الفرد فيها عنصراً مهماً، وتؤثر شخصيته في تفاعله مع المجتمع، كما يؤثر المجتمع على بناء الشخصية. «[٥]

المطلب الثاني: أنواع الشخصيات في القصص القرآني وتنوعها:

تنوعت أنماط الشخصية في القرآن تنوعاً شديداً، واكتسبت غنىً وتصنيفاً ظاهراً؛ وما كانت الشخصية في القصة القرآنية على وتيرة واحدة؛ فمن الشخصيات أئمة في الهدى، ومنهم أئمة في الضلال، ومنهم المقسط ومنهم القاسط، ومنهم العاقل وغير العاقل، ومنهم الملَك ومنهم الشيطان، ومنهم الرجال ومنهم النساء، ونستطيع تشخيص أنواع الشخصيات كالآتي:

أولاً: الشخصية الفردية: حتى الشخصيات في النوع الواحد قد تختلف وتتغير؛ حتى الأنبياء قد

(١) ووصفها في المعجم الوسيط بأنها: محدثة، انظر المعجم الوسيط، باب الشين، ١، ٤٧٥.
(٢) عثمان فراح، الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، القاهرة: دار النهضة العربية، صفحة ٢٥١.
(٣) العلة هي أشد مستويات التفكير البشري
(٤) مجلة السكينة، خصائص الشخصية الإسلامية، ١ يناير/٢٠١٢، عن د محمد الصغير، مجلة الدعوة (الرياض) العدد (١٦٦٠).
(٥) روزنتال ويودين وآخرون، الموسوعة الفلسفية، حرف الشين، شخص، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

تنوعت شخصياتهم؛ فلا تستوي شخصية موسى وشخصية هارون، ولا داوود وسليمان عليهم السلام، وهكذا. لكنّ الثوابت عندهم واحدة؛ فكلهم بشر، ويتحلون بالصدق والأمانة في التبليغ والذكاء، أما متغيراتهم فهي كثيرة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: ٤٨ وتختلف تجاربهم وتتباين؛ فكل نبيّ خاض ملحمة فكرية وصراعاً اجتماعياً وعسكرياً غير الذي خاضه أخوه النبيّ الآخر؛ فيعقوب لم يحكم، في حين تجد ابنه النبيَّ يوسف قد حكم، وتأثير شخصية موسى مختلف تماماً عن تأثير وحضور شخصية هارون؛ والدليل: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف: ١٥٠ وهارون صاحب شخصية قوية نسبياً؛ فقد ضعف حضوره وتأثيره بغياب موسى وأمام شعب قد احترف الزندقة والتمرد، فلم يستطع إيقافهم ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾طه: ٨٣ – ٨٥، أما موسى فصاحب تأثير قوي وشخصية موجهة ضابطة، فكسر العجل وعقد محكمة للسامريّ وحكم عليه:﴿قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ * قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ طه: ٩٥ – ٩٧، وحتى لا يبقى للعجل أثره في النفوس، ولا تحدثهم أهواؤهم بجمعه بعد كسره أمر برميه في البحر، قطعاً لكل أمل ورجاء. والأمثلة والتجارب كثيرة وسأكتفي بما ذكرت خشية الإطالة.

وشخصية المرأة في القصة القرآنية متنوعة؛ فمنهنّ شياطينٌ ومنهن كالملائكة؛ فنجد شخصية كشخصية مريم عليها السلام تتواصل معها الملائكة. وشخصية كامرأة فرعون تربت في بيت شيطان، لكنها خرجت منه أقرب إلى الملائكية، في حين ترى امرأة نوح وامرأة لوط، كل منهما شيطانة تحت نبيّ: ﴿ضرب الله مثلا للذِين كفرُوا امْرأت نُوحٍ وامْرأت لُوطٍ كانتا تحْت عبْديْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحيْنِ فخانتاهُما فلمْ يُغْنِيا عنْهُما مِن الله شيْئا وقِيل ادْخُلا النّار مع الدّاخِلِين * وضرب الله مثلا للذِين آمنُوا امْرأت فِرْعوْن إِذْ قالتْ ربِّ ابْنِ لِي عِنْدك بيْتا فِي الْجنّةِ ونجِّنِي مِنْ فِرْعوْن وعملِهِ ونجِّنِي مِن الْقوْمِ الظّالِمِين* ومرْيم ابْنت عِمْران الّتِي أحْصنتْ فرْجها فنفخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وصدّقتْ بِكلِماتِ ربِّها وكُتُبِهِ وكانتْ مِن الْقانِتِين﴾ التحريم: ١٠ – ١٢ نجد الجرأة والقوة في شخصية كشخصية امرأة العزيز، تخرج

كيدها وحيلتها كما تخرج النَفَس من صدرها؛ ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ لم ترتبك ولم تتردد ولم تضطرب، وبكل جرأة تعترف أمام الملأ، وتهدد وتحدد العقوبة ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوسف: ٢٥، والأمثلة كثيرة، والمساحة المتاحة في البحث محدودة، ولو تمت دراسة أنواع الشخصيات في القرآن دراسةً مستقلة ومن زوايا عدة لخرجت رسالة جامعية.

ثانياً: الشخصية الاجتماعية أو الجمعية: فهناك شخصية قد عبّر عنها القرآن ككتلة واحدة، ولكنها تمثل مجموعات من البشر والناس؛ كبني إسرائيل على سبيل المثال، تكلم عنهم القرآن كأنهم شخصية معيارية واحدة، قياسها واحد، مواصفاتها واحدة، تتقلب في الزمان والمكان؛ قال الله مخاطباً بني إسرائيل المعاصرين لنزول الرسالة: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٩١ – ٣ مع أن الوزر لا يحمله أحد عن أحد ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥ لكنها وحدة التوجه والسلوك.

ومن الشخصيات الجمعية أيضاً: نسوة المدينة في قصة يوسف؛ موقفٌ واحد، ويتحركن بحركة واحدة ﴿{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يوسف: ٣٠ – ٣١.

ومن الشخصيات الجمعية كذلك إخوة يوسف وأقوام الأنبياء، وغيرهم، كلها شخصيات عبر عنها القرآن كشخصية متحركة ناطقة بكلمة واحدة.

المطلب الثالث: رسم الشخصية وتصويرها في القصص القرآني

كان من قوة عرض الشخصية في القرآن أنها استطاعت- وبقوة- الصمود أمام تقلبات الزمان والمكان والإنسان، وما كان ذاك ليحدث لولا قوة صناعة تصوير ورسم الشخصية الحقيقية « وكأنها تعيش في كل الأزمان على قدم المساواة، ودون أن ينال منها الزمن»[١] بقدرة الرب سبحانه بهذا الأسلوب الأدبي، الذي يعبر عن المعاني بصور فنية، وعن المجردات وكأنك تنظر إلى لوحة متحركة من المعاني « وتعدّ الصورة الفنية قاعدة الأسلوب القرآني الأساسية، وأداته المفضّلة في التعبير عن المعاني المجردة، والحالات النفسية، والمواقف الإنسانية»[٢].

واستطاعت الصورة القرآنية للشخصية سبر أغوار النفس الإنسانية وعرضها بمعانيها القريبة والبعيدة، وما كانت هذه المعاني البعيدة لتظهر لولا قوة عرض المعنى الأول المنتِج للمعنى الثاني؛ وهو ما عبر عنه الجرجاني بالمعنى ومعنى المعنى؛ « ويعني بالمعنى: المفهوم من ظاهرِ اللفظِ، والذي تَصِلُ إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تَعْقِل من اللفظِ معنًى، ثم يُفضي بكَ ذلكَ المعنى إلى معنى آخرَ»[٣]؛ كذلك القرآن: حين يصور ويرسم شخصيةً معينة فهو يرمي منها بتعبير بعيد ومعنىً قريب ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾العنكبوت: ٤٣ فيطلع القارئ على تكوين تلك الشخصية بنوع من الامتزاج والاقتراب. وقد تكون هذه الشخصية فردية أو جمعية كما تقدم. وقد نهج القرآن في تصويره للشخصية منحيين: التصوير المباشر وغير المباشر:

أولاً: التصوير المباشر: وهو أن يعمد إلى رسم الشخصية بطريقة توصيفية تعريفية حادة، ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾التوبة: ١١٤ « وهو الذي يكثر التأوه، ومعناه: أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له، مع شكاسته عليه، وقوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ مريم: ٤٦ [٤].

---

(١) إدوين موير، بناء الرواية، ص ٨٢.

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام الراغب، ٧/١.

(٣) دلائل الإعجاز: بيان في شرح قوله: «المعنى»، و»معنى المعنى» ٢٦٣.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ٣٠٢/٢.

ثانياً: التصوير غير المباشر: وهو رسم الشخصية والتعبير عنها بالمواقف والأفعال التي يقوم بها، وبالتضحيات الجليلة، التي هانت عليه في مقابل سلم أولوياته؛ ومن عظمة القرآن أنه يعطينا أبعاد الشخصية في بضع كلمات؛ فلكل شخصية مفتاح، به تعرف هذه الشخصية؛ قال الله عن يوسف- عليه السلام- بلسان القصر: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يوسف: ٤٦، وعرفنا شخصية أيوب- عليه السلام- الصابر المحتسب من خلال المواقف التي عاشها ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ص: ٤١ فهذه المواقف وغيرها تبين لنا اتجاهات الشخصية ومكامن أبعادها.

ونستطيع أن نقسم أبعاد الشخصية إلى ثلاثة:

أولها: البعد الداخلي أو الجوّاني: وهو العالم النفسي للشخصية وعواملها الداخلية، وهذا هو الإنسان في الحقيقة؛ وباقي ما تبقى رتوش ولمسات لا تعار لها الأهمية بالنسبة للبعد الداخليّ.

ثانيها: البعد الخارجي أو البراني: وهي الصورة الخارجية. والقرآن لم يعرها كبير اهتمام؛ لأنها لا تعكس حقيقة الإنسان، فحقيقته هي قواه الفكرية والنفسية. ولمّا عجب الصحابة من دقة ساق ابن مسعود التي أصبحت محل سخرية امتعض رسوا الله ﷺ، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ « قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[1]. وموسى- عليه السلام- كان شديد السمرة[2]، وهناك عيّ في لسانه، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الزخرف: ٥٢ لكنه من أولي العزم. فلم يعر القرآن للبعد الخارجي أهمية تذكر إلا في سياق معين؛ كذكر مؤهلات القيادة العسكرية وبشكل هامشي، كما ذكر طالوت: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ

(١) صححه الأرناؤوط، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ٩٩١.

(٢) ففي الحديث «وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط» البخاري رقم: ٣٤٣٨ باب قول الله {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها}، قال في اللسان: «والزُّطّ جيل أَسْوَدُ من السِّنْدِ إليهم تُنسب الثياب الزُّطِّيَّةُ» زطط، ١٠٨/٧.

يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٤٧ وما ذكر هذا البعد إلا أنه يتكلم عن شخصية عسكرية ميدانية.

ثالث الأبعاد: البعد الاجتماعي: وهو المركز والحالة التي يعيشها صاحب الشخصية، فالملك في قصة يوسف تكلم بكلام الملوك وبصيغة الاستعلاء: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ يوسف: ٥٤ كلام يتسق مع المركز الذي يملؤه؛ بغض النظر عن صحته بذاته وموافقته للحق؛ ففرعون بمركزه الذي وضع نفسه به أصبح إلهاً، وقال كلاماً يتناسب مع شخصيته: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ القصص: ٣٨ فموقع الإنسان الاجتماعي يملي عليه طريقة خطاب معينة.

المبحث الثاني: عوامل بناء الشخصية في القصص القرآني

تمهيد: الشخصية والميراث المجتمعي: وأقصد بالميراث: الجانب الإرادي واللاإرادي من الموروثات الفكرية والنفسية والطبعية؛ فهناك جانب إراديّ نحن مسؤولون عنه، وهناك جانب لا إراديّ، ورثناه بحكم الجينات والقرابة، وتركيز الباحث هنا على الجانب الموروث، القابل للتغيير والتوجيه والتطهير؛ فالله عز وجلّ قد أمرنا بالتطهر من موروثات بيئية اجتماعية وموروثات جينية متوارثة، وموروثات النفس التي جبلنا عليها، فهذه ثلاثية تضيق على الشخصية وتمنعها من التزكية والتطهير والتطوير؛ عوالق المجتمع والبيئة، وأصعب منها عوالق النسل العائلي، والأصعب منهما عوالق النفس وطبيعة خلقتها؛ ووظيفة الإنسان هي التطهير من هذه العوالق، ومن ثم التنمية والتطوير والارتقاء؛ وهو ما عبر عنه القرآن بالتزكية، فالتزكية هي تطهير من جانب ونماء وتطوير من جانب آخر: « والزكاة: الصلاح»(١)، « أصلٌ يدل على نَمَاءٍ وزيادة»(٢). وعلّق الله فلاح الإنسان بتزكية نفسه فقال الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الأعلى: ١٤ وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ الشمس: ٩، والفلاح: من الفَلح، محرّكَةً، والفَلاَحُ: الفَوْز بما يُغْتبَط به، وفيه صَلاحُ الحال والنَّجاةُ، والبَقاءُ في النّعيم والخَيرِ»(٣). فالفلاح فيه شق الفوز وشق

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، زكا.
(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٢/٣.
(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٥/٧، فلح.

الفوز بالمرغوب تماماً، وشق الدوام فيه والبقاء. والإنسان قادر على التغيير، بل هو قابل لذلك التغيير؛ وإلا لانتفت الغاية من الرسالة والرسل، ولابتعدت النجعة من الدعوة.

ويبطل القرآن فكرة توريث الخطيئة كما تزعم المسيحية، وفكرة شيطنة الإنسان، وأنه شرير بطبعه[1] قال الله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ النجم: ٣٦ – ٣٨ فيعلن القرآن الكريم براءة الإنسان من أي خطيئة، بل هو إلى الخير أقرب؛ فحين اقتضت إرادة الله عز وجل أن يكون الإنسان محل الاستخلاف في الأرض، وضع فيه قابلية المحبة للخير؛ بفطرة نقية، تتوجه للخير والصلاح والاستقامة، قال الله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٣٠، فالإنسان يتحلى بقدرات وتوجهات تؤهله لتزكية نفسه وتطويرها وبنائها.

المطلب الأول: مقاصد القصة القرآنية وأغراضها، وأثرها في بناء الشخصية:

قطع الله في القرآن الكريم أنّ في اتباع الهدى عصمةٌ من أربعة أمور: ضلال وشقاء وخوف وحزن، فهل تتعدى أمراض البشرية هذه الأربعة؟ فتيه وانحراف يتبعه شقاء وعناء، ويلحقه الخوف (الفوبيا) والحزن (الاكتئاب). ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ طه: ١٢٣ وزاد جاهزيته وأهليته للاستخلاف والثبات؛ بأن وهبه عقلاً يعصمه ويضبط سلوكه ويوازن بين أولوياته، لذلك كان من أسماء العقل: النهى، قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ طه: ١٢٨ وقد سُمي بذلك لأنه ينهى عن القبائح «.. سُمّي بها لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبيح، كما سُمّي بالعقل والحجر، لعقله وحجره عن ذلك لذوي العقول الناهية عن الأباطيل التي من جملتها ما تدّعيه الطاغية، وتقبله منهم الفئة الباغية. وتخصيص أولى النُّهى مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها»[2]. وهذه المواهب وهذه الهدايات قد وجدت لغايات وأغراض، وسيجمل

(١) انظر بحث د. عماد الدين الشنطي، خطيئة آدم، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، م١/٢٠.

(٢) المحرر الوجيز، ٤/ ٤٨، أنوار التنزيل وأسرار التنزيل، ٣٠/٤، الجامع لأحكام القرآن ٢١٠/١١، تفسير روح البيان ٤٧٢/٥، روح المعاني، ٥٢٠/٨، التحرير والتنوير، ١٣٤/١٦.

الباحث أهم غرضين قصدهما القرآن الكريم عامة والقصص القرآني بشكل خاص:

والغرض هو الحاجة والبغية من الشيء، كان هذا الشيء كلاماً أو فعلاً[١]، والحكماء لا يتكلمون إلا لمقاصد، وكل كلامهم مغيّاً بغاية وهدف، فما بالكم برب العالمين، رب الحكماء وأحكم الحاكمين سبحانه، قال الله عز وجلّ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف: ١١١. وأغراض القصص القرآني كثيرة جداً، لا تحصر ولا تجمع، وهي تختلف وتتغير بحسب كل مجتهد واجتهاده، وكل ناظر وما نظر؛ فهناك أغراض كلية تمثل أمهات الأغراض، وهناك دروس تفصيلية، وما يفتح للناظر فهو نعمة وهبة ربانية. ومقام هذه الدراسة يبعث على الإيجاز غير المخل، وندع التفاصيل للمطول من الكتب والدراسات، والحر تكفيه الإشارة، ويكتفي الباحث بذكر ودراسة أهم الأغراض[٢] للقصص القرآني والعمل على تثبيته في دينه، وتقوّمه وتمنعه من الانحراف[٣]:

أولاً: إحياء وظيفة الروح/ تثبيت دعائم الإيمان: ويمثل هذا الغرض أمّ أغراض القرآن كله؛ والقصص القرآني جزء من هذا القرآن ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود: ١٢٠ وأول قوافل الثابتين هو محمد ﷺ؛ فإذا ثبت القائد والرمز ثبتت الأمة من بعده؛ هب أنّ النبيّ تنازل- وحاشاه -ﷺ لتجدنّ النكوص سيد الموقف، والتنازل سمة المرحلة.

إنّ للإيمان دوراً راسخاً في استقرار الحياة وتوازن العلاقات بين الناس، وهو لبنة بناء الأمم والأفراد. والمغامرة والإخلال به له عواقب وخيمة، لا تحمد عقباها: على الصعيد الشخصي والمجتمعي، بل العالمي؛ فالإيمان روح تتصل بالعالم الغيبي، تهذب النفس وتضبط العاطفة وتصحح المسار. لذلك أولت القصة القرآنية للإيمان اهتماماً ملحوظاً، وجعلت منه أم الأغراض وسيد الغايات. جاء في أوّل

(١) انظر: المعجم الوسيط، ص٦٥٠.

(٢) للقصة القرآنية أغراض رئيسة وفرعية، انظر رسالة الماجستير بعنوان: قضايا الأمة وعلاجها في القصص القرآني» «دراسة موضوعية» إعداد الطالب: عبد اللطيف رجب القانوع، الجامعة الإسلامية – غزة ٢٠١١م؛ واكتفى الباحث بذكر أهم الأغراض التزاماً بحدود البحث.

(٣) انظر بحثنا عن تأصيل الانحراف الفكري، في مجلة جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم، العدد الخامس عشر.

سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف: ٣. وفي نهاية السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف: ١١١. وجاء في سورة القَصَص قبل عرض قصّة موسى-عليه السلام-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٣، وفي خواتيمها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ القصص: ٤٤ – ٤٥. وجاء في سورة آل عمران في مبدأ عَرضه لقصّة مريم- عليها السلام-: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ آل عمران: ٤٤. وفي سورة (ص) قبل عرض قصّة آدم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ص: ٦٧ - ٧١. فالإيمان بالله يقوّم قلوب المؤمنين، فلا يفكرون إلا صالحاً، ولا يتدبرون إلا ناجحاً، وركن الإيمان بالملائكة يورث الإنسان الاستقامة على أمر الله؛ حين يعلم بأنّ هناك من يدون ويسجل كل أقواله وأعماله، فيحرص على سلامة سجله مما يشين ويدين؛ فيثمر ذلك تصحيح العمل والأوبة إلى الله تعالى؛ مما يورث الأمن والسكينة النفسية للإنسان، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق: ١٧ – ١٨ كما أبرز ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال رحمه الله: « فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم»[(١)].

وقد ساق القصصُ القرآني معاني وكليات من شأنها رفع منسوب الإيمان واليقين، تحفظ المتدبر لها من الانحراف والتطرف والزلل والتفريط، وتنمي شخصية المتدبر لها وتزكيه.

ثانياً: إحياء وظيفة العقل: يحتفي القرآن الكريم بمكانة التفكير السليم، والنظر الصحيح في الكون؛ ليكون بوابة كبيرة من بوابات الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

(١) د. مُساعِدُ الطَّيَّار، شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية،، ٢٤٨.

(١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ آل عمران: ١٩٠ – ١٩١. وجعل الله أحد أهم وسائل التطور الفكري والتفوق الإيماني هو استخدام قوة العقل في الوصول إلى الله، فندب إلى إعمال العقل في قصص من سبق؛ ليتبين لهم الحق: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ طه: ١٢٨ «يعني: لأهل الحجى والعقول، ومن ينهاه عقله وفهمه ودينه عن مواقعة ما يضره»[١]. ومن هنا فقد ثرّب القرآن على من سلّم عقله لغيره ولم يتفكر، وشبهه بدواب الأرض، التي لا تعقل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأنفال: ٢٢، سماهم دوابّ؛ لقلة انتفاعهم بعقولهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَاۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩[٢].

ويحث القرآن الناس على إعمال العقل ليصل بهم إلى الحقيقة، ويعلموا أنّ الله هو الحق، وأن ما دونه هو الباطل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الحج: ٦.

وقد كان من غايات القصة القرآنية التفكر والتدبر، قال الله ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَاۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١٧٦. فكانت القصة القرآنية وسيلة من وسائل الحفظ من الانحراف والوقاية من الضلال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «فيقفون على جلية الحالِ وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلالِ؛ أي فاقصُص القصص راجياً لتفكرهم أي أو رجاءً لتفكرهم»[٣]. فقبل عرض موجز لبعض قصص السابقين، قدّم الله لعظم وظيفة العقل في التحصن والتمنع من الخطيئة، فقال سبحانه: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ الفجر: ٥[٤] ثم عرّج على الأقوام الذين لم يحجرهم عقلهم عن الرذائل والشرور، وبدأ بأعظمهم: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان، ٣٩٨/١٣.
(٢) البغوي، معالم التنزيل، ٣٤٣/٣.
(٣) أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٣، ٢٩٤.
(٤) أي: لذي عقل ولب وحجا؛ وإنما سمي العقل حجْرًا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به « ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ٨، ٣٩٤.

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ الفجر: ٥ – ١٤. وقد أكدت الدراسات الحديثة أنَّ المتطرفين والمتعصبين دينيًّا لهم خصائص وسمات تميزهم عن غيرهم؛ إذ إنَّ المتطرفين لا يسمحون للآخرين بإبداء آرائهم، كما أنهم يتميزون بالعنف في التعامل، والخشونة والغلظة في الدعوة، بالإضافة إلى النظرة التشاؤمية، والتقليل من أعمال الآخرين والاستهتار بها، والاندفاع وعدم القدرة على ضبط النفس، كما أنَّ المتعصبين والمتطرفين دينيًّا غالبًا ما يتميزون بحداثة السن، وقلة العلم، والفشل في الحياة[١].

المطلب الثاني: تطور الشخصية في القصص القرآني:

حررنا من قبلُ- في تمهيد هذا الفصل- قابلية الإنسان للتزكية والارتقاء، أو الخسة والانتكاس؛ وأقصد بالتطور في الشخصية هو التغير الحاصل فيها إما إيجابياً وإما سلبياً، وإن كان التطور قد يحمل للإيجابية أكثر. وأخصّ بالتطور هنا التطور الفكري والروحي، لا الجسدي والمادي؛ فهذا مجرد نمو لا يعني للحقيقة شيئاً.

والإنسان جزء من هذا الكون المتحرك المتحول، ويأخذ حظه من هذا التحول[٢]؛ وسأضرب بعض الأمثلة لشخصيات تغيرت، وسأبدأ بالأسفل من باب التنقية منه، ثم أعرج على أمثلة طفيفة من الأرقى:

أولاً: شخصيات هابطة: وهو مَثَلٌ غريب عجيب ضربه الله لشخصية سقطت من علوّ، أوتيت الآيات وانسلخت عنها ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الأعراف: ١٧٥ ضرب الله تعالى المثل لهذا الخسيس الذي آتاه آياته فانسلخ منها بالكلب، ولم تكن حقارة الكلب مانعة من ضربه تعالى المثل به، وكذلك ضرب المثل بالذباب»[٣]

ومن الشخصيات الهابطة التي انتكست وانحدرت شخصية الملعون إبليس نفسه؛ بعد أن كان يعايش الملائكة ويحسب من جملتها؛ لأنّ التكليف قد ثقل عليه فأقعده. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ

(١) عبد الحميد رشوان، الإرهاب والتطرف من منظور علم الاجتماع، ١٢٣.
(٢) انظر كتاب شادية التل، الشخصية: من منظور نفسي إسلامي، المنهل، ١ ذو الحجة ١٤٢٦ هـ
(٣) الشنقيطي، أضواء البيان، ٨٥/٨.

صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ الأعراف: ١١.

ثانياً: شخصيات صاعدة: وقد قصّ القرآن علينا أمثلة كثيرة، ارتقت من وحل الخطيئة إلى غمام القبول، ومن شبائك إبليس إلى سعة رحمة الله وفضائله، ومن هذه الشخصيات: سحرة فرعون؛ بدأوا من الحضيض النازل؛ من سحرة مأجورة تشترى وتباع، من قولهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾لشعراء: ٤١. ومن سحرة أضفت العزة لذليل، من أجل متاع قليل: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ الشعراء: ٤٤. وبعد أن لامس الإيمان قلوبهم[1]، وفجأة: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ* قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ الأعراف: ١٢٠ - ١٢٢ انقلاب من نقيض إلى نقيض في دقائق، بل حين هددهم فرعون بالقتل: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ الأعراف: ١٢٤ - ١٢٦.

ومن الشخصيات التي تزكّت وتطورت شخصية امرأة العزيز؛ وهي تختلف عن شخصية السحرة؛ أنّ تطورها كان بطيئاً قياساً بالسحرة، فقد أثمرت بذور الدعوة وأدماث أخلاق يوسف عليه السلام حين كان في بيتها نامياً عندها- ولكنّ حسنه وبهاءه قد شغلها وشغفها عن فكرته- فما كان ليوسف لينشأ عندها مجرد آكل وشارب، وانظر إلى ذلك الحوار الذي دار بينه وبين السجناء في السجن، لتعرف كيف أنّ طاقة يوسف عليه السلام إيجابية أخّاذة، في كل مكان يحلّ به عليه الصلاة والسلام ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف: ٣٩ - ٤٠. فالانقلاب إما أن يكون سريعاً كما وجدنا من تحول السحرة للحق وإبليس للباطل، وإما أن يحتاج لوقت وتريث؛ والزمن جزء من العلاج؛ فامرأة العزيز لها عبارتان تدلان على الفارق الهائل بين زمنين لهذه السيدة، فالعبارة الأولى قالتها بتبجح وعناد وتحدٍّ وتعنت شديد، بل أكدت الإشاعات للنسوة اللاتي جمعتهن بقولها: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يوسف:

(١) انظر المطلب الأول في هذا المبحث عن دور الإيمان في تطوير الشخصية.

٣٢ أما الموقف الثاني والعبارة الثانية فهو من باب الاستغفار والتوبة والاعتراف بالذنب والانكسار، مع أنّ الألفاظ واحدة، لكن الوضع النفسي متغير كالسماء بالنسبة للأرض: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يوسف: ٥١

ولا أريد الإطالة، وهناك أمثلة كثيرة: كتطور شخصية يعقوب ويوسف ويونس وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام؛ ولكنّ هذا التطور من حسن إلى أحسن ومن كمال إلى أكمل، وهذا يحتاج دراسة خاصة، تحمل- مثلاً- عنوان: التطور الأمثل في شخصيات الأنبياء / دراسة في ضوء القصص القرآني.

المطلب الثالث: حوائلُ التفاعل بين القصة القرآنية والشخصية الإنسانية

أولاً: الجهل: وهو أسّ الانحراف وغذاؤه؛ ذلك أنّ العلم الصحيح يحمي صاحبه ومَن حوله، والجهل نار تحرق الجميع، وقد كانت باكورة الوحي ومطلع نوره ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ العلق: ١ ولم يقل: فكّر! بل اقرأ؛ لأنك إن فكرت بمعزل عن العلم والقراءة أفسدْتَ عقلك وانتهيت لدائرة اللا علم، وهو الفراغ، وبالتالي وهمُ العلم، ووهم الحق واحتكاره، واحتقار غيره. وأعني بالجهل معناه الواسع؛ من عدم المعلومة، وتحكم القوة وغلبتها على الضعيف ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾المائدة: ٥٠ ومن هنا نتج عندنا صنف يعلم: رفع القرآن من قدره فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩ وصنف لا يعلم: حضه القرآن على العلم، وصنف جاهل يدعي الحق معه ولا يملك سوى وهم وأمنيات ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرعد: ١٩. فالجهل سبب إعراض المعرضين عن دعوة الأنبياء والمرسلين ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هود: ٢٩.

ثانياً: التمسك بالأفكار القديمة (التقليد الأعمى): وهذه الآفة الخطيرة قد جمّدت الوعي وشلت التفكير؛ فترى حماساً للماضي وميراث الأجداد! وفتوراً ونكوصاً عن كل إبداع وتجديد! ولو كان هذا التجديد منضبطاً بقواعد الدين والمنهج؛ وما ذلك إلا لاتّباع هوى النفس، بتمسكها بكل

مألوف ودارج ومعتاد ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الأعراف: ٧٠ إنّ آفة المجتمعات في كل زمان ومكان هي التقليد البليد المستحكم، الذي يشلّ عقول الناس، ويستبقيها مغتبطة بملازمة ما وجدت نفسها فيه، وعاجزة عن إدراك ضرورة مبارحة ما هو كائن الى ما يجب أن يكون.. [١]

وقد كان من أسباب صد فرعون وقومه عن موسى عليه السلام هو إلف الآباء: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٧٨ وكذلك كان صد قوم إبراهيم عنه لذات السبب: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الأنبياء: ٥١ – ٥٤. وما كان شيء أشدّ على الأنبياء من هذا الحائط القوي المنيع؛ فهو خط الدفاع الأول والأخير للأقوام في مواجهة الدعوة الجديدة. وانظر كيف مدح الله من اهتدى بنور الله، فجعل الله عقل هذا المهتدي كاملاً راقياً فقال الله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ١٧ – ١٨.

ثالثاً: التعصب والتحجر: وهو عدم قبول الحق، ورفضه ومحاربته، مع ظهور دليله وقوة وحجته، « من العصبية، وهي أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين»[٢]. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ هود: ٩٦ – ٩٧ « أَمْرُ فِرْعَوْن- أي: مسلكه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال- بِرَشِيدٍ﴾: أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد»[٣] وهو مرض فِكْرِيٍّ يعيشه المريض؛ متوهماً الاستعلاء والتفوق على غيره، وبالتالي فهو يزعم أنه يحتكر الحقيقة. وقد تسبب هذا الكبر الصدّ لشعيب عليه السلام من قبل: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ هود: ٩١، وما ذلك إلا لكرههم واستحقارهم لغيرهم،

(١) إبراهيم البليهي، التقليد الأعمى للآباء يلغي عقول الأجيال، جريدة الرياض، الأحد ١٦ صفر ١٤٣٩هـ.

(٢) وهم الأقارب من جهة الأب؛ يعصبونه ويحيطون به ويشتد بهم. ابن منظور، لسان العرب، عصب، ٦٠٢/١.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٤٨/٤.

وغرورهم بذواتهم وتضخم مفهوم الأنا عندهم، كما رأينا من فرعون حين رفض الحق وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر: ٢٩.

خامساً: القهر والاستبداد: فمن وقعت عليه المظالم، وصَار أَمرُه إلى القهر، وتُسلّط عليه بالظّلم، وصار أمره عَسْفاً فلا تأمن عليه السكون؛ « والمجتمع الذي يتحكم فيه الاستبداد هو مجتمع خامل، معطل، متراجع في كافة مرافق الحياة ووجوهها، يسوده التخلف، وتسيطر عليه الخرافة، وتنعدم فيه القيم وتموت فيه الفضيلة.. »[1]. وهو الجو الذي ساد حقبة فرعون حين قال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ الأعراف: ١٢٧ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٤ والنموذج الفرعوني حيّ يتكرر، وعلى مستوى الأسرة أيضاً، فهو الحل الأسهل ولا يحتاج لكبير علم أو تنوير؛ فإما القتل ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ غافر: ٢٦ أو السجن ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ الشعراء: ٢٩ أو التشهير والاتهام بالباطل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الإسراء: ١٠١ « بل تعدى الأمر والقهر أن يتحكم بقهره في طريقة تفكيرهم: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر: ٢٩ حتى في اختيار دينه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ١٢٣، وكانت النتيجة تدمير الإرادة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ هود: ٩٧ « رضوا بمتابعة فرعون، فاستحقوا ما استحقه، لم يشعروا بخطئِهم، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسَنون صُنْعاً. وإذا ما أوردهم النارَ فهو إمامُهم، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران، حين لا ينفع تضرعُهم وبكاؤُهم، ولا ينقطع عذابُهم وعناؤهم، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم، وذلك جزاءُ مَنْ كَفَرَ بمعبوده، وأسرف في مجاوزة حدوده. »[2].

---

(١) علي عبد الرضا، الاستبداد السياسي.. والديني، مجلة النبأ، العدد ٣٦، السنة الخامسة، ١٤٢٠ هـ

(٢) القشيري، لطائف الإشارات، ٢، ١٦٥.

المبحث الثالث: منهج القصة القرآنية في تشكيل الشخصية وبنائها

سلكت القصة القرآنية قواعد وأسساً مضطردة، هدفت إلى بناء الشخصية القويمة السليمة وتشكيلها؛ فكل قصة من القصص القرآني كانت تعزز وتوجه لهذه الأسس والمعايير، إما مجتمعةً وإما متفرقة، ويرى الباحث- في حدود بحثه- أنّ القصة القرآنية استطاعت صياغة منظومة منهجية تربوية، شكلت من خلالها شخصيةً قادرة على تحمل هذه الأمانة العظيمة، من حفظ الدين والدعوة إليه والصبر على القيام بواجباته وأعبائه، وقد تمثلت هذه المنهجية بالنقاط التالية: (١)

المطلب الأول: عرض النموذج:

أولاً: طرح النموذج السيء الهابط للحذر منه والتنفير من مقاربته: وهو أسلوب ناجح في ربط السوء بنماذج سيئة؛ من خلال تبيان خِفَّ وَإِسْفافِ تلك الشخصيات، وأثرها القبيح والشائن في المجتمعات والبشر.

ويأخذ هذا الأمر خطورته الآن في تعظيم وسائل الإعلام من النماذج السيئة، ومحاولة فرضها قدوات للمراهقين، والبالغين، فوضْعُ المعايير الأخلاقية في مكانها الصحيح يكون عبر تقديم النماذج التي قدمت نفعاً للبشرية ورفعةً للإنسان؛ ففرعون قد مثّل حالة متكررة للحكم الشمولي الهاتك للعرض والعقل والمال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البقرة: ٤٩ إنه الحكم المستبد حتى بطريقة تفكيرك واختيارك لعقيدتك ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ الأعراف: ١٢٣ ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يونس: ٨٣ ويتحكم بحركتك ويمنع عنك اختيار مكان العيش الذي تهدأ نفسك به: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يونس: ٩٠، وهناك نماذج كثيرة، وبتصنيفات أخرى، لعلها تكون في دراسة خاصة تستفيض بها الورقات.

ثانياً: عرض النماذج الحسنة الشريفة الصائبة: وذلك بتقديم القيمة مشخصة بشخوص

(١) وقد عُرضت هنا مختصرة جداً، ويوصي الباحث بدراستها بحيالها، لتخرج بحثاً علمياً كاملاً.

وأعيان، وتقدم هذه القدوات بمعاناتها وصبرها، ونتائج حصادها، ثماراً نفعت نفسها، وأضفت على البشرية ثوب الأمن والهناء والرغد؛ بدءاً من ذي القرنين ورحلته المجيدة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا* إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ الكهف: ٨٣ - ٨٥ إلى موسى- عليه السلام- صاحب الخلق الرفيع: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ القصص: ٢٣ – ٢٤. وقال عن إبراهيم وإسحق ويعقوب- عليهم السلام- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ الأنبياء: ٧٣. ولو تدبرنا دور الثبات في الدعوة لاقتدينا بنوح عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت: ١٤، مع قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ هود: ٤٠!! إنها الشخصية الثابتة ولو كان في وجهها الإعراض والجحود. وهم النموذج الأمثل في الصبر ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الأنبياء: ٨٣. والعفو والمسامحة ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يوسف: ٩٢، حتى من ابتلي بالوحدة والحرمان من الذرية كزكريا ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ آل عمران: ٣٨ فلنا فيهم العبرة؛ فنجعل من هديهم معبراً نجتاز به تلاطم بحر الفتن والشهوات ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يوسف: ١١١، ليثبت الروح والفؤاد ويستقر القلب ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود: ١٢٠. فربط الشخصية المسلمة بالقدوة الحسنة، وتنفيره من السيئة له الدور الكبير في تشكيل الشخصية المسلمة، وثباتها وتزكيتها. (١)

المطلب الثاني: عامل الزمن: وقد اعتمد القرآن على عامل الزمن في تطوير الشخصية وثباتها، وخلوصها من شوائبها وعوالقها، وهناك العديد من العوامل التي تسهم في تبدّلات وتطورات

(١) ينظر بحث د. عصام العبد زهد، القدوة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع، الجامعة الإسلامية – كلية أصول الدين، مقدم للقاء الدعوي الأول بعنوان (الشخصية الدعوية المؤثرة). ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

الشخصية؛ منها الاجتماعي، ومنها العامل السيكولوجي، ومنها العامل الصحي والبيولوجي، ومنها الاحباطات التي يتعرض لها، والصراعات النفسية، داخلية كانت أم خارجية، والشعور بالتهديد أو الوقوع فيه، كلها عوامل تؤثر وتسهم في تغيير وتطوير الشخصية، وأحد هذه العوامل عامل الزمن؛ تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ طه: ٨٢. « وثم في قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ للتراخي النسبي؛ إذ أنّ هناك فرقاً كبيراً بين من يتوب إلى الله- تعالى - ويقدم العمل الصالح، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى الله- تعالى- وبين من لا يداوم على ذلك»[1]. « أي استقام ودام على الإيمان والتوبة والعمل الصالح»[2]. وهناك عامل الزمن النفسي؛ كمن يزرع البذرة وينتظر ثمرها؛ وتطور الشخصية وتشكلها يحتاج إلى الزمن والأناة؛ وانظر لحال شخصية كشخصية يوسف عليه السلام؛ كيف تشكلت شخصيته وتزكّت، بفضل عامل الزمن والضنك في السجن؛ فحين عبّر رؤية الفتيين أوصاهما بوصية لا تليق بمستوى يوسف عليه السلام؛ حين سأل غير الله، ولما يمكث في السجن، فقال للناجي من الفتيين ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ يوسف: ٤٢؛ فطلب الشفاعة فوراً، فلبث في السجن بضع سنين، إلى أن رأى الملك رؤياه وعرضها على حاشيته: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ* قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ يوسف: ٤٣ - ٤٥ فعبّر يوسف الرؤيا وأسعد الملك، وطلب حضور يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يوسف: ٥٠، وهنا كانت الشخصية العظيمة؛ قد كملت فوق كمال ونمت وتطهرت فوق نمائها وطهرها؛ ففي الأولى: اذكرني عند ربك وفي الثانية ارجع إلى ربك. الأولى أخذت بعض يوم والثاني بضع سنين؛ فعملت السنين بيوسف حين التقط الرسالة من ربه أول مرة، وعرف أنه ما عوقب إلا بهذا الذنب؛ وهو العجلة على الله. وهي ذات الرسالة التي أرسلها الله ليونس حين التقمه الحوت، وعرف أنه لم يصبر على قومه، وأدرك ذنبه قائلاً: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ الأنبياء: ٨٧ والأمثلة كثيرة.

(١) محمد سيد طنطاوي التفسير الوسيط، ١٣٥/٩.

(٢) ابن جزي التسهيل لعلوم التنزيل، ١١/٢.

المطلب الثالث: بناء العقل السنني:

يبني القرآن عقلية أتباعه على أنّ ما يقع في هذا الكون من مجريات، إنما يحدث وفق قانون حادّ صارم، لا يتبدل ولا يتغير؛ وكل مخلوق مقهور بهذا القانون، ولا يملك البشر من هذا القانون سوى تسخيره ووفق قانون أيضاً؛ وهذه القوانين قد سماها الله بالسنن. والسنن جمع سنة، وهي تعني السيرة، حسنة كانت أو قبيحة[١]. « وفي حديث المجوس: « سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أي خذوهم على طريقتهم وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم»[٢] فيدور معنى الكلمة على الطريقة المتبعة؛ أي طريقة الله المتبعة في الكون؛ ويقصد الباحث هنا طريقة الله وقوانينه الاجتماعية في الكون- وليس قوانين الله في الخلق والتكوين؛ فهي سنن مادية كونية- وفائدة تسخيرها؛ وهي قوانين محايدة لا تخضع للإنسان لمجرد كونه مسلماً، بل تخضع-بإذن الله- لمن عرفها وطوع مسارها.

والعقل السنني يبني حياته ويتشكل وفق الطريقة الإلهية المضطردة في معاملة الله تعالى للبشر؛ فبذلك يحافظ على يقينه وإيمانه؛ لعلمه أنّ ما يجري من حوله خاضع لسنة الله في الكون، وليس وفق أهواء ورغبات وأمنيات؛ بل باضطراد وثبات ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب: ٦٢ ويدل على اطرادها أن الله تعالى قصّ علينا قصص الأمم السابقة وما حلّ بها لنتعظ ونعتبر، ولا نفعل فعلهم؛ لئلا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها. فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر: ٢ بعد ما حلّ ببني النضير لسوء أعمالهم[٣] « يقول تعالى ذكره: فاتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحلّ الله بهؤلاء اليهود... واعلموا أنّ الله وليّ من والاه، وناصر رسوله على كلّ من ناوأه، وحلّ من نقمته به نظيرَ الذي أحلّ ببني النضير. وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها

(١) لسان العرب لابن منظور، ج١٧، ص ٨٩.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٤٠٩ والحديث في الموطأ. ٩٦٨ ضعفه الألباني، الإرواء ٨٨/٥.

(٣) الدكتور عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ١٠.

يكون دون الإبصار بالعيون»[1]. فحين يعلم المسلم قوانين النصر والهزيمة، قوانين النهوض والانتكاس تستقر نفسه ولا يضطرب يقينه، يعلم أنّ ما أصابه بسنن، وأنّ ما يرفع عنه يرفع بسنن؛ وأنّ هذه السنن لا تحابي المسلم، ولا تجامل الكافر، فيدفعه ذلك للعمل والاجتهاد والجد والمثابرة من جهة، ومحاولة معرفة مداخل هذه السنن وضوابطها؛ حتى يكون بذلك بحق متبعاً للقرآن على الوجه الذي أراده الله، فبعد واقعة أحد جاء الدرس الإلهيّ لمن حدثته نفسه عن الهزيمة، قال الله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ آل عمران: ١٣٧ وعن اليهود قال الله موجهاً لسنة من سننه ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٢٠ وقال عمن جافى شرعه قاطعاً بسنته فيهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء: ١١٥ ولمن تبع هواه: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ١٤٥ والقرآن حافل بهذه القوانين الإلهية في النفس والمجتمع؛ فمن عرفها آمن وثبت في إيمانه، ومن غابت عنه: فالتردد والانتكاس مصيره وعاقبته: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود: ١٢٠ كسنة الابتلاء ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت: ٢، وسنة التدافع العظيمة ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٢٥١ وسنة التغيير القاطعة ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ الرعد: ١١.

(١) الطبري، تفسير الطبري، ٢٣/ ٢٦٦.

المطلب الرابع: الخصائص العلمية في القصة القرآنية

حازت القصة القرآنية على مزايا عظيمة، انعكست هذه المزايا على شخصية المتدبر لها والعالم بمغزاها؛ ومن غفل عن هذه المزايا والتمس غيرها فقد أبعد غايات كثيرة من غايات القصة، وحاد عن مقاصدَ أراد الله من تلك المقاصد تشكيل الوعي وبعث العمل، وكل ميزة من هذه المزايا تعمل عملها في تكوين الوعي وترقية الفهم وتحديد الفهم؛ وهذا بعكس القصص الإسرائيلي: بشقيه الإنجيل والتوراة؛ والذي فقد كل هذه الخصائص التي سنوجزها تالياً، مما أدى بالشخصية التوراتية والإنجيلية إلى العبثية وغير المنطقية في التفكير والهدف والعمل. وأهم هذه الخصائص:

أولا: الربانية: وهي خصيصة الخصائص وجماعها، ومزيّة المزايا ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الإسراء: ١٠٥﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف: ٢ ليس للرسول فيها قليل ولا كثير، وباقي القصص يحمل الصبغة الإنسانية كاملاً، كحال القصاص، أو أنّ فيه مسحةً من الربانية والكثير منه إنسانيّ؛ كحال الإسرائيليات وما دخلها من عبث البشر وأهوائهم، كمن يزعم أنّ الله- وحاشاه- قد صارع يعقوب[١] وأنّ الله قد ندم وأسف، الى آخر هذه الترهات[٢]؛ فحريٌّ بالعقل السليم، صاحب الشخصية السليمة أن ينأى بنفسه عن هذه المراجع ويتباعد بوجهه عنها، ويحفظ عقله وطريقة تفكيره؛ فإنّ رفض هذه الترهات سهل، وتكمن المصيبة في الأخريات غير الواضحات، فإن أصابه منها شيء، فلا أقل من أن يصيبه شيء من سوء منهجية هذه الكتب، التي تختلف تماماً عن منهجية القرآن.

ثانياً: الاقتصار على موطن الاعتبار: لا يحيد القرآن بتفاصيل هامشية تبعد الهدف وتتشتت المقصد من القصة[٣]؛ وهذه شائبة نراها في كتب الإسرائيليات؛ من إغراق في التفاصيل الصارفة عن غايات القصة وأغراضها.

---

(١) المجموعة الكتابية، سفر التكوين ص ٣٥٠.

(٢) انظر كتاب د يوسف نصر الله، حين ترجم كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود، مطبعة المعارف، مصر، ١٨٩٩م. وهي فضائح وليست قواعد.

(٣) ارجع لمالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص١٩٧، وكيف عقد مقارنات بين قصة يوسف في القرآن وقصته في التوراة.

والاختصار في القصة القرآنية منهج وسنة سنها الله عز وجل في كتابه؛ فلا ينشغل العقل باسم أخ يوسف الأصغر، وأسماء إخوته الكبار، ولا بمكان اجتماعاتهم، وما شابه من هذه الطرق المتشعبة، ولا بأقوال وتفاصيل لا نفع فيها؛ فإن ركز القرآن على الحدث فالمقصود العبرة، وإن كان التركيز على الحوار فالمقصود الدعوة وفقهها، وإن ذُكر الشخص فالمقصود إبراز القدوة..

ثالثاً: اتساع رقعة الحدث: ليشمل عالم الغيب والشهادة، يمزج بينهما بأسلوب عجيب دقيق، ففي قصة مريم مثلاً، قال الله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾- وبصورة مفاجئة ومن عالم الشهادة، ينتقل المشهد إلى العالم الغيبي- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ - ثم يواصل في عالم الغيب- ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران: ٣٦ – ٣٧ عالمان ممتزجان ببعضهما البعض في جمالية لا تبارى ولا تماهى.

ومثلها قصة الجدار في سورة الكهف، وقصة حمل وولادة مريم في سورة مريم، وموسى والعبد الصالح، وزكريا وقصة طلب الولد. كل هذا وغيره من أسلوب القصة الفنيّ، يعمل في تشكيل المنهجية الصحية، التي يبني عليها المسلم شخصيته؛ لا بالمعلومة فقط بل بطريقة عرضها وطريقة أخذها[1].

الخاتمة والتوصيات

وفي ختام هذه الدراسة فقد تبيّن للباحث والقارئ مدى أهمية تدبر القرآن الكريم بشكل عام والقصص القرآني بشكل خاص، وأنّ دراسة القصة القرآنية لم تأخذ حظها كما ينبغي في الدراسات القرآنية من العبر والاتعاظ والادكار والتعقل والإيمان وغيرها من غايات القرآن من قصصه؛ وما كان للقصة في القرآن أن تأخذ هذه المساحة الواسعة إلا لخطورتها، وأهميتها في صياغة الشخصية وتشكيل وبناء معالمها وأبعادها.

ويرى الباحث أنّ دراسة القصة القرآنية دراسة سطحية ظلم للقرآن وظلم للناس؛ فالقصة القرآنية

(١) وهناك أساليب كثيرة اختصرها الباحث، ولعلها تبحث بشكل تفصيليّ أكبر، وأهمها التناسق بأنواعه في القصة القرآنية، وهو موضوع فيه جلال وجمال ونور وبرهان

كاشفة عن أغوار النفس، ومبينة عن مخبوءاتها وما استتر من معالم انتكاسها وعوامل ارتقائها وتزكيتها وبنائها.

وتبين للباحث مدى الالتصاق الصارم بين القصة القرآنية وطريقة عرضها؛ وأنّ القرآن حين يعرض القصة يعرضها بأسلوب فني متميز بميزات لا حياد عنها ولا تهاون في اعتبارها، وإلاّ انسقنا لأنسنتها، وحدنا عن مقاصدها وأغراضها، بل انحرف العقل والقلب عن أهدافها.

ويوصي الباحث بالدمج بين الدراسات النفسية والاجتماعية مع القصة القرآنية، والإفادة من التجارب البشرية، التي ضعها الله لنا على طبق من ذهب، لنحقق في النهاية توحيد الله وعبادته؛ فما كانت القصة القرآنية إلا لتحقيق ذلك، قال الله: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا۞ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ طه: ٩٨ - ٩٩، وإلا كان الفصام النكد بين الجهد البشري والهدي الرباني.

ويوصي الباحث بدراسات مستفيضة لكثير من المطالب في هذه الدراسة: مثل:

١) أنواع الشخصيات في القرآن
٢) التطور الأمثل في شخصيات الأنبياء - دراسة في ضوء القصص القرآني.
٣) التناسق بأنواعه في القصة القرآنية.

وفي النهاية أسأل الله أن يجعل هذا العمل حامياً لي من تبعات تقصيري أمام ربي، وأن يغفر لي ذنوبي وذنوب والديّ، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢) الإرهاب والتطرف من منظور علم الاجتماع، عبد الحميد رشوان، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٢.

٣) أساليب دراسة الشخصية، فيصل عباس، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠.

٤) الاستبداد السياسي والديني، علي عبد الرضا، مجلة النبأ، العدد٣٦، السنة الخامسة، ١٤٢٠هـ

٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الجكني الشنقيطي، ١٣٩٣ هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م.

٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد بن عطية الأندلسي تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ - ١٤٢٢ هـ.

٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد البيضاوي، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ ه.

٨) بناء الرواية، إدوين موير، ترجمة ابراهيم الصيرفي، ١٩٦٥ م، ١٣٨٦هـ.

٩) تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزَّبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

١٠) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١١) التسهيل لعلوم التنزيل، بن جزي الكلبي ت: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط١ ١٤١٦

١٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢ ١٤٢٠هـ.

١٣) التفسير الوسيط، محمد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١.

١٤) تفسير روح البيان، إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت.

١٥) التقليد الأعمى للآباء يلغي عقول الأجيال، إبراهيم البليهي، الأحد ١٦ صفر ١٤٣٩هـ.

١٦) تهذيب اللغة، محمد الأزهري، ت: محمد مرعب، إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢٠٠١.
١٧) جامع البيان، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.
١٨) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
١٩) خطيئة آدم في التوراة والإنجيل والقرآن، دراسة مقارنة، د. عماد الدين الشنطي، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية- المجلد العشرون- العدد الأول.
٢٠) دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، على جلبي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.
٢١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٢٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ
٢٣) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة.
٢٤) شادية التل، الشخصية: من منظور نفسي إسلامي، المنهل، ١ ذو الحجة ١٤٢٦ هـ
٢٥) الشخصية وعلم النفس الاجتماعي عثمان فراح، القاهرة: دار النهضة العربية.
٢٦) الشخصية: توجهاتها وحاجاتها في نظرية إيريش فروم، توفيق، إميل، مكتبة الأنجلو المصرية.
٢٧) شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية د. مُساعِدُ الطَّيَّار، دار ابن الجوزي، ط٢، ٤٢٨هـ.
٢٨) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٤٢٠هـ.
٢٩) علم الاجتماع الأدبي، حسين الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠.
٣٠) عناصر القصة في الشعر العباسي، منتصر الغضنفري، دار مجدلاوي، الأردن، ط١، ٢٠١١م.
٣١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
٣٢) فن كتابة القصة، حسن القباني، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٩٧م.
٣٣) فن كتابة القصة، فؤاد قنديل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، يونيو ٢٠٠٢.

٣٤) القدوة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع، د. عصام العبد زهد، الجامعة الإسلامية، مقدم للقاء الدعوي الأول بعنوان (الشخصية الدعوية المؤثرة). ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٣٥) القصص القُرْآني في منظومه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، بيروت، لبنان. (د. ت).

٣٦) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ١٤٣٠ – ٢٠٠٩.

٣٧) الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة د يوسف نصر الله، مطبعة المعارف، مصر، ١٨٩٩م.

٣٨) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١.

٣٩) لطائف الإشارات، تفسير القشيري، عبد الكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط ٣.

٤٠) المجموعة الكتابية، سفر التكوين، العهد القديم.

١٤) مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الرسالة، ط١، ١٤٢١.

٤٢) معالم التنزيل، أبو محمد البغوي، ت: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

٤٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٤٤) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ٣٩٩هـ.

٤٥) الموسوعة الفلسفية، روزنتال ويودين وآخرون، حرف الشين، شخص، ترجمة سمير كرم، مراجعة د صادق جلال العظم، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت. ط٢، ١٩٨٠.

٤٦) موقع الإسلام http: //www. islam-al .com

٤٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات ابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ

٤٨) وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد، فصلت للدراسات، حلب، ط١ ١٤٢٢هـ.

واقع الثقافة المقدسيّة للطلاب الفلسطينيين في لبنان

«دراسة ميدانيّة للمرحلتين المتوسّطة والثانويّة، مخيّمات شماليّ لبنان»

د. رمزي غالب كريّم[١]

الملخّص

هدفت الدراسة إلى التعرّف على واقع الثقافة المقدسيّة للطلاب الفلسطينيّين في لبنان للعام الدراسيّ ٢٠٢٢ /٢٠٢٣م، ومعرفة أثر مُتغيّر الجنس، والمرحلة الدراسيّة (المتوسّطة، الثانويّة). إضافة إلى بيان دور المؤسّسات الرسميّة والفصائليّة والمجتمعيّة الأهليّة الفلسطينيّة في الحفاظ على الثقافة المقدسيّة، والفرص والتحدّيات. اتّبعت الدراسة المنهج الوصفي من خلال دراسة ميدانيّة، استخدم الباحث فيها أداتين، هما: الاستبانة (تحليل إحصائيّ)؛ وتقنيّة المقابلة (تحليل نوعيّ)، وأعدت الاستبانة وفق مكوّنات الثقافة، وعُدّلت بعض فقراتها بما يتلاءم مع البيئة الفلسطينيّة في لبنان، ورأي المحكّمين المختصّين، حيث تكوّنت الأداة من (٣٠) سؤالًا لكلّ مرحلة دراسيّة، وطُبّقت على عيّنة قوامها (١٥٨) طالبًا وطالبة، تمّ اختيارهم عشوائيًّا من مدارس الأونروا في شماليّ لبنان (مخيمي البداوي ونهر البارد). وختامًا، مُعالجة البيانات إحصائيًّا باستخدام المتوسّطات الحسابيّة. وقدّم الباحث مجموعة من التوصيات تُعزّز الوعي والمعرفة في الثقافة المقدسيّة .

Abstract

The study aimed to identify the reality of Jerusalemite culture for Palestinian students in Lebanon for the academic year 2022/2023 AD, and to know the impact of the variable of gender and educational level (middle school, high school). In addition to explaining the role of the Palestinian official, factional, and community institutions in preserving Jerusalemite culture, and the opportunities and challenges.

The study followed the descriptive approach through a field study, in which the researcher used two tools: the questionnaire (statistical analysis); interview technique (qualitative analysis); The questionnaire was prepared according to the components of culture, and some of its paragraphs were modified to suit the Palestinian environment in Lebanon, and according to the opinion of the specialized arbitrators. The tool consisted of (30) questions for each grade level and was applied to a sample of (158) male and female students, who were randomly selected from UNRWA schools in Northern Lebanon (Beddawi and Nahr al-Bared camps). The data was processed statistically using arithmetic averages, and the researcher presented a set of recommendations that enhance awareness and knowledge of Jerusalemite culture.

(١) دكتوراه في التربية وعضو في رابطة علماء فلسطين، وهيئة علماء فلسطين، والمؤتمر الشعبيّ الفلسطينيّ.
تاريخ استلام البحث، ٣/١٠/٢٠٢٣م، وتاريخ قبوله للنشر، ٢٠/١١/٢٠٢٣م

المقدّمة:

القدس جزءٌ من عقيدتنا، فهي أُولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومحطّ الإسراء ومنطلق المعراج. وفي ظلّ السياسات الصهيونيّة المتّبعة في أسرلة مدينة القدس ومُقدّساتها، وصناعة ثقافة مُزيّفة، عمادها توراة وتلمود محرّف، ونصوص أشبه بحكايات الأساطير لا يقبلها حكيم أو صاحب منطق، خاطبوا بها العالم أجمع لإثبات أنّ فلسطين هي موطنهم وأرض أجدادهم، وأنّ شعب فلسطين هو شعب بلا أرض ولا هويّة، دخيل على أرض استوطنها بالقوّة والسيف.

إنّها معركة الوعي والثقافة، ومن أساليب العدو الصهيونيّ «تحريف المنهاج الفلسطينيّ في مدينة القدس المحتلّة وخارجها، في محاولة منه لفصل الأجيال الجديدة من الفلسطينيّين عن قضيّتهم وحضارتهم العربيّة الإسلاميّة»[١]. وتُعدّ معركة المنهاج الفلسطينيّ جزءًا من معركة السيادة التي يسعى الاحتلال من خلالها إلى تهويد مدينة القدس في الداخل الفلسطينيّ.

وفي بلاد تواجد الشتات الفلسطيني، عمد المحتل الصهيونيّ إلى ممارسة سياسة الضغط والتحريض على برلمان الاتحاد الأوروبّي من قبل معهد مراقبة السلام والتسامح الثقافيّ في التعليم المدرسيّ، وهي هيئة رقابة إسرائيليّة تُحلّل المناهج الدراسيّة الفلسطينيّة. وبتنسيق مع مجموعات الضغط الدوليّة المرتبطة بها، وبموجبها أصدر البرلمان الأوروبّي قانونًا في نيسان/أبريل ٢٠١٨، منع فيه تدريس محتوى الكراهية في الكُتب المدرسيّة الفلسطينيّة – وفق وصفهم، بالإضافة إلى إجراء إحدى المنظّمات غير الحكوميّة دراسة تقول بأنّ «الكُتب الفلسطينيّة أكثر تطرّفًا ممّا كانت عليه في الماضي، وحرّضت على الكراهية والسلام مع إسرائيل. مع أنّها تتجاهل التحريض الكبير الذي تتضمّنه المناهج «الإسرائيليّة» على الفلسطينيّين والعرب والمسلمين.

مع العلم أنّ الأونروا قد اتّخذت قرارًا في السياق نفسه بإيقاف تعليم مادتيْ تاريخ وجغرافيا فلسطين عن المناهج التربويّة في مدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين «الأونروا» في العام ٢٠٠٩م. وقالت الناطقة باسم الأونروا هدى الترك- في وقتها - إنّ «المنظمة تتّبع في مدارسها مناهج الدولة المضيفة في جميع أماكن عملها الخمسة (لبنان وسوريّا والأردنّ وغزّة والضفّة الغربيّة). والمحصّلة أنّ

(١) أسيل جندي: مقال بعنوان: المناهج المدرسيّة.. معركة أخرى مع إسرائيل بالقدس ٢٠١٤/٩/١م، انظر موقع: https://www.aljazeera.net/

تغييب المادّتين عن الطلاب الفلسطينيّين له انعكاس سلبيّ على الأجيال المتعاقبة في تعميق جهلهم بوطنهم.

ويرى الباحث جابر سليمان، أنّ «تعرّف التلاميذ الفلسطينيّين على جغرافيا فلسطين وتاريخها ليس مسألة أكاديميّة، إنّما يتعلّق بموضوع الهويّة الفلسطينيّة، بحيث تعمل هذه المناهج والمباحث الدراسيّة على توجيه الأنظار إلى هذه القضية الإسلاميّة العربيّة، وإلى القدس بشكل خاصّ لتعزيز الانتماء إليها، وتوعية النشء. وأنّ هذا القرار يتزامن مع انطلاق عمليّة السلام، إذ راحت تُسجّل دعوات للتطبيع من اجتثاث لهويّة شعب كامل من أرضه، وتجريده من تراثه وحضارته وثقافته»[١]. هذه المعركة الثقافيّة يتحمّل مسؤوليّتها منظّمة التحرير الفلسطينيّة والمرجعيّات السياسيّة الوطنيّة والإسلاميّة، والفلسطينيّون أنفسهم، ومن ثمّ المجتمع الأهليّ بكلّ مُكوّناته وتعدّد مسمّياته. وبرغم الجهود الذي بُذلت إلّا أنّ ثمّة «تشظّيًا في الهويّة الثقافيّة الفلسطينيّة، والمطلوب اليوم إعادة توحيد أو تشكيل الوجدان الثقافيّ الفلسطينيّ ووجدان الشعب الفلسطينيّ»[٢].

من هنا، تكمن أهمّيّة هذه الدراسة في تقييم الواقع الثقافيّ المقدسيّ لدى الطلاب، وتحديدًا اللاجئين في لبنان. ونظرًا للقرارت التي اتّخذتها «الأونروا» بمنع تعليم مادتيّ تاريخ وجغرافيا فلسطين في مدارسها في المخيّمات الفلسطينيّة، واعتماد منهاج التعليم الرسميّ اللبنانيّ، الذي يُعزّز الهويّة الوطنيّة اللبنانيّة، منذ أكثر من عشرين سنة، الأمر الذي له انعكاساته السلبيّة على ثقافتهم المقدسيّة.

مشكلة الدراسة

تتمحور مشكلة الدراسة في تقييم واقع الثقافة المقدسيّة للطلاب الفلسطينيّين في المراحل الدراسيّة: المتوسّطة، والثانويّة، في المخيّمات الفلسطينيّة في شماليّ لبنان، وتحديدًا في المدارس التابعة للأونروا، من خلال الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

ما مستوى الثقافة المقدسيّة للطلاب الفلسطينيين في المراحل الدراسيّة في مدارس الأونروا «شماليّ» لبنان؟

(١) انتصار الدنّان، مقال: «فلسطينيّو الشتات لا يدرسون تاريخهم»، ٢٠١٥/١/٢٢م، انظر موقع: https:// www.alaraby.co.uk

(٢) انتصار الدنّان، المرجع السابق، انظر موقع: https://www.alaraby.co.uk.

ويتفرعّ عن هذا السؤال الأسئلة الآتية:

١) ما مستوى الثقافة المقدسيّة للطلاب في المراحل الدراسيّة: المتوسطة، والثانويّة؟
٢) ما مستوى الثقافة المقدسيّة للطلاب: ذكورًا وإناثًا في كلّ مرحلة دراسيّة؟

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى التعرّف على واقع الثقافة المقدسيّة في المراحل الدراسيّة المتوسطة والثانويّة في مدارس الأونروا، وأثر المؤسّسات الرسميّة الفلسطينيّة الوطنيّة والإسلاميّة في تعزيز الثقافة والحفاظ عليها، كذلك أثر مؤسّسات المجتمع الأهليّ الفلسطينيّ في الحفاظ على الثقافة وتعزيزها، ومعرفة إن كان هناك فروقًا ذات دلالة إحصائيّة في اتّجاهات الطلبة نحو القدس تعزى لكلٍّ من متغيّري (الجنس، ومستوى المراحل الدراسيّة).

أهمّيّة الدراسة

تستمدّ الدراسة الحاليّة أهمّيّتها من أهمّيّة الموضوع الذي يرتكز على تقييم الواقع الثقافيّ، وبيان جهود المؤسّسات الفلسطينيّة الرسميّة والمجتمعيّة في تعزيز الثقافة المقدسيّة، وبيان دور المؤسّسات الأهليّة بتنوّعها في تعزيز الثقافة المقدسيّة، وتحقيق الآتي:

١) توصيف علميّ أكاديميّ لمستوى الثقافة المقدسيّة للطلبة الفلسطينيّين في مدارس الأونروا شماليّ لبنان.
٢) البناء على النتائج لوضع تصوّر وخطّة عمل وحلول ناجعة، تكون بدايتها مع إدارة الأونروا، والضغط عليها لتعديل قرارها من خلال طرق سلميّة، وإعادة تعليم مادتي تاريخ وجغرافيا فلسطين؛ لأهمّيّتهما الثقافيّة.
٣) تسليم نتائج البحث لاتّحاد معلّمي الأونروا الفلسطينيّ، والطلب منهم اعتبار تضمين منهاج تعليم مادتي التاريخ والجغرافيا لفلسطين بأنّها قضيّة رأي عامّ للاجئين الفلسطينيّين في لبنان.
٤) تثمين جهود المؤسّسات الرسميّة والفصائليّة الفلسطينيّة الثقافيّة على جهودها، ودعوتها للتكامل والتعاون مع باقي مؤسّسات المجتمع الأهليّ الفلسطينيّ لإيجاد إطار ثقافيّ فلسطينيّ جامع

يركّز على تحقيق أهداف ثقافيّة، ونبذ الفرقة.

٥) تسليط الضوء على أهمّيّة القضيّة الفلسطينيّة بشكل عامّ، ومكانة القدس بشكل خاصّ، مع التأكيد على أنّ هذه القضيّة ليست خاصّة بالشعب الفلسطينيّ فقط، وإنّما هي قضيّة عربيّة إسلاميّة.

٦) فتح المجال أمام الباحثين لإجراء المزيد من الدراسات التي تعنى بالمقدّسات الإسلاميّة، والإرث العربيّ الإسلاميّ.

٧) قلّة توافر الدراسات السابقة التي تعالج موضوع الثقافة المقدسيّة وتعزيزها. ويأمل الباحث أن تُحقّق هذه الدراسة إضافة علميّة جديدة؛ وتفتح المجال أمام الباحثين لإجراء دراسات علميّة جديدة حول الموضوع.

حدود الدراسة

١) تقتصر الدراسة على التعرف إلى واقع الثقافة المقدسيّة للطلاب الفلسطينيين في شماليّ لبنان، وأثر المؤسّسات الفلسطينيّة الرسميّة والأهليّة في تعزيزها.

١) الحدود المكانيّة: اقتصرت الدراسة على طلّاب مدارس الأونروا في شماليّ لبنان (مخيّم نهر البارد، ومخيّم البداوي) للمراحل الدراسيّة: المتوسّطة والثانويّة.

١) الحدود الزمانيّة: تطبيق الاستبانة في العام الدراسيّ ٢٠٢٢/٢٠٢٣.

١) اقتصرت عيّنة الدراسة على (١٥٨) طالبًا وطالبة.

١) نتائج الدراسة محدودة بظروف التطبيق والتحليل.

مصطلحات الدراسة

الثَّقافة في اللُّغة: الحذق والفطانة [١]. **واصْطِلَاحًا:** «كلّ مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيّات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوًا في مجتمع»[٢]. وتعرّف أيضًا بأنّها «مجموع المعارف والخبرات والتصورات الموروثة غير المدونة، وما يتصل بها من عادات وتقاليد وتعبيرات فنيّة (محكية، وحركية، وموسيقية، ودرامية

(١) محمّد بن أحمد الأزهريّ الهرويّ، أبومنصور(٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمّد مرعب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ج٩، ص: ٨١.

(٢) John Murray: «Primitive Culture «، London، ١٨٧١

وتشكيلية) تعكس أساليب المعيشة، وقواعد العمل والسلوك والآداب والأخلاق الاجتماعية القديمة للشعوب والأمم، في بيئاتها البدويّة والحضريّة والريفيّة»[١] .

الثقافة الفلسطينية: الحفاظ على الحقّ التاريخيّ للشعب الفلسطينيّ في أرضه عبر تاريخ مُمتدّ لقرون من الحقبات، وحماية ذاكرته وهويّته الوطنيّة والعربيّة والإسلاميّة، والتمسّك بالمقدّسات، وصون تراثه الوطنيّ من التزوير، وتحفيز المبدعين في قطاعات الأدب والفنّ والمعرفة على مواصلة مقاومة تزييف المحتلّ للحقائق، حتّى تظلّ فلسطين حاضرة ولا تغيب عن ذاكرة الأجيال.

الثقافة المقدسيّة: «الحياة المشتركة التي يعيشها السكّان الواقعون والمصنّفون ضمن مدينة القدس وقراها وبلداتها، بأصالتهم وتاريخهم الممتدّ لقرون خلت، امتزجت مع أمم وحضارات، وتركت ثراء وتنوّعًا على الجوانب كافّة: العمرانيّة، والقيميّة، والحرفيّة، والفنيّة... مع إصرار على التمسّك بالحقوق، والحفاظ على الهويّة واللغة والتراث والعمران والتاريخ من التحريف والتزوير والسرقة من المحتلّ وضدّ مشروعه في الأسرلة للمدينة المقدّسة».

عمليّة القياس والتقييم: «الاستبيانات، والملاحظة، أو دراسة الحالة، أو التقارير الذاتيّة، أو السجلّات المجمعيّة»[٢].

منهج الدراسة

استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفيّ التحليليّ، للتعرّف على واقع الثقافة المقدسيّة للطلاب الفلسطينيّين في لبنان، للمراحل الدراسيّة في المراحل الدراسيّة، واستخدم الباحث أداتين هما: الاستبانة (تحليل إحصائيّ)؛ لمعرفة مستوى الطلبة المعرفيّ والثقافيّ في مضامين الثقافة المقدسيّة، وأعدّت وفق مكوّنات الثّقافة[٣]، وقد تمّ التعديل عليها وتطوير بعض فقراتها بما يتلاءم مع

(١) تقرير التنمية الإنسانيّة العربيّة للعام ٢٠٠٣ (نحو إقامة مجتمع المعرفة)، برنامج الأمم المتّحدة الإنمائيّ، الصندوق العربيّ للإنماء الاقتصاديّ والاجتماعيّ: عمّان، أبريل ٢٠٠٤، ص ١٢٦.

(٢) محمّد السيّد محمّد مرزوق: دليل المعلّم إلى صياغة الأهداف التعليميّة السلوكيّة والمهارات التدريسيّة، دار ابن الجوزي، ١٤١٦هـ، ص: ١٣٢.

(٣) اعتمد الباحث في إعداد الاستبانة على كتاب:«المعالم في مدينة: القدس كما لم تعرفها من قبل»، تأليف: وحدة تطوير المحتوى العلميّ في ملتقى القدس الثقافي، تقديم: أ.د. عماد خليل، عمّان، ط١، ٢٠١٨. إضافة إلى وكالة وفا الفلسطينيّة، والمواقع والمنصّات الفلسطينيّة المهتمّة بشؤون مدينة القدس.

البيئة الفلسطينيّة في لبنان، ووفق رأي المُحكّمين المختصّين، حيث تكوّنت الأداة من (٣٠) سؤالًا لكلّ مرحلة دراسيّة، وطبّقت على عيّنة قوامها (١٥٨) طالبًا وطالبة، تمّ اختيارهم عشوائيًّا من طلّاب وطالبات المدارس التابعة لوكالة الغوث الدوليّة الأونروا في شماليّ لبنان (مخيّمي البداوي ونهر البارد). كما استخدم الباحث تقنيّة المقابلة (تحليل نوعيّ)؛ لمعرفة الواقع والجهود المبذولة من مؤسّسات المجتمع الفلسطينيّ الأهليّ. ومعالجة البيانات إحصائيًّا باستخدام المتوسّطات الحسابيّة والنسب المئويّة.

مجتمع الدراسة

تكوّن مجتمع الدراسة من الطلاب والطالبات في مدارس الأونروا، للفصل الدراسيّ الأوّل (٢٠٢٢/٢٠٢٣)، والبالغ عددهم (١٥٨) طالبًا وطالبة، موزّعين على مخيّمات الشمال اللبنانيّ للاجئين الفلسطينيّين في لبنان (مخيم نهر البارد، ومخيم البداوي).

عيّنة الدراسة

تكونت عيّنة الدراسة من (١٥٨) طالبًا وطالبة في مدارس الأونروا في شماليّ لبنان، حيث تمّ اختيار أفراد عيّنة الدراسة بالطريقة العشوائيّة البسيطة، ونتائج الدراسة توضّح أفراد عيّنة الدراسة حسب المرحلة الدراسيّة، وتبعًا لمتغيّر الجنس.

الدراسات السابقة

أمّا الدراسات التي تناولت واقع الثقافة المقدسيّة، فقد تبيّن أن هناك العديد من الدراسات، وهي:

أ) دراسة عليّان وعيسى (٢٠٠٨)، فقد هدفت إلى معرفة وعي الشباب الفلسطينيّ بمكانة القدس وواجبهم تجاهها، واستخدمت الدراسة المنهج الوصفيّ، حيث تمّ تصميم اختبار الوعي واستبانة تحديد الواجبات تجاه القدس. وأشارت الدراسة إلى دور مؤسّسات التعليم في تعزيز الهويّة الوطنيّة والدور المنوط بها بدءًا من الأسرة التي تعدّ المؤسّسة الأولى في بنائها.

ب) دراسة حمّاد (٢٠٠٩)، فقد سعت إلى معرفة واقع حضور القدس في المنهاج الفلسطينيّ الجديد، والمباحث التي يمكن إثراؤها بحضور القدس، كما هدفت إلى إيجاد منهجيّة موحّدة لتعزيز

حضور القدس في المناهج، وقد كشفت نتائج الدراسة أنّ المادّة المتعلّقة بالقدس قد شغلت نسبة عالية في الكتب المدرسيّة.

ج) دراسة عيسى وأبو ربيع (٢٠٠٩)، ودراسة المدنيّ (٢٠٠٩)، التي أكّدت على ضرورة احتواء المناهج الدراسيّة على معلومات ومعارف تبيّن مكانة القدس والقضيّة الفلسطينيّة، وحثّ القائمين على المناهج التربويّة على ضرورة تعزيز المناهج الدراسيّة بالموضوعات الخاصّة بالتعريف عن القدس والقضيّة الفلسطينيّة.

يلاحظ أنّ الدراسات السّابقة اتّبعت الأسلوب التاريخيّ والأسلوب التحليليّ وتحليل المحتوى، بالإضافة إلى بعض المقاييس الإحصائيّة لتحديد الاتّجاهات والواجبات.

وتختلف هذه الدراسة عن الدراسات السابقة بأنّها تناولت واقع القضيّة الفلسطينيّة عمومًا، واتّجاهات الطلبة نحو القدس، وفي حدود اطّلاع الدراس أنّه لا يوجد دراسات أجريت لمعرفة مستوى الثقافة المقدسيّة وواقعها عند الطلبة الفلسطينيّين في لبنان.

صعوبات الدراسة

إنّ الصعوبات تجلّت في الافتقار إلى المراجع، فالباحث لم يَجد أيّ مرجع يَتناول دراسة واقع الثقافة المقدسيّة للفلسطينيين في لبنان، بل لم يَجد أثرًا لدراسة تُقيّم الثقافة المقدسيّة خصوصًا للاجئين الفلسطينيّين في لبنان، ولا دراسة بحثيّة تُحصي المؤسّسات الفلسطينيّة المجتمعيّة الأهليّة الثقافيّة، وبرامج أعمالها وسياستها، ممّا جعل الخوض في البحث ليس بالأمر اليسير.

أقسام الدراسة: الدراسة تتكوّن من ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: الثقافة المقدسيّة: المفهوم، الواقع، التحدّيات.

المبحث الثّاني: واقع الثقافة المقدسيّة في لبنان.

المبحث الثّالث: الدراسة الميدانيّة ونتائجها.

الخاتمة: واشتملت على النتائج والتوصيات

المقدمة

تعدّ الثقافة المقدسيّة منهجًا مُقاومًا ضدّ الاحتلال الصهيونيّ، وأداة فاعلة في الحفاظ على الهويّة، بل هي أمل مُتجدّد في معركة الحقّ والباطل، وعنوان تحدٍّ ضدّ غطرسة المحتلّ، في صراع الوعي والمعرفة، مع محتلّ تاه شعبه في ربوع الأرض بضلاله، فجمع شتاته في الأرض المباركة المقدّسة، ينشُد حلمه المزعوم المحرّف، من شعب التيه والضياع إلى شعب الله المختار. فعمل على طمس الحقائق وتزييفها، وتزوير التاريخ والتراث؛ لإثبات انتمائه وحقّه الدينيّ والتاريخيّ المزعوم في مدينة القدس، وحرمها الشريف.

المبحث الأوّل: الثقافة المقدسيّة: المفهوم والواقع والتحدّيات:

تتشكّل الثقافة من خلال تفاعل الأفراد مع بيئتهم وتاريخهم وعقيدتهم، وتجاربهم وتكوينهم والاجتماعيّ والتراثيّ، برغم اختلافها وتنوّعها، وتُعدّ «نمط الحياة الكليّ لمجتمع ما، والعلاقات التي تربط بين أفراده، وتوجّهات الأفراد في حياتهم»[١] .

أوّلًا: الإطار النظريّ والمفاهيميّ

تتناقل الشعوب المعارف والقيم والتقاليد من جيل إلى جيل، وتُحقق التواصل بين أفراده. فما تعريف الثقافة لغة، واصطلاحا؟ وما دورها وخصائصها في حياة الشعوب وأهميّتها؟

١. الثَّقَافَةُ لُغَةً:

الثَّقافة في اللُّغة مأخوذة من الفعل الثلاثي «ثقف»(بضمِّ القاف وكسرها وفي تهذيب اللغة، يُقال: ثقف الشئ أي: صار ثقفًا مثل تعب تعبًا أي: صار حاذقًا فطنًا [٢] فالثَّقافة في اللُّغة هي: الفهم، وسرعة التَّعلم، وضبط المعرفة المكتسبة في مهارة وحذق وفطنة وقال الله تعالى:﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧].

(١) عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٦م، ص:١٠.

(٢) محمّد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبومنصور(٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ج٩، ص: ٨١.

٢. الثَّقَافَةُ اصْطِلَاحًا:

حاول علماء الاجتماع تعريف مفهوم الثقافة، وتعذّر اعتماد «تعريف وحيد للثقافة نظرًا لخلاف التعريفات العموميّة على غرار المجال الاجتماعيّ الذي يتمّ فيه إنتاج المعاني المشتركة»[١]. وقد وردت «الثقافة» مرتين أو ثلاثًا في مقدّمة العالم «ابن خلدون»[٢]. لكنّ المفكّر مالك بن نبيّ (ت١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) له رأي عبّر عنه بقوله: «بأنّ الكلمة وردت مرّتين أو ثلاثًا في المقدّمة بصورة أدبيّة بوصفها مفردة لُغويّة دون الوقوف عند كلمة «ثقافة» بوصفها مفهومًا، وتقديرها ظاهرة اجتماعيّة»[٣].

ولعلّ أقدم التعريفات هو تعريف إدوارد تايلور الذي قدّمه في أواخر القرن التاسع عشر في كتابه عن «الثقافة البدائيّة»، والذي يذهب فيه إلى أنّ الثقافة، هي: «كلّ مركّب يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيّات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوًا في مجتمع»[٤].

ومن أحدث التعريفات للثقافة ما ورد في تقرير التنمية الإنسانيّة الصادر عن منظّمة اليونسكو في العام ٢٠٠٣ بأنّها: «مجموع المعارف والخبرات والتصوّرات الموروثة غير المدوّنة، وما يتّصل بها من عادات وتقاليد وتعبيرات فنيّة (محكيّة، وحركيّة، وموسيقيّة، ودراميّة، وتشكيليّة) تعكس أساليب المعيشة، وقواعد العمل والسلوك والآداب والأخلاق الاجتماعيّة القديمة للشعوب والأمم، في بيئاتها البدويّة والحضريّة والريفيّة»[٥].

---

(١) جون سكوت: علم الاجتماع، المفاهيم الأساسيّة، ترجمة: محمّد عثمان، الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٣م، ص:١٤١.

(٢) عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون: مقدّمة ابن خلدون. ت: عبد الله محمد الدويش. دار البلخي ــ دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م، ١/٣٣٦.

(٣) مالك بن نبيّ: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين. دار الفكر- دمشق، ط٤، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، ص٢٠.

(٤) . John Murray E.B Tulor: London ,primitive Cultutre، ١٩٢٤، p: ١.

(٥) تقرير التنمية الإنسانيّة العربيّة للعام ٢٠٠٣ (نحو إقامة مجتمع المعرفة) برنامج الأمم المتّحدة الإنمائيّ، الصندوق العربيّ للإنماء الاقتصاديّ والاجتماعيّ: عمّان، أبريل ٢٠٠٤ ص ١٢٦.

٣. خصائص الثقافة:

للثقافة عدد من الخصائص التى تميّزها عن غيرها «وتختلف تبعًا لخصوصيّات الأمم والشعوب، إذ نجد ثقافة تتطابق مع الوطن والأمّة، وتجتمع الثقافة في عدّة أوطان كما الحال في الوطن العربيّ المنتمي للحضارة العربيّة والإسلاميّة، ونجدها في الوطن الواحد الذي يجمع ثقافات مختلفة من المعتقدات واللغات والأعراق»[١]. ومن أبرز خصائصها[٢]:

- خاصّيّة إنسانيّة، وهي من صنع الإنسان وحده، ولإشباع حاجات الإنسان.
- مكتسبة، يتمّ اكتسابها عن طريق التفاعل مع الأفراد المحيطين إضافةً للتعلّم.
- قابليّتها للانتشار والانتقال، وذلك عن طريق التعليم واللغة ووسائل الاتصال الحديثة.
- متغيّرةً بشكل دائم وسريع؛ حيث إنّ أيّ تغيّر على عنصرٍ معين له تأثيرٌ على العناصر الأخرى.
- تكامليّة تنبؤيّة تراكميّة؛ لديها القدرة على إشباع حاجات الإنسان وتنتقل من جيلٍ إلى آخر.

٤. أهمّيّة الثقافة:

تكمن أهمّيّة الثقافة في تحقيق الآتي[٣]:

١) تشكيل المجتمع: تُعدّ الثقافة عاملًا أساسيًّا لبناء المجتمع وتنميته، حيث تُحدّد كيفيّة تَجاوب أفراده مع بعضهم.

٢) تحقيق الانتماء: تمنح الثقافة الفرد شعورًا بالانتماء لمجتمعه، ولا سِيّما إذا كان أفرادها يتحدّثون اللغة ذاتها.

٣) الشعور بالأمان: تُوفّر الثقافة الاستقرار لأفراد المجتمع ممّا يُعزّز لديهم الشعور بالأمن والأمان.

٤) فهم العادات الاجتماعيّة: «تُسهم الثقافة بشكل كبير في منح الفرد القدرة على فهم المواقف الاجتماعيّة»[٤].

---

(١) هارلمبس، وهولبورن: سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ص:٢.

(٢) Culture: The Meaning, Characteristics, and Functions", http://www.yourarti-clelibrary.com,"

(٣) family. ،"Sally Painter, "Why Is Culture Important? Impact on People & Society lovetoknow.com

(٤) ٢٠٢٠-٠٤-٠٦ ,Why Is Culture so Important to Society?", www.reference.com" ،

ثانيًا: مفهوم الثقافة الوطنيّة الفلسطينيّة وتحدّياتها:

كيف نُعرّف الثقافة الفلسطينية؟ وكذلك الثقافة المقدسيّة؟ وما مُحدّداتها وخصائصها؟ ووفق أيّ مقاربة يُمكن تعريفها؟

للثقافة الفلسطينيّة مفهومها وخصائصها فرضها واقع الاحتلال ومحاولته تزييف التاريخ والتراث والحقائق.

1. تعريف الثقافة الفلسطينيّة:

تعريف الثقافة الفلسطينيّة مرتبط بالتحديات التي فرضها المحتل الصهيوني، ويمكن تعريفها بأنّها: «المحافظة على الحقّ التاريخيّ للشعب الفلسطينيّ في أرضه عبر تاريخ مُمتدّ لقرون، وحماية ذاكرته وهويّته، والتمسّك بالمقدّسات، وصون تراثه الوطنيّ من التزوير، وتحفيز المبدعين في قطاعات الأدب والفنّ على مواصلة مقاومة تزييف المحتلّ للحقائق، حتى تظلّ فلسطين حاضرة ولا تغيب عن ذاكرة الأجيال»[١]. وبرغم التنوّع المجتمعيّ والسياسيّ الفصائليّ الفلسطينيّ، إلا أنّ «الثقافة الوطنيّة تجمع ولاتفرّق، وتوحّد الناس على حبّ بلدهم، وتعزّز الانتماء، والعمل لرفعتها ضرورة ؛ لأنّ رفعتها هو رفعة لكلّ إنسان في المجتمع»[٢].

2. خصائص الثقافة الفلسطينيّة :

«تشمل عناصر مختلفة، وتجمع بين أنماط حياة مميّزة وبين الفنون والثقافة التي تميّزت بها. كما أنّها تتعلّق بالتراث والعمارة والتاريخ والأدب والشعر والقصّة والرواية، والموسيقى والرقص والمسرح والفنون التشكيليّة والفلكلور، واللّغة والسلوك والقيم والأخلاق، والتي تمّ استخدامها كسلاح وإستراتيجيّة دفاع عن الوجود، ولتعزيز المقاومة ضدّ كلّ أشكال الاضطهاد التي تمارس بحقّنا كشعب»[٣]. ومن

(١) اجتهد الباحث في صياغة التعريف بناء على المفهوم الاصطلاحيّ للثقافة وخصوصيّة الثقافة القلسطينيّة وظروفها.

(٢) حنّا عيسى: «الشعب الفلسطيني ... أكثر الشعوب ثقافة وطنيّة»، مقال في موقع: https://www.amad.ps/post/ar/١٦٥٥٥٨.

(٣) رانية إلياس: «دور الثقافة في حماية الهويّة وتعزيز المقاومة والصمود»، مقال في مجلّة: المركز الفلسطينيّ لمصادرة حقوق المواطنة: «بديل»، https://www.badil.org/

أبرز خصائصها: مواجهة المشروع الصهيوني، والحفاظ على الهويّة والتراث، والتمسّك بالثوابت والمقدّسات.

3. بدايات الثقافة الفلسطينيّة تاريخيًّا

الثقافة الفلسطينيّة جزء لايتجزّأ من هويّة الشعب الفلسطينيّ على مرّ التاريخ، وقد بدأ ظهور «المجلّات الثقافيّة في فلسطين في العام ١٩٠٥؛ حيث الاهتمام بنشر كتابات المثقّفين الفلسطينيّين في الأراضي المحتلّة وفي الشتات، إضافة إلى ما ينتجه الكثير من المثقّفين وكبار الكتّاب والشعراء والأدباء العرب المناصرين للقضيّة الفلسطينيّة»[١].

ومن أبرز الإسهامات في هذا المجال[٢]:

أ) إصدار المجلّات والصحف الثقافيّة لفلسطين الشرقيّة (١٩٢٠-١٩٤٨) تتحدّث عن كنعان الفلسطينيّة. من أبرزها قديمًا: مجلّة «الكرمل»، وصحيفة «القدس»، ومجلّة «النفائس»، والملحق الأدبيّ في جريدة فلسطين، والفجر الأسبوعيّ، والاتّحاد، والحقوق، وصوت العروبة، وغيرها الكثير .

ب) عكف الكثير من الأدباء والمثقّفين والكتّاب على إصدار بعض الملاحق والمجلّات والصحف التي تعنى بالثقافة الفلسطينيّة، وذلك في بلاد المهجر، محاولين التواصل الثقافيّ مع أبناء وطنهم الذي هجّرهم الاحتلال إلى الدول العربية المجاورة، ومن أهم هذه المجلات جريدة «غزة» التي كانت توزع في الأردنّ ومصر والسعوديّة.

ج) الثقافة الفلسطينية هي الأوثق صلة مع تلك الثقافات الشرقيّة القريبة، وبالأخصّ بلدان العالم العربي.

د) مستويات التعليم بين الفلسطينيّين عالية بشكل كبير في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

4. تحدّيات الثقافة الفلسطينيّة:

بُنيت الرواية الصهيونيّة على تزوير التاريخ، وإبراز اليهود كشعب له ثقافته الجامعة، في مقابل

(١) https:www.amad.org/ar/post/
(٢) https://www.marefa.org/

إنكارهم وجود مقوّمات للفلسطينيين كشعب، وإظهارهم كبشر بلا ثقافة، أو حضارة وتاريخ. وتوافقت آراء عدد من الكتّاب والمثقفين الفلسطينيين على وجود قصور على الصعيد الثقافي في مواجهة الصهيونية، ومن أسباب الخلل وسبل المواجهة والتغيير الآتي[١] :

أ) غياب إطار إستراتيجي يوحّد الرؤية الثقافية الفلسطينية، والمرجعية المؤسّساتية الثقافية الجامعة بمختلف تلويناتها، الرسميّة والأهليّة والمبادرات الفرديّة، وعدم المقدرة على التعبير عن الفلسطيني الذي يسكنُ في مخيّمات اللجوء والشتات،كما الذي يسكنُ في الضفة والقطاع، مثل الذي يسكن في حيفا وأراضي ال ٤٨، أو من يسكن في مدينة القدس.

ب) اتفاقية أوسلو والتي نتج عنها ثقافيًّا «الارتباط لا بالمكان الفلسطينيّ، بل بالمكان الذي أتاحته الاتفاقية، في وقت كانت دائمًا مرتبطة بالأمكنة الفلسطينية، والأمكنة تعني الفلسطينيين، حيث تواجدوا، وذلك كلّه يحيل إلى فلسطين-الفكرة وليس فلسطين-الدولة»[٢]. فأصبحت بذلك مدينة القدس الإسلامية العربية الفلسطينيّة في ثقافة أوسلو مقسّمة إلى قدس شرقيّة عربية، وقدس غربيّة كحقّ تاريخيّ دينيّ صهيونيّ.

ج) ثقافة المقاومة، واعتبارها أساس الاستقلال والحرّيّة «كونها ثقافة مرنة تستوعب المتغيّرات».

د) غياب الموقف الفلسطينيّ والعربيّ والإسلاميّ المساند للمثقّفين والمنظّمات المناصرة للشعب الفلسطينيّ.

هـ) استمرار الهوّة بين المثقّف والسياسيّ ضعّف التنسيق بين الشركاء العاملين في الشأن الثقافي.

و) ضعف البنية التحتيّة المترابطة المتمثّلة في قلّة عدد المراكز الثقافية المؤثّرة في المخيّمات الفلسطينية في لبنان. وضعف تجهيزاتها (المسارح ودور السينما ودور النشر وأماكن التدريب وأماكن العرض).

ز) ضيق القاعدة الجماهيريّة للأنشطة الثقافية والفنية المتخصصة؛ نظرًا لواقع اللجوء والأزمات الثقافيّة.

---

(١) مخرجات النندوة الثقافيّة، بعنوان: «ثقافتنا في مواجهة الصهيوني» التي عقدت بجامعة الخليل، جنوب الضفة الغربية، ضمن فعاليّات يوم الثقافة الوطنيّة، بتاريخ: ٢٢-٣-٢٠١٢. انظر الموقع: https://www.net.aljazeera/culture/.

(٢) مقال بعنوان: «الثقافة في فلسطين أم الثّقافة الفلسطينيّة»، انظر الموقع: https://rommanmag.com/posts/view/٢٠١٦-١٢-٢٠.

ح) غياب الدراسات المتخصصة والقراءات العميقة في الواقع الثقافي الفلسطيني في الوطن وفي الشتات.

ط) النقص الحادّ في الكوادر البشريّة المتخصصة والمؤهّلة والمدرّبة للعمل في الحقول الثقافيّة وإدارتها .

ي) حالة الإحباط العامّ والجمود السياسيّ المربكة للحياة الاجتماعية في فلسطين التي تضعف الاهتمام العام بالقضايا الاجتماعية وبالثقافة الجادّة.

ك) تواضع مكانة المرأة ومساهمتها في صناعة الثقافة، ونمطية مشاركتها على صعيد الحرف والتراث.

5. الدور العربي والإسلاميّ الرسمي في مواجهات التحدّيات الثقافية المقدسيّة:

«فلسطين لم تأت هنا لكي تطلب مالًا لحماية المشهد الثقافي المقدسي؛ وإنّما نُطالب الأشقّاء العرب بدعم معنويّ وبقوّة واقتدار إلى جانبها في مواجهة الاحتلال، وأن تكون القدس عاصمة دائمة للثقافة العربية»[1] ومظلّة للمؤسّسات الثقافية المقدسية.

بهذه العبارة نختصر الدور المطلوب عربيًّا وإسلاميًّا لدعم الثقافة الفلسطينيّة عمومًا والمقدسيّة خصوصًا، والانتقال من واقع التوصيات والمقرّرات إلى ميادين العمل والتنفيذ الفعليّ. وبرغم الجهود التي تُبذل عربيًّا (مواقف، تصريحات، بيانات استنكار، شكوى لهيئة الأمم المتحدة، ومنظّمة مؤتمر العالم الإسلامي، مؤتمرات، اجتماعات ...) إلا أنّها لا توازي ما يبذله العدوّ الصهيونيّ من تعزيز ثقافته اليهوديّة العنصريّة في مدينة القدس وبصمت دوليّ ودعم غربيّ ومن دول التطبيع العربيّ.

وأقتصر في عرض توصيات ملتقى وزارة الثقافة مع «الألكسو» في الدار البيضاء بعنوان: صياغة رؤى للعمل الثقافيّ العربي (خلال الفترة ٢٨-٣٠ تشرين الثاني، ٢٠١٧)، بعد أن قُدمت ورقة بحث

(١) ملتقى وزارة الثقافة مع «الألكسو»، الدار البيضاء، المملكة المغربية، بعنوان: صياغة رؤى للعمل الثقافي العربي (خلال الفترة ٢٨-٣٠ تشرين الثاني، ٢٠١٧).وقد مثّل دولة فلسطين في هذا الملتقى السيّد «جاد عزّت الغزّاوي» مستشار وزير الثقافة للشؤون العربية والإسلاميّة وقتها، وقدّم ورقة بعنوان: «آفاق العمل الثقافيّ العربيّ للحفاظ على الطابع العربي والإسلاميّ للقدس».

استُعرض فيها المشهد الثقافي المقدسيّ، وحقيقة الأمر أنّ التوصيات لو نُفّذت لتغيّر المشهد للثقافة المقدسيّة، وهي وفق الآتي:

أ) اعتبار كلّ ما يُوجد في القدس ثروة ثقافيّة قوميّة، تخصّ الأمّتين العربية والإسلاميّة، وحثّ المنظّمات والمؤسّسات الدولية المختلفة، مثل اليونسكو وغيرها، لحماية هذا الموروث، ومنع الاعتداء عليه.

ب) ضرورة الرّصد، سنويًا، لمكوّنات المشهد الثقافيّ المقدسيّ التي يتمّ المساس بها؛ بمصادرتها و/أو تهويدها من قبل سلطات الاحتلال، وتطوير آليّات المتابعة لما يجري في القدس، عبر شبكة اتّصال وتواصل إعلاميّ عربي؛ لكي تُبقي على كلّ ما يجري في القدس تحت الضوء.

ج) مُواجهة التّهويد العمراني؛ بترميم المباني القديمة، ومتابعة أيّ مبنى مُهمل، وتأهيله للاستخدام من قبل المقدسيّين. والعمل على حصر الوقفيّات في القدس، وتوثيقها وتسجيلها ومتابعتها.

د) د.إعادة كتابة «تاريخ القدس»، بموضوعيّة ومنهجيّة علمية دقيقة، بعدّة لغات، للتصدّي للادّعاءات الإسرائيليّة، وإعادة طباعة الكتب «القيّمة»، ذات الصلة بالقدس ومشهدها الثقافي؛ بأبعاده المتعدّدة.

هـ) المحافظة على ما تبقّى من المخطوطات المقدسيّة؛ بترميمها وحفظها، باعتبارها من أبرز الشواهد على عروبة القدس، لا سيّما وأنّ غالبيّتها موجودة في ظروف سيّئة من حيث الحفظ.

و) ط.تطوير برامج أكاديميّة في الجامعات العربيّة، على مستوى الماجستير والدكتوراه، للدّراسات المقدسيّة، وغير ذلك من المشاريع البحثية العلميّة، التي تتناول موضوع القدس.

ز) إطلاق موقع إلكتروني بعدّة لغات وإتاحته للباحثين والمهتمين بالشأن الثقافي في القدس والأراضي العربية المحتلّة.

ح) إطلاق مشاريع وأنشطة عربيّة وإسلاميّة مشتركة لفائدة القدس والتراث العربيّ الإسلاميّ بها، تزامنًا مع الاحتفاء بالقدس عاصمة للثقافة الإسلاميّة لعام ٢٠١٩، وإعلان ٢٠١٩ سنة للتراث في العالم الإسلاميّ.

وعليه؛ فإنّ قراءة مُعمّقة للتوصيات المذكورة أعلاه، توضّح حجم المسؤوليّات الكبرى المُلقاة على كاهل الأمّة العربية والإسلامية، «وما للتراث المقدسيّ من أهميّة، واعتبار المخزون الثقافي والحضاري والتراثي في القدس ملك الأمتين العربية والإسلامية، بل ملك الإنسانية جمعاء؛ لأنّ التراكم

الحضاريّ في القدس على مدى يتجاوز العشرة آلاف عام، شمل غالبيّة أمم الأرض، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر»[١].

ثالثًا: مفهوم الثقافة المقدسيّة وتحدّياتها:

يواجه المثقّفون الفلسطينيّون تحدّيات كبيرة في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ، ويبرز صراع الهويّة الثقافيّة للمقدسيّين مع المحتلّ. ويحاول القائمون على المراكز الثقافيّة في القدس مواجهة تحدّيات «الأسرلة» والتهويد وذوبان الهويّة بكلّ الإمكانات المتاحة لديهم

1. مفهوم الثقافة المقدسيّة:

الثقافة المقدسيّة جزء من الثقافة الفلسطينيّة وليست نقيضًا لها، والمقصود بالثقافة المقدسيّة: الحياة المشتركة التي يعيشها السكان الواقعون والمصنّفون ضمن مدينة القدس وقراها وبلداتها، بأصالتهم وتاريخهم الممتدّ لقرون خلت، امتزجت مع أمم وحضارات، وتركت ثراء وتنوّعًا على الجوانب كافّة: العمرانية، والقيمية، والحرفيّة، والفنيّة... مع إصرار على التمسّك بالحقوق والحفاظ على الهويّة واللغة والتراث والعمران والتاريخ من التحريف والتزوير والسرقة من المحتلّ، وضدّ مشروعه في الأسرلة للمدينة المقدّسة.

2. تحدّيات الثقافة المقدسيّة:

حشدت الحركة الصهيونية قواها للانتصار على الثقافة المقدسيّة بسرديّاتها عبر عمليّة استعمارية استهدفت أركان الثقافة المقدسيّة الفلسطينية ضمن عمل استعماري مخطط له، وأخطرها الأسرلة التي تعرّضت له الثقافة المقدسية. واستغلّت الحركة الصهيونيّة البُعد الديني اليهودي التوراتي، بأنّها هويّة أصيلة في هذا التاريخ والفضاء.

«وعمدت الحركة الصهيونيّة إلى علم الآثار في عمليّة تحويل فلسطين إلى إسرائيل، واستجلاب الأسماء العبريّة البائدة وتوزيعها على المشهد الفلسطينيّ، مع عمليّة إعادة كتابة التاريخ، تاريخ اليهود في المكان الفلسطيني بناءً على الفكرة الصهيونية»[٢].

(١) عزيز العصا: المشهد الثقافي المقدسي، ٢٢ كانون الثاني ٢٠١٨، مقال في موقع: شبكة «هنا القدس» للإعلام المجتمعي».

(٢) الشيخ، عبد الرحيم. «متلازمة كولومبوس وتنقيب فلسطين: جينيالوجيا سياسات التسمية الإسرائيلية للمشهد الفلسطيني. مجلّة الدراسات الفلسطينية؛ عدد ٨٣، ٢٠١٠: ٨٥.

ونخلص إلى القول بأنّ الثقافة المقدسيّة مُستهدفة منذ التخطيط الصهيوني لاحتلال القدس في مؤتمر «هرتزل»، في وقتها كانت هدفًا وحلمًا عمل له الصهاينة ولا يزالون بكلّ الإمكانات الداخلية والخارجية، ووظّفوا له كُبرى إمكاناتهم لتحقيق أهدافهم، حتّى وصلنا اليوم إلى شرعنة تقسيم القدس إلى شرقيّة وغربيّة، وبموافقة فلسطينيّ أوسلو. وهذا خطوة أولى تُمهّد للسيطرة على المقدّسات الإسلاميّة.

المبحث الثاني: واقع الثقافة المقدسيّة في لبنان:

كان للنزوح الفلسطينيّ إلى لبنان في العام ١٩٤٨ تداعياته من واقع الاستقرار إلى اللجوء، وما حَفَل به هذا اللجوء عبر مراحل تاريخيّة من أحداث جسام وتطوّرات دراماتيكيّة مسَّت شرائح المجتمع الفلسطيني النازح إلى لبنان كافّة، الذين عانوا منذ البدايات، وما يزالون، حتى يومنا هذا من ظروف حياتيّة صعبة، ارتبطت بسياسات التهميش بمختلف أشكالها: الاقتصادية، والاجتماعية، والتعليمية ... ومن قوانين الدولة اللبنانيّة وقراراتها، وفقدان الحماية الوطنيّة والدوليّة التي تكفلها للاجئين المعاهدات والاتفاقات ذات الصلة، هذا باستثناء الحماية المحدودة التي تقدّمها وكالة الأونروا، وهي من نوع الحماية «الإغاثية» التي لا ترقى إلى مستوى الحماية التي يتمتّع بها اللاجئون، وفقًا للمعايير الدوليّة»[١] .

هذا الواقع انعكس سلبًا في الحفاظ على هويّة اللاجئ الفلسطينيّ في لبنان وثقافته الخاصّة به، وهو تحدّ كبيرٍ؛ فاللاجئ الفلسطينيّ مُدمجٌ اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا في المجتمع اللبنانيّ، حتّى على المستوى التعليمي، يقتصر دور مدارس «الأونروا» في تعزيز المستوى الثقافيّ المقدسي من خلال إقامة أنشطة لا صفّيّة، وإحياء بعض المناسبات الوطنية الفلسطينيّة، مشروطة بعدم تجاوز قانون الحياديّة[٢] الذي اعتمدته مُؤخّرًا، وألزمت به جميع مُوظّفيها، وتحاسب كُلّ مُخالف للقانون بالفصل من وظيفته.

(١) جابر سليمان: تأثير تطوّر الأزمة اللبنانية على اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، تقدير إستراتيجي ١٢٤، كانون الثاني/ يناير٢٠٢١، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ص: ٣.

(٢) نصّ من قانون الحياديّة: «يجب على الجهات الفاعلة في المجال الإنساني ألّا تنحاز إلى طرف في الأعمال العدائية أو تشارك في خلافات ذات طبيعة سياسية أو دينية أو أيديولوجية». انظر الموقع الإلكتروني لـ«الأونروا» unrw.org .

أوّلًا: واقع اللجوء الفلسطيني في لبنان وانعكاسه ثقافيًّا:

نستعرض بعض مؤشّرات الواقع المعيشيّ الفلسطينيّ في لبنان من خلال تقديم معطيات وبشكل خاصّ على المستوى الديموغرافي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والتعليمي، والتي تركت آثارًا وانعكست سلبًا على واقع الثقافة.

1. الواقع الديموغرافي:

أعلنت المدير العامّ لإدارة الإحصاء المركزيّ اللبناني[١] الدكتورة توتليان غيدانيان أنّ عدد اللاجئين الفلسطينيين في المخيّمات والتجمّعات بلغ ١٧٤,٤٢٢ فردًا خلال عام ٢٠١٧، يعيشون في ١٢ مخيمًا و١٥٦ تجمّعًا فلسطينيًا في المحافظات الخمس اللبنانيّة. ووفق تقديرات الجامعة الأميركية في بيروت[٢] أنّ عدد اللاجئين الفلسطينيين الحالي يُراوح ما بين ٢٦٠ ألفًا و٢٨٠ ألفًا، وذلك استنادًا إلى البيانات في سجلّات الأنروا. مع العلم أنّ هذا التعداد للاجئين يمثّل ٦-٧٪ من إجمالي سكّان لبنان.

2. الواقع الاجتماعي:

إنّ هذه الصورة الديموغرافية وما نتج عنها من تجمّعات فلسطينيّة في مخيّمات تفتقر إلى أبسط مقوّمات الحياة الكريمة على مستوى البنية التحتيّة والخدمات، التي انعكست على معدّلات الفقر المرتفعة بين اللاجئين نتيجة لقوانين منعتهم من العمل في سبعين وظيفة، وحرمانهم من حقّ التملّك. إضافة إلى إنهيار القيمة الشرائيّة للعملة اللبنانيّة بسبب تفاقم الأزمة الاقتصاديّة والمالية والنقدية الأخيرة في لبنان. «ووفق آخر تحديث للمعلومات بتاريخ آذار/ مارس ٢٠٢٣ فإنّ الفقر سيبلغ ٩٣٪»[٣].

3. الواقع الصحي :

تفتقر معظم عيادات الأونروا لأقسام العمل الرئيسة التخصصيّة، إضافة إلى عدد التحويلات للمستشفيات الخارجية قليل ولا يتناسب مع العدد الكبير للمرضى، «وتعاني مستشفيات الهلال الأحمر

(١) موسوعة المخيّمات الفلسطينية https://palcamps.net/ar/٢٠٢٣

(٢) وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية «وفا» https://www.wafa.info/ps_ar/page.aspx?id=٩١٦٨
إضافة إلى الموقع الإلكتروني للأنروا في لبنان: https://www.unrwa.org/ar/activity

(٣) المصدر نفسه: https://www.unrwa.org/ar/where-we-work/

الفلسطيني من نقص التمويل والكثير من المواد الطبّيّة، ولا تغطّي الاحتياج للحالات المرضية»[١]. وتبلغ نسبة اللاجئين المصابين بمرض مزمن ٣١٪، أي حوالي ضعف الرقم اللبناني[٢].

4. الواقع الاقتصادي:

تشير الإحصاءات إلى أنّ الوضع الاقتصادي الفلسطيني بالغ السوء، فالبطالة مرتفعة فمعدل البطالة بين فئة الشباب (١٥-١٩ سنة) تصل إلى ٤٤٪، في حين تبلغ نسبة البطالة ٢٩٪ للأفراد من (٢٠-٢٩ سنة). وإذا كان الوضع الاقتصادي هذا حاله؛ فإن ذلك سوف يؤثّر بشكل كبير على بيئة الطالب نفسه، فضلًا عن طموحاته، وصولًا إلى ضعف في المستويات الثقافيّة.

5. الواقع السياسي

إنّ الاحباطات السياسية التي عاشتها مجتمعاتنا العربية بالعموم والفلسطينية بوجه الخصوص، شكّلت تراكمًا كبيرًا سلبيًّا لدى الفلسطينيين في لبنان، بدءًا من[٣]، هزيمة حزيران العام ١٩٦٧م، والاجتياح الصهيوني للبنان عام ١٩٨٢ وما رافقه من مجازر مخيمي صبرا وشاتيلا. وختامًا عمليّة السلام وتعدّد المرجعية الفلسطينية بين فصائل منظمة التحرير، وأخرى تتبع لتحالف القوى الفلسطينية، ووجود قوى وتجمّعات دينية، تشهد بالعموم خلافات بينها حول المرجعية الفعليّة والسيطرة على المخيمات.

هذا الواقع والمشهد السياسي أثمر جوًّا سلبيًّا بل أزمة ثقة في المرجعيات في ظلّ أزمات خانقة تواجه الوجود الفلسطيني في لبنان، ومن دون شكّ انعكس سلبًا على عموم نواحي الحياة العامّة، سيّما من الناحية التعليمية والثقافية.

6. الواقع التعليمي:

تدير الأونروا أكثر من ٦٨ مؤسّسة على امتداد البلاد تؤمّن تعليمًا ابتدائيًا بستّ سنوات وتعليمين

(١) المؤسّسة الفلسطينيّة لحقوق الإنسان (شاهد): دراسة عن الواقع الصحيّ للفلسطينيين في لبنان، شباط، ٢٠٠٩: bit.ly/٢RQqq٩٧

(٢) دراسة حول واقع اللاجئين في لبنان، إعداد الجامعة العربية الأمريكية، وكالة وفا: bit.ly/٣٤OGjSN

(٣) مقال بعنوان: « الفصائل الفلسطينية في المخيّم»، موسوعة المخيمات الفلسطينية: bit.ly/٢Z-fo٩٢٠ (بتصرّف).

إعداديًّا وثانويًّا بثلاث سنوات لكلّ منهما. «وتعاني الأونروا من نقص في تمويلها أدى إلى تقليص خدماتها للفلسطينيين في لبنان، حيث تواجه الوكالة أزمةً مالية غير مسبوقة»[١]. حيث تشير الإحصاءات إلى أنّ ٧٫٢٪ من اللاجئين الفلسطينيين (١٠ سنوات فأكثر) في لبنان أمّيّون، وبلغت نسبة الالتحاق بالتعليم للأفراد (٣-١٣ سنة) حوالي ٩٤٪، وأثّر نقص تمويل الأونروا على جودة التعليم بالمناهج والأسلوب التعليمي، «ناهيك عن اكتظاظ الصفوف بالطلبة، والضغط على البنية التحتيّة، وعمل بعض المدارس بنظام الفترتين الصباحيّة والمسائيّة، وانعدام وجود الأدوات التعليميّة الأساسيّة والمساعدة، كالكمبيوتر، والمجسّمات العلميّة والطبّيّة»[٢].

وخلاصة القول، تسبّبت العوامل الاجتماعية والسياسية التي تؤثّر في الأسر الفلسطينية وظروف الحياة البالغة الصعوبة التي تعاني منها العائلات الفلسطينية على المستوى التعليمي والتسرّب المدرسي، وواقع المسكن «حيث أغلب منازل المخيمات مكتظّة، وتعاني الإضاءة غير الملائمة، وضعف التدفئة، ورداءة كلّ من التهوئة والصرف الصحّي»[٣]. هذا الواقع له تأثيره على المستوى الثقافي، فلا مكتبات عامّة أو أماكن للدراسة يمكن أن يستعاض عنها بالمنازل. والتراكم الحاصل من فقر وتدني في البنية التحتيّة وحرمان من فرص العمل وحق التملّك سوف يؤدّي حتمًا إلى تغيّر نوعيّ، على الأقلّ لجهة الأولويات والحدّ الأدنى من التفكير والبحث والكتابة خصوصًا، وعلى مستوى الثقافة عمومًا.

ثانيًا: المشهد الثقافيّ المقدسيّ في لبنان:

الحراك الثقافي في مخيمات لبنان نشط وحيويّ، يُعبّر عن أصالة الشعب الفلسطيني وإبداعاته في التمسّك بحقوقه، والحفاظ على ثوابته. وتنشط في المخيمات المؤسسات الفصائليّة الحزبيّة والمستقلّة ثقافيًا، برغم التحدّيات والعوائق. مع العلم أنّ «نسبة ٤٧٪ من الشباب الفلسطيني يفضّلون العمل التطوّعي والانخراط في أنشطة النوادي الثقافية في الجمعيات المستقلّة»[٤].

(١) انظر الموقع: bit.ly/Muh٠yR٢

(٢) رضوان عبد الله: مقال بعنوان: الواقع التربوي والتعليمي للطلبة الفلسطينيين في لبنان، ٢٠١٤/١١/١٦. https://diffah.alaraby.co.uk/

(٣) Sari Hanafi and Taylor Long, «Governance, Governmentalities, and the State of Exception in the Palestinian Refugee Camps of Lebanon,» Oxford Refugee Studies, vol. ٢٣, no. ٢ (٢٠١٠), pp. ٣٤-٦٠

(٤) رباب دبس: مقال بعنوان: نحو مخيم فلسطيني جديد.. دور الثقافة والمجتمع المدني ٢١، يونيو

١. المؤسسات الفلسطينية:

ينشط في الحقل الثقافي في الداخل والشتات عدد كبير من المؤسسات الأهليّة الفلسطينية الحزبية الفصائلية، وقد قامت هذه المؤسّسات، بأدوار ملحوظة في الحفاظ على مقوّمات الثقافة المقدسية وتعزيزها، وكذلك الحفاظ على التراث الوطني الفلسطيني، وتأكيد دورها في مواجهة سياسات المحتل. ومن أبرز المؤسّسات الرسميّة والفصائليّة العاملة في مجال الثقافة الآتي:

أ. سفارة دولة فلسطين في لبنان: دائرة الشؤون الثقافية[١]:

تتابع الدائرة القضايا الثقافية والتربوية كافّة، من: تنظيم الملتقيات الثقافيّة والأنشطة الشبابيّة، والمشاركة في المعارض الدولية للكتاب، وتدعيم المكتبات في المخيمات الفلسطينية كافّة. كذلك تتابع الدائرة الثقافية إدارة «مؤسّسة الرئيس محمود عباس لمساعدة الطلبة الفلسطينيين في لبنان»، المتعلّقة بالطالب الفلسطيني في لبنان بهدف تقديم العون له في تحصيله العلمي الجامعي، ومتابعة أنشطة اتّحاد الفنانين الفلسطينيين وجميع الاتحادات الأخرى ذات الصلة بالأنشطة الثقافية. كذلك رعاية الطلاب الفلسطنيين النازحين من سوريا ومتابعة قضاياهم.

ب. هيئة العمل الفلسطيني المشترك[٢]:

إطار يضم الفصائل الفلسطينية المعارضة لاتّفاق أوسلو، وتقيم هيئة العمل المشترك أنشطة وبرامج دعمًا لشعبنا الفلسطيني في فلسطين المحتلة الذي يقاوم الاحتلال الصهيوني ويتصدّى لكلّ اعتداءاته، وخاصة في مدينة القدس والمسجد الأقصى، ومن أبرز الأنشطة: تنظيم مسيرات جماهيرية في المخيمات الفلسطينية واعتصامات في المخيمات الفلسطينية والمدن اللبنانية استنكارًا لما يسمّى «مسيرة الأعلام» واقتحامات المسجد الأقصى وإغلاقه.

٢٠٢٢ https://:diffah.alaraby.co.uk/

(١) https://:www.palembassy-lb.net

(٢) https://:www.facebook.com/groups/refugeesps/ موقع لاجئين بوابة اللاجئين الفلسطينيين في لبنان

ج. المؤسّسات والمنسقيات والمراكز البحثية الفلسطينية في لبنان[١]:

بصمات ثقافيّة وعمل دؤوب للمؤسسات والمنسقيات والمراكز البحثية الفلسطينية في لبنان، رغم قلّتها - لأسباب قانونيّة[٢]، إلا أنّها حقّقت إنجازات نوعيّة ثقافيّة بتنوّعها من: إصدار كتب، وأبحاثا ودوريات وحوليات، وعقدت مؤتمرات وندوات، ومؤتمرات صحفيّة، ووقفات تضامنيّة... وأهّلت المئات من الشباب الفلسطيني لسد الفجوة، والحفاظ على بنية ثقافية متماسكة في مخيمات اللجوء خصوصًا، وللداخل الفلسطيني دعمًا، ونشر للثقافة المقدسيّة في العالم. ومن أبرز المؤسسات والمنسقيات والمراكز البحثية الفلسطينية الفاعلة في لبنان،الآتي[٣]:

١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
٢) مركز الأبحاث الفلسطيني.
٣) مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات.
٤) منظمة ثابت لحق العودة.
٥) مؤسسة القدس الدوليّة .
٦) منسقية المؤتمر الشعبي لفلسطينيي الخارج (لبنان، اللجنة الثقافيّة)

وعلى المستوى اللبناني تنشط المؤسسات: تعقد الهيئات والمؤسسات والروابط العلمائية مجموعة من المؤتمرات ومنتديات علمائية، بإشراف هيئات ومؤسسات وروابط فلسطينيّة ولبنانيّة تُعنى بالقدس، يلتقي فيها علماء الأمّة الإسلامية، مؤكّدين على ضرورة العمل لنصرة القدس وفلسطين، وأطلقت هيئات علمائية لبنانيّة وبرعاية دار الفتوى اللبنانية برامجَ وفعاليات دوريّة، منها: «أسبوع القدس العالمي»، الذي يهدف إلى مواجهة التطبيع ونصرة القدس وفلسطين، وكذلك ما تقوم به مؤسسة القدس الدوليّة، وقسم القدس في هيئة علماء فلسطين، من إصدار دراسات وأبحاث، ونشر دوريات،

---

(١) لكل مؤسسة ومركز ومنسقيّة أعمال متنوعة طيلة العام، ويتعذر على الباحث عرضها بالتفصيل، ويمكن الرجوع إلى واقعها على الشبكة العنكبوتيّة.

(٢) القانون اللبناني لا يسمح بتسجيل ملكية المراكز البحثية باسم فلسطينيين، لذلك فإنّ المراكز الموجودة سُجّلت بأسماء لبنانيين، وبعض مديريها لبنانيون.

(٣) لم يجد الباحث كتابًا مُؤلّفًا أو دليلًا أو بحثًا أكاديميًّا يُحصي ويصف واقع المؤسسات الثقافية والمراكز واللجان والروابط وحالها وعملها ... في لبنان.

وعقد المؤتمرات العلمائيّة والصحفيّة، ومواكبة ما يجري في مدينة القدس، وبيان المخاطر التي يتعرّض لها المسجد الأقصى.

د. **صندوق الخير[١]:**

يتبع لدار الفتوى في الجمهورية اللبنانية، وغايته دعم الشعب الفلسطيني وتثبيته في أرضه. ويتابع الصندوق الأحداث في القدس وما يواجهه المقدسيون من تضييق وتهويد. ويعمل صندوق الخير على دعوة المؤسسات والجمعيات اللّبنانية والشخصيات وأهل الخير ومحبّي القدس إلى التفاعل مع الحملات. ودعوة أئمة المساجد وخطبائها في لبنان في خطبة الجمعة لحثّ المصلين للتّبرع للقدس وتقديم يد العون لأهل القدس.

هـ. **هيئة نصرة الأقصى في لبنان[٢]:**

قامت هيئة نصرة الأقصى تعمل في الوسط اللبناني، من خلال محاضرات توعوية للتعريف عن «فلسطين وميثاق العائلة» ومحاضرات عن :تهويد القدس والأزمات التي يعانيها سكان القدس وأبرز ما تعرّض له المسجد الأقصى.

ومن أبرز أنشطة هيئة نصرة الأقصى مبادرة شبابية من فريق هيئة نصرة الأقصى في لبنان، جاءت وسط ما يجري اليوم من تحديات لنسيان قضيّة القدس وفلسطين في أذهان الأجيال، وجعلها قضيّة هامشيّة وإزالة قدسيّتها من ذاكرة مجتمعاتنا وأبنائنا. وفي مواجهة محاولة تغييب قضية القدس والمسجد الأقصى عن أذهان الأجيال بسبب بعد المسافات، وجاءت مبادرة «حتىَّ نكونَ منهُ أَقرب» التي ترمي إلى إيجاد رابط بين الأماكن في لبنان والمسجد الأقصى، عبر تحديدِ المسافة بينهما.

و. **المؤسسات والروابط العلمائية والمجتمعية والأهلية والشبابيّة :**

تنشط البرنامج والفعاليّات العلمائيّة والمجتمعيّة والأهليّة والشبابية في المخيمات الفلسطينية من منطلق التمسك بالحق والأرض، والحفاظ على التاريخ والتراث، ونصرة للمسجد الأقصى المبارك،

(١) https://www.alkhairfund.org

(٢) https://:https/news/com.palinfo/٢٠٢٣/٠٩/١٣/٨٥٠١٥٦/

وتنديدًا بجرائم الاحتلال المنظمة في اقتحامه من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي. وتقام أنشطة دوريّة وأخرى تضامنيّة مع الأحداث المقدسيّة في المخيمات كافّة، تُعبّر عن نُصرة القدس، والتضامن مع أهلها المرابطين، ومن أبرز المؤسسات والمحاضن المجتمعيّة الفاعلة، الآتي:

ز. **المساجد ومراكز تحفيظ القرآن الكريم:**

لا يفتأ خطباء منابر المساجد في المخيمات الفلسطينية عن الدفاع عن قضايا فلسطين، وربط المصلين بمجريات الأحداث في المسجد الأقصى واعتداءات الصهاينة. إضافة إلى الدورات الشرعية والتاريخيّة المتعلّقة بمكانة والقدس، وبالتنسيق مع مؤسسة القدس ومثيلاتها. «وتحرص المساجد في المخيمات على إقامة الدورات الصيفية القرآنية للفتيان والفتيات، ودورات تخصصيّة للطلاب الثانويين والجامعيين»[١]. وتعدّ المادة المتعلّقة بفلسطين جزءًا أساسيًّا من منهاج التعليم. وتمتاز دورات «جيل الأقصى» القرآنيّة والشرعيّة الأكبر في المخيمات الفلسطينية في لبنان، حيث يلتحق بها ما يزيد عن أربعة آلاف من الفتيان والفتيات من عموم المخيمات.

ح. **الحملة الوطنية للحفاظ على الهوية الفلسطينية[٢]:**

تطلق الحملة الوطنية للحفاظ على الهوية الفلسطينية (انتماء) حملة شعبيّة سنويّة ترعاها مؤسسات وجمعيات داعمة للحق الفلسطيني من أجل تعزيز الشعور الوطني، وهي حالة رمزية تحمل في طيّاتها معاني الشعور بالمسؤولية تجاه القضية الفلسطينية، وترفع شعار الانتماء لفلسطين، وتؤكد على الحقّ الثابت بالعودة، والتي تمثّل القناعة الشعبيّة بحتميّتها أولى خطواتها.

ط. **بيت للثقافة الفلسطينية[٣]:**

«دار النمر» للفن والثقافة ملتقى بيروتي هو مقصد لمحبي الإنتاج الثقافي القديم والحديث من فلسطين، حيث تعرض في الدار قطع فنية ومشغولات تتعلق بالتراث، بينها معرض للثوب الفلسطيني. وتهدف المؤسسة إلى تعميق الوعي التاريخي والنضوج الفكري من خلال إسهامات

(١) مقابلة مع الشيخ الدكتور بسام كايد رئيس رابطة علماء فلسطين في لبنان، صيدا، ٢٠-٩-٢٠٢٣.
(٢) https://net.mag-alawda/
(٣) https://www.aljazeera.net/culture/

المتخصصين في المجالات الثقافية، من: الكتّاب والمؤرخين والفنانين والموسيقيين والسينمائيين. وتعود فكرة تأسيس الدار لرجل الأعمال الفلسطيني رامي النمر المولود في نابلس.

ي. **المؤسسات الكشفيّة والرياضيّة**[١]:

أكد محمد أبو شقرة[٢]، أن «العمل الكشفي الفلسطيني في الشتات أصبح أنموذجًا يحتذى به، وأن الحركة الكشفية أقامت الدورات التدريبية والتأهيل الكشفي، وشهادات الشارة الخشبية، وعقدت العديد من اتفاقات التعاون على الصعيدين العربي والعالمي».

ك. **تجمع المؤسسات الأهليّة اللبنانية والفلسطينية في مدينة صيدا:**

تجمع يضم المؤسسات الأهليّة في مدينة صيدا وجوارها، والتي تضم أكبر المخيمات الفلسطينية عددًا في لبنان «مخيم عين الحلوة». «ويُقدم العديد من الفعاليات والأنشطة الثقافية المتنوعة، إضافة إلى البرامج والمشاريع التي تخدم قضية القدس ودعمًا لأهلها وتثبيتًا لهم، ومن بينها الدعم المالي والمعنوي بشكل أساسيّ للمرابطين في القدس من أجل دعم صمودهم بوجه المحتل»[٣].

ل. **المؤسسات والجمعيات الأهلية في منطقة صور ومخيماتها :**

يحرص التجمع في منطقة صور وأقضيتها «على القيام بأنشطة تضامنيّة في المناسبات الفلسطينية لجهات رسميّة وشعبيّة ميدانيّة في المخيمات والمدن للتضامن ونصرة للمسجد الأقصى، بهدف تعزيز الثقافة لدى الأجيال والحفاظ على الهوية التراثية»[٤].

م. **مركز النقب للأنشطة الثقافية:**

ينشط هذا المركز في مخيم برج البراجنة في بيروت، الذي يضم جيلًا من الشاب، يرغب في العطاء والخروج من الأفكار الروتينية، بعمل تطوّعي، والقيام بعدد من الأنشطة الثقافية والتربوية داخل

(١) https://com.qudspress//

(٢) مقابلة مع الأستاذ محمد أبو شقرة، رئيس التجمع الكشفي الأهلي الفلسطيني في الشتات، ٢٥-٩-٢٠٢٣.

(٣) مقابلة مع الأستاذ ياسر علي، مدير مركز شؤون اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، ٢١-٩-٢٠٢٣.

(٤) مقابلة مع الأستاذ سامي حمود، مدير عام منظمة ثابت في صور، ١٨-٩-٢٠٢٣.

المخيم. ويعدّ المركز أحد المحاضن الثقافية لأفكار الشباب ومشاريعهم.

ن. **مركز «زاوية رؤية الثقافية»:**

في مخيم نهر البارد الذي يقع في شمال لبنان، ينشط فيه عدد من الشباب والشابات، شعراء وفنانون وكتاب وأدباء. وينظر الشاعر باسل عبد العال، إلى «زاوية رؤية الثقافية» باعتبارها ملتقى الأدب الفلسطيني، إذ تستقطب الشبان والشابات مختلفي المواهب، شعراء وفنانين وكتابًا وأدباء، انخرطوا ضمن نشاطات هادفة وملتزمة، مثل تنظيم المعارض وإقامة الأمسيات الشعرية والندوات.

س. **النادي الثقافي الفلسطيني:**

يعدّ النادي الثقافي الفلسطيني من الهيئات الناشطة والعاملة للقضية الفلسطينية في المخيمات، إذ تأسّس في مخيم البداوي عام ١٩٩٦ على يد مجموعة من الشباب الجامعيين المستقلّين في الجامعة اللبنانية بمدينة طرابلس شمال لبنان.

وتقول الناشطة في النادي الثقافي في الشمال: «إنّ النادي يهدف من خلال نشاطاته المتنوّعة لترسيخ الوعي الوطنيّ عند الجيل الشابّ، وتعزيز نبض القضية الوطنيّة وثقافة المقاومة بأشكالها وألوانها الثقافية والإعلامية والفكرية كافّة. كما يعمل على زيادة الوعي بتاريخ القضية من خلال إعطاء دروس حول تاريخ وجغرافية فلسطين، ورفع المستوى الثقافي والتوعوي والأكاديمي للشباب الفلسطيني، والعمل على دعم حضور المواهب الثقافية الفلسطينية في الحياة الثقافية وتقويتها»[١].

الخلاصة:

لم يتوقّف الحراك الثقافي في مخيمات لبنان يومًا منذ اللجوء، فهو نشط منذ ستينيات القرن الماضي، من خلال أنشطة وبرامج ثقافية عبّرت عن الانتماء والهوية. وبرغم وجود التنوّع الفصائلي الفلسطيني والأندية ومؤسسات العمل الأهلي والحراكات الشبابية والروابط العلمائيّة والأهلية بمختلف انتماءاتها، إلا أنها مثّلت المنظومة الثقافية للجوء الفلسطيني في لبنان. وكان لها الدور الأبرز في بناء ثقافة مقدسيّة بالحدّ الأدنى، ووفق المتاح، على الرغم من غياب البنية التحتيّة والعوامل المساعدة

(١) مقابلة مع الأستاذة ميسون مصطفى، الناشطة في النادي الثقافي في مخيم البداوي، ٢٨-٩-٢٠٢٣.

والظروف المناسبة، بل أبدعت واستثمرت المتاح الممكن، وحولته إلى مشهد ثقافي.

مثال ذلك: جدران البيوت في المخيمات المتشققة بفعل القصف الجوّيّ لطائرات العدو وأعوانهم، والمهترئة لمنعها من التجديد بسبب قوانين طائفيّة، والمائلة للسقوط الملتصقة ببعضها لضيق المساحة، لكنّها تحوّلت إلى لوحات فنّيّة وجداريّة تراثيّة تُجسّد حكاية شعب مقاوم متمسّك بحقّه وأرضه، مقاومة تبقى صورتها حاضرة وماثلة أمام الأجيال في المخيمات، جيل بعد جيل.

ومن الشواهد الإبداعيّة أيضًا، لوحة «جمل المحامل» (١٩٧٣) للفنّان سليمان منصور، التي أصبحت أيقونة في التراث الشعبي المقدسي، وفي قلوب الفلسطينيين. لوحة اختصرت المشهد المقدسي في شخصيّة العتّال (الحمّال) الذي يحمل هموم القدس والمقدّسات وقلق الوطن من بلدة إلى أخرى، وبرغم الترحال، يجسد الفنان بريشته الثوابت والتمسّك بالحقوق ولو بلغ من الكبر عتيًّا، ولو أثقل المحتل على كاهله الأوزان والصعاب والتحدّيات.

هذه اللوحة نجدها تُزيّن كل غرف الضيوف والاستقبال في بيوت المخيّم، التي معظمها لا تدخله أشعة الشمس؛ نظرًا للبناء التراكميّ الأفقيّ، فأصبحت اللوحة المقدسيّة بصورتها المثالية الأبهى والأجمل، عنوانًا للمبادئ والقيم، وعهدًا ووفاء، بل مدرسة في الإصرار والعزيمة لقلع شوكة المحتل. إنّها تعبير عن فجر أو نور وأمل للحريّة والعودة القريبة. أضف إلى ذلك، لا يكاد يخلو بيت من صورة لخارطة فلسطين، أو صورة لشهيد استُشهد في المعارك المتتالية مع العدو الصهيوني في جنوبي لبنان، أو مفتاح نحاسي أو حديدي قديم للبيت الذي هجّر منه الجد والأهل.

المبحث الثالث: الدراسة الميدانيّة:

وسائل عمليّة القياس كثيرة ومنوّعة، منها: «الاستبيانات، والملاحظة، أو دراسة الحالة، أو التقارير الذاتيّة، أو السجلات المجمعيّة»[١]. واختار الباحث إعداد استبانة لقياس مستوى الثقافة المقدسية تضمّ مجموعة من الأسئلة تُغطّي الجوانب المعرفيّة الثقافية وفق أسئلة تحريريّة مقاليّة «يمتلك فيها الطالب

(١) محمد السيد محمد مرزوق: دليل المعلم إلى صياغة الأهداف التعليميّة السلوكيّة والمهارات التدريسيّة، دار ابن الجوزي، ١٤١٦ ه، ص: ١٣٢.

إجابته بنفسه»[١]. وأسئلة موضوعيّة، من أنواعها :الصواب والخطأ، والمزاوجة والمقابلة، والاختيار من متعدد (عدّة بدائل)، التكميل أو ملء النواتج.

أوّلًا - خطوات إعداد الاستبيان:

حتّى يتّسم الاستبيان بمواصفات التقويم الجيّد - الذي هو محصّلة تخطيط سليم ومسبق، اتّبع الباحث الخطوات الآتية[٢]:

١) تحديد الأهداف والمحتوى وتوزيع النسب المئويّة حسب أهميّة كلّ فقرة من الاستبيان، بالنسبة للمعارف المراد قياسها.

٢) تمثيل مستويات المعارف المقدسيّة في أسئلة الاستبيان.

٣) تحديد صدق الاستبيان وتجريبه، وكتابة تعليمات الاستبيان، وإخراجه في شكله النهائي، واعتماد تطبيقه.

١. تحديد الأهداف:

راعى الباحث في صياغة أسئلة الاستبيان، شموليّة الأسئلة المتعلّقة بالثقافة المقدسيّة. حيث الهدف من الاستبيان، الآتي:

قياس مستوى الثقافة المقدسية لدى الطلاب والطالبات الفلسطينيّين في المراحل الدراسيّة. ومعرفة تراكم خبراتهم، بعد مرورهم بخبرات ثقافيّة مجتمعيّة، نتاج أنشطة مناسبات وطنية فلسطينية مقدسيّة. وقدرتهم على توظيفها في الحفاظ على الهوية والمقدسات.

٢. تمثيل مستويات المعارف المقدسيّة في أسئلة الاستبيان:

الجوانب الثقافيّة المعرفية للطلاب حول مدينة القدس، وهي:

أ. الأماكن التاريخية، مثل :البلدة القديمة وأماكنها المقدّسة، والحائط الغربي والمسجد الأقصى، ونبذة عن التاريخ القديم والمعاصر لها.

---

(١) فريد كامل أبوزينة: أساسيات القياس والتقويم في التربية، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط١، ص: ١٩٢.

(٢) المرجع نفسه، ص : ١٩٢.

ب. الدين: المعرفة بالديانات السماوية: مثل الإسلام والمسيحية واليهودية، ومعالمها في المدينة.

ج. الاجتماع: فهم التركيب الاجتماعي للمدينة، بما في ذلك التنوّع العرقي والثقافي والديمغرافي، والعائلات...

د. الوعي بالمظاهر الاجتماعيّة المميزة للمدينة، مثل: العادات واللباس والتقاليد والمناسبات الاحتفالية.

ه. الموقع الجغرافي للمدينة وتأثيره.

و. الوعي بالمأكولات والمشروبات التقليدية.

ح. الفنون والعمارة والحرف التقليدية المميزة للمدينة.

ط. الأدب والشعر والموسيقى والتراث الشعبي المرتبط بالقدس.

ي. القيم الدينية: المعرفة بالقيم والأخلاق والتعاليم الإنسانية، مثل: العدل والرحمة والتسامح والاحترام والمساواة.

ك. السياسية:كيف تؤثر القدس كمركز ثقافي وسياسي على المجتمعات المحلية والعالمية؟ والنزاعات المحيطة بها على المنطقة؟

٣- تحديد صدق الاستبيان:

بعد إعداد الاستبيان تمّ عرضه على مجموعة من المُحكّمين[١] بهدف التحقّق من صدقه، وإبداء الملاحظات وفق الآتي:

١) سلامة الصياغة اللغويّة، وتوسّع أسئلة الاستبيان وتنوعها.

٢) طبيعة الأسئلة تخاطب المختصين وليس الطلاب، وملاءمة السؤال للمستوى الثقافي الذي تقيسه.

٣) ج- ما يراه المُحكّمون من إضافة أو حذف.

٤) مناسبة الأسئلة لطلاب وطالبات المرحلة المتوسطة والثانويّة.

(١) انظر في الملحق، أسماء الأساتذة المحكّمين، ص: ٢٨.

1. **وقد تمحورت ملاحظات الأساتذة المُحكّمين في الآتي:**

أ) ضرورة أن تكون بيانات الاستبيان واضحة في مقدّمته، من حيث نوعه، وهدفه الأكاديميّ، والوقت المحدّد، ومكان الإجابة، وهل الأسئلة إجباريّة.

ب) تحديد معايير لوضع درجات للأسئلة المقاليّة.

ج) ج _ اقتصار أسئلة الاستبيان على ثلاثين سؤالًا بعد أن كانت ستين.

د) مراعاة المستوى المعرفي لكلّ مرحلة دراسية.

هـ) التركيز في الاستبيان على الواقع الذي تعيشه القدس اليوم، وعدم التركيز على الأسئلة التقليديّة التراثية.

وقد قام الباحث بدراسة المقترحات كافّة، وأخذها بعين الاعتبار، بما يتناسب مع الهدف المراد تحقيقه.

٣. تجريب الاستبيان:

قام الباحث بتجريب الاستبيان على عينة عشوائيّة من طلاب وطالبات المرحلة الثانويّة في مدرسة الناصرة التابعة لوكالة الغوث الدوليّة في شمالي لبنان، وتكوّنت من(١٥٨) طالبًا وطالبة من المراحل المتوسطة والثانوية للعام الدراسي ٢٠٢٣م، وذلك بهدف:

أ) تحديد الزمن المناسب :حساب مُتوسّط زمن الإجابة، إذ تبيّن أنّ الزمن المناسب هو (٢٠) دقيقة. ومعرفة مدى وضوح تعليمات الاستبيان. والاطمئنان على قدرة الطلاب على الإجابة، ومن ثمّ إخراج الاستبيان في شكله النهائي.

ب) وضوح الأسئلة حتّى يتمّ الإجابة عليها من قبل المشتركين بوضوح وتحقيق النتائج المرجوّة.

ج) التقيّد بالطول المناسب للاستبيان فلا يكون قصيرًا جدًا بحيث لا يحقّق الدرجة المطلوبة من المعلومات للدراسة، أو طويلًا جدًا بحيث يملّ المشترك ويخرج من الاستبيان.

د) أن يكون الاستبيان مكتملًا ويحوي جوانب الدراسة المطلوبة كافّة، لذا كان على الباحث استبعاد جميع الاستطلاعات التي لم تكتمل بعد.

٤. مجتمع الدراسة وعيّنتها:

تكوّن مجتمع الدراسة من طلاب وطالبات –الفلسطينيّين- المرحلة المتوسطة والثانويّة للعام الدراسي ٢٠٢٢/٢٠٢٣م، وتكوّنت عينة الدراسة من (١٥٨) طالبًا وطالبة من الطلبة الفلسطينيّين في المرحلة المتوسطة والثانويّة، التابعة لوكالة الغوث الدوليّة في شماليّ لبنان.

٥. **تطبيق أدوات الدراسة:** اتّبع الباحث الخطوات التالية في تنفيذ الدراسة:

أوّلًا: إعداد الاستبيان إلكترونيًّا **للمرحلة الثانويّة** مع تعليماته، والهدف ووقته المحدد، ووزع الاستبيان الإلكتروني على مسؤولي الروابط الشبابيّة ذكورًا وإناثًا، والأندية الرياضية والكشفيّة، ورابط في العمل الطلابي، ومعلمين ومعلمات، وأعيان وفاعلين في مواقع التواصل الاجتماعي، وإعلاميين، وأكاديميين جامعيين، ورؤساء جمعيات ثقافية، وشخصيات سياسية، ودعاة ومشايخ وأئمة مساجد.

ثانيًا: زيارة ميدانيّة لطلاب دورة «جيل الأقصى» في مسجد زمزم، وتطبيق الاستبيان ورقيًّا لطلاب **المرحلة المتوسطة**. والهدف من ذلك تبسيط السؤال والتأكّد من فهمه، إضافة إلى أن هذه العيّنة لا تمتاز بالجدّة في حل الاستبانة لو سلّم لديهم للإجابة عليه ذاتيّا. وزوّد الباحث أفراد العينة بالإجابات الصحيحة مع درس مبسّط عن أهميّة الثقافة المقدسية .

ثالثًا: زيارة مخيّم صيفيّ لطلاب المرحلة الثانويّة، وتطبيق الاستبيان ورقيًّا، وبعد جمع الإجابات، ألقى الباحث محاضرة مختصرة توقّف فيها عند أهمّيّة تعزيز الثقافة وتنميتها فلسطينيًّا ومقدسيًّا، وتزويد الطلاب بالإجابات مع شرح كاف عن جوانب الثقافة المقدسية.

ثانيًا: نتائج البحث إحصائيًّا:

بعد جمع الاستبيانات من أفراد العيّنة، نظّم الباحث عملية تفريغ البيانات، وبعدها عمليّة التحليل الإحصائي للبيانات التي جمعت من عينة البحث بواسطة الاستبيان، وبعد ذلك تتمّ كتابة النتائج، وتأتي عملة كتابة نتائج الاستبيان وفقًا لقوالب وتقارير محددة، تقوم هذه القوالب بإيضاح النتائج وتفصيلها، وفق الآتي:

أ) نسبة الإجابات الصحيحة التي قام أفراد عينة البحث بتقديمها.

ب) **المعادلات الحسابيّة:** لتحصيل النتائج استعان الباحث بالمعادلات الآتية[١]:

نسبة النجاح = عدد الناجحين × ١٠٠

عدد الطلاب

ج) ج. ومعادلة نسبة النجاح تدلّ على مقدار ما حقّقه الامتحان من الأهداف المنشودة أو جزءًا منها.

المتوسط الحسابي = مجموع علامات الطلاب المحصلة × ١٠٠

عدد الطلاب

١. نتائج الإجابات للمرحلة ومتغير الجنس (المرحلة المتوسطة):

أ) نسبة الإجابات الصحيحة والخاطئة، ولمتغير الجنس لأفراد عينة المرحلة المتوسطة (٢٨) طالبة، و(٣٦) طالبًا:

ب) ٤٨٫٣٣٪ نسبة الإجابات الصحيحة على أسئلة الاستبيان للأسئلة الموضوعيّة: ٥٨٪ لعيّنة الإناث، و٤٢٪ لعيّنة الذكور.

ج) ٥٥١٫٦٧٪ نسبة الإجابات الخاطئة على أسئلة الاستبيان للأسئلة الموضوعية: ٤٢٪ لعينة الإناث، و٥٨٪ لعينة الذكور.

د) ١٧٫٤٪ نسبة الإجابات الصحيحة على الأسئلة المقالية: ٥٢٪ لعيّنة الإناث، و٤٨٪ لعيّنة الذكور.

هـ) ٨٢٫٦٪ نسبة الإجابات الخاطئة على الأسئلة المقالية: ٤٨٪ لعيّنة الإناث، و٥٢٪ لعيّنة الذكور.

٢: نتائج الإجابات للمرحلة ومتغير الجنس (المرحلة الثانويّة):

أ) نسبة الإجابات الصحيحة والخاطئة، ولمتغير الجنس لأفراد عينة المرحلة الثانويّة (٤٣)طالبة، و(٥١) طالبًا:

(١) محمود عبد الحليم منسى: التقويم التربويّ، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص : ١٥٢.

ب) ٢ر٥٣٪ نسبة الإجابات الصحيحة للأسئلة الموضوعيّة: ٤ر٥٣٪ لعيّنة الإناث، و٦ر٤٦ ٪ لعيّنة الذكور .

ج) ٨ر٤٦٪ نسبة الإجابات الخاطئة للأسئلة الموضوعية: ٦ر٤٦٪ لعيّنة الإناث، و٤ر٥٣٪ لعيّنة الذكور.

د) ٢٢٪ نسبة الإجابات الصحيحة على الأسئلة المقاليّة: ٥١٪ لعيّنة الإناث، و٤٩٪ لعيّنة الذكور.

هـ) ٧٨٪ نسبة الإجابات الخاطئة على الأسئلة المقالية: ٤٩٪ لعيّنة الإناث، و٥١٪ لعيّنة الذكور.

3. خلاصّة لنتائج الاستبيان للمرحلتين المتوسطة والثانويّة:

أ) النسبة العامّة للإجابات الصحيحة على الاستبيان بلغت ٨٦ر٣٢٪ لعينة المرحلة المتوسطة.

ب) النسبة العامّة للإجابات الصحيحة على الاستبيان بلغت ٦ر٣٧٪ لعينة المرحلة الثانويّة.

ج) تشير النتائج إلى تقدّم طلاب المرحلة الثانويّة على طلاب المرحلة المتوسطة، ذكورا وإناثًا. وتقدّم الاناث على الذكور.

د) نسبة الإجابات على الأسئلة الموضوعيّة أفضل بكثير من نسبة الإجابات الصحيحة على الأسئلة المقاليّة.

هـ) تشير نتائج عيّنة الاستبانة إلى التميّز بالجوانب الثقافيّة على مستوى: اللباس، الطعام، العادات والتقاليد.

و) تشير نتائج عيّنة الاستبانة إلى الضعف في الجوانب الثقافيّة على مستوى: جغرافيا وتاريخ فلسطين، والأماكن المقدسة، والتاريخية التراثيّة، وأسماء الشعراء، والعائلات، والحرف.

ز) تشير نتائج عينة الاستبانة إلى مستوى المقبول في الجوانب الثقافيّة على مستوى: المعلومات الإسلاميّة، والمأكولات.

قراءة عامّة للنتائج وأسبابها:

هذه النتائج لها دلالات، **فالنسبة ضعيفة** ولأسباب مُتعدّدة، قام الباحث بمناقشتها مع مجموعة

من المختصين والنشطاء ومديري بعض المؤسسات الثقافيّة[١]، واستمزاج آرائهم ونظرتهم للنتيجة، ويمكننا عرضها وفق الآتي:

أ) غياب تعليم مواد: تاريخ وجغرافيا فلسطين، ومادّة التربية الإسلاميّة في مدارس الأونروا، حيث تلتزم الأونروا بتعليم المنهاج اللبناني في المواد الاجتماعيّة (لا تعليم ديني رسمي في لبنان نظرًا لتعدّد طوائفه) وترفض تعليم المنهاج الفلسطيني بحجّة أنه معادٍ لعمليّة السلام وضدّ الحياديّة. ونتاج تعليم المنهاج اللبناني يُعزز الانتماء الثقافي اللبناني، وبذلك تكون ثقافة الطالب اللاجئ الفلسطيني في لبنان ثقافة لبنانية أكثر منها فلسطينية أو مقدسيّة.

ب) تُلزم الأونروا معلّميها بعدم الخوض أو المساس في الدروس التعليمية بعبارت أو ألفاظ فيها تهجم على العدو الصهيوني، في سياق مشروع الحيادية وحقوق الإنسان الذي فرضته مؤخّرًا على موظّفيها في مدارسها، والمسموح به فقط رفع علم فلسطين أو خارطتها. مع العلم أنّ هنالك لجنة مختصّة تتابع وتراقب وسائل التواصل للمعلّمين والموظّفين (الفيسبوك، تلغرام...).

ج) ما هو مسموح به من إحياء مناسبات يقتصر على يوم النكبة الفلسطينية، وهو نشاط اختياري، ولا يحرص على تنفيذه بعض المديرين. في المقابل يحرص اتحاد المعلّمين التابع للأونروا (المنقسم سياسيًّا – ضدّ أوسلو) على إحياء المناسبة وفق شروط قانون الحيادية، وتقتصر الأنشطة على الجانب الثقافي: في اللباس المطرز للطالبات، والمأكولات، والأغاني الوطنية، وإلقاء الشعر، ودرس موجّه منضبط من مدرس مادة التاريخ.

د) إن نسبة الإجابات الصحيحة قد تكون نتاج أنشطة المؤسسات الرسمية والحزبية والمجتمعية والأندية والمؤسسات العلمائية والشبابية (سبق الإشارة إليها في البحث باختصار). مع العلم أن لا تكامل بين المؤسسات في إطار جامع؛ نظرًا لتأثير المشهد السياسي الفلسطيني عليها حيث الانقسام بين مشروع أوسلو ومشروع المقاومة.

هـ) المؤسسات البحثيّة في مجمل أعمالها والنسبة الأكبر منها تخاطب الفئات الرسمية الحزبية، والباحثين والصحفيين والإعلاميين، والوجهاء والأعيان ومسؤولي الروابط، وتنشط في عقد المؤتمرات والملتقيات ونحوه...، وفي حقيقة الأمر لا تستهدف شريحة الفئات الطلابية والمدارس، مما يُضعف

(١) طبّق الباحث تقنية المقابلة مع مختصّين ومتابعين للشأن الثقافيّ، وعرض عليهم النتائج للاستماع لتوصياتهم وآرائهم، والمعالجات الواقعيّة المتاحة.

الواقع الثقافي الفلسطيني والمقدسي.

و) المؤسسات الطلابية والشابية (ذكورًا وإناثًا) بتنوّعها، والتي تستهدف شريحة الطلاب في المدراس، تقوم ببذل الوسع المتاح في مشهد صعب جدًّا على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والمعيشي وغياب بُنية تحتيّة لها، وأعمالها تطوعيّة، إضافة إلى شُح الميزانيات التشغيلية، والاعتماد على التبرّعات. هذا الواقع لا يبني ثقافة مقدسيّة متينة في مواجهة مشروع صهيونيّ إستراتيجي مدعوم توظف له الدولة العبريّة إمكانات ضخمة، وتضعه على سُلّم أولوياتها.

التوصيات الختامية: يُقدّم الباحث مجموعة من التوصيات للجهات ذات الصلة والمرتبطة بشكل مباشر بتعزيز الثقافة المقدسيّة:

* **الأونروا:** يجب إيجاد حلّ سلميّ يفرض على الأونروا تعليم مادتي تاريخ وجغرافيا فلسطين.
* **العلماء:** قيام العلماء ببرامج ودورات التثقيف الشرعي بكلّ مكوناته المتعلّقة بالقدس في خطب الجمعة، والدورات الصيفيّة، وإحياء المناسبات الوطنيّة. وعدم اقتصار الأنشطة على المؤتمرات والوقفات والخطابات ونحوه .بل لا بدّ من إقامة أنشطة تستهدف شريحة الطلاب وإشراكهم بالفعاليات، وفق ما يتناسب مع أعمارهم وبأسلوب نشط حيويّ.
* **الفصائل الفلسطينية:** عليها جمع الجهود والتكامل، وتغليب المصلحة العامّة ونبذ التفرقة ثقافيًّا رغم الخلاف السياسي.
* **اتحاد معلّمي الأونروا:** يضع الاتّحاد ضمن أولويّاته إلغاء قرار الأونروا بمنع تعليم مادتي تاريخ وجغرافيا فلسطين، وتشكيل جبهة ضاغطة من عموم الموظّفين في الدول (الأردن، فلسطين، لبنان، سوريّا) من أجل ذلك.
* **المعلّمون:** يعمل المعلّمون على تعزيز ثقافة الطلّاب بمنهج إثرائيّ ومسابقات وأنشطة، ولا ينعكس ذلك سلبًا على وظيفتهم.
* **أولياء الأمور:** القيام بإعداد عريضة ووقفات احتجاجيّة تطالب إدارة الأونروا بتعديل القرار، وربطهم بالمؤسسات الثقافيّة. «وتحمّل المسؤوليّة لتوجيه أولادهم للالتحاق ببرامج تأهيليّة مقدسيّة عبر مؤسّسات المجتمع الأهلي»[١].
* **المؤسّسات الرسميّة:** توظيف علاقاتها مع القوى والأحزاب اللبنانية للضغط على الأونروا

(١) مقابلة مع د. محمد ياسر عمرو، مدير عام أكاديمية اللاجئين الفلسطينيين، ٢٩-٩-٢٠٢٣.

لتعديل قرارها. وإقامة أنشطة تستهدف شريحة الطلاب تعزز ثقافتهم المقدسيّة بعيدًا عن المشهد والخلاف السياسيّ.

* **مراكز الأبحاث**: إعداد دراسات بحثيّة تقيس الواقع الثقافيّ الفلسطيني عمومًا، والمقدسيّ خصوصًا، وسبل النهوض به.

* **الإعلام والصحافة**: إثراء المواقع بمواد عن القدس بأسلوب فعّال وجذاب.

* **خبراء مواقع التواصل والسوشل ميديا**: «التسويق للثقافة المقدسية على مواقع التواصل بحرفية ومهنية وأسلوب جذّاب»[١]، وبطرق ووسائل تزيد من أعداد المشاهدين من الطلاب والطالبات، وتكون محطّ اهتمامهم.

* **المؤسسات المجتمعية:** تقييم منهجيّة عملها وتأثيرها، وتجديد برامجها وتنويع أساليبها، والعمل باحترافية .

* **المؤسسات التخصصيّة**: «إطلاق برامج «سفراء القدس في المخيمات»، والعمل وفق خطة، وتأمين الدعم المالي لها»[٢].

* **المجتمع الفلسطيني في لبنان**: هو منقسم سياسيًّا إلا أنّه مُحب لوطنه، وعليه بذل الوسع في إيجاد أطر جامعة تُوحّد العمل.

* **الطالب والطالبة**: «يتحمّل المسؤوليّة ويعمل على تثقيف نفسه بالحدّ الأدنى»[٣].

وفي الختام أسأل الله التوفيق، وأحمده على نعمه وفضله، على أمل أن نُصلي في المسجد الأقصى فرحين بنصر الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الملاحق:

أسماء محكّمي أداة الدراسة (الاستبانة):

١) د. محمد ياسر عمرو، مدير عام أكاديمية اللاجئين الفلسطينيين.
٢) أ. هشام يعقوب، مدير الأبحاث في مؤسّسة القدس الدوليّة، بيروت.
٣) أ. محمود موسى، رئيس هيئة نصرة الأقصى في لبنان.

(١) مقابلة مع الأستاذ إبراهيم العلي، باحث في الشؤون الفلسطينية، ٢٩-٩-٢٠٢٣.
(٢) مقابلة مع الأستاذ ياسين حمود، المدير العام لمؤسسة القدس الدولية في بيوت، ٢٨-٩-٢٠٢٣.
(٣) مقابلة مع الأستاذة أماني القدسي، مديرة روضة الأقصى، مخيم البداوي، ٢٧-٩-٢٠٢٣.

٤) أ. مريم البضن، مشرفة ومدرّبة في هيئة نصرة الأقصى.
٥) أ. فريد وحيد، تربويّ مختصّ بالمناهج.
٦) أ. سامي حمّود، مدير مؤسّسة ثابت الثقافيّة.
٧) أ. ياسر علي، مدير شبكة العودة الإخباريّة.
٨) أ. إبراهيم العلي، باحث في شؤون اللاجئين الفلسطينيين، المدير العام لجمعية «فيدار».
٩) د. إبراهيم أبو شقرا، مشرف التعليم الديني في مدارس الأونروا في لبنان (متقاعد).
١٠) أ. جهاد العويك، أستاذ لغة عربية للمرحلة الثانويّة.
١١) أ. بلال عيسى، أستاذ مادة التاريخ للمرحلة الثانويّة.
١٢) أ. مهند عبد الرحيم، مدرّب في مؤسّسة قناديل مقدسيّة، مخيّم نهر البارد.

الاستبيان للمرحلة المتوسّطة:

١) تبلغ مساحة فلسطين: ٢٦٠٠٠ كم مربع – ٢٥٠٠٠٠ كم مربع - ٢٧٠٠٠٠كم مربع .

٢) اسم الهضبة التي بُني فوقها المسجد الأقصى هي: موريا – المكبر – يهوذا .

٣) أقام اليهود مملكتين لهم على أرض فلسطين: «يهوذا» و «السامرا» في زمن نبي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام حوالي ١٠٠٠ ميلادي.(صح – خطأ)

٤) توجد آثار الكنعانيين العرب في منطقة سلوان يعود تاريخها إلى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبًا، قبل ظهور اليهود تاريخيًّا (صح – خطأ) .

٥) يعتقد النصارى أن قبر المسيح عليه السلام في مدينة القدس في كنيسة القيامة أقدس الكنائس لدى عموم الطوائف المسيحية (صح – خطأ) .

٦) صلّى النبي محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بالأنبياء إمامًا في المسجد الأقصى في رحلة الإسراء (صح_ خطأ).

٧) فتح الجيش المسلم بقيادة الصحابي خالد بن الوليد -رضي الله عنه- مدينة القدس في عام ٦٣٨ م. (صح_ خطأ)

٨) المسجد الأقصى (القبلي) ومسجد قبة الصخرة يمثل كامل المساحة المُسوّرة بشكل شبه مستطيل (١٤٤) دونمًا الواقعة في البلدة القديمة (صح_ خطأ).

٩) يُرجّح أن سيدنا آدم عليه السلام والملائكة من بنى المسجد الأقصى أول مرّة (صح- خطأ)

١٠) كسا القائد نور الدين زنكي قبّة المسجد الأقصى بالفسيفساء، ووضع منبرًا مرصّعًا بالعاج مصنوعًا من خشب الأرز على يمين المحراب (صح – خطأ)

١١) القائل: لن أسمح لليهود بالإقامة في فلسطين ما دامت الخلافة العثمانية قائمة هو السلطان عبدالحميد الثاني (صح_ خطأ)

٢١) الذي أحرق المسجد الأقصى يهودي يدعى «روهان» يوم: ٢٠٢٢/٨/٢١م وبلغ الجزء المحترق من المسجد ثلث مساحة المسجد الإجمالية. (صح – خطأ)

١٣) المسجد الأقصى هو ثاني مسجد بُني على الأرض بعد المسجد الحرام، وبينهما ..... **سنة**

١٤) نصب القائد صلاح الدين الأيوبي منبرًا في المسجد الأقصى **عام.....م**

١٥) ما اسم السورة القرآنية التي تحدّثت عن المسجد الأقصى؟

١٦) أكمل الفراغ: « لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:..... » .

١٧) فضل الصلاة في المسجد الأقصى بـ .....صلاة .

١٨) المسجد الأقصى هو ..... الحرمين، وأولى .....

١٩) الخليفة الأموي الذي بنى مسجد قبّة الصخرة هو .....

٢٠) بدأت العصابات الصهيونية « الهاجانا « وغيرها بمهاجمة القرى الفلسطينية وارتكاب المجازر فيها عام....

٢١) احتل الصهاينة مدينة القدس والضفة الغربية في حزيران سنة .....

٢٢) وزير خارجية بريطانيا الذي أعطى وعًدا لليهود بإقامة وطن قومي على فلسطين هو .....

٢٣) أذكرُ أبرز المعالم التاريخية الحضارية في مدينة القدس القدس:.....

٢٤) أبرز أسماء قادة الثورة الفلسطينية من مدينة القدس وأعلامها:.....

٢٥) أشهر العائلات المقدسيّة التاريخيّة، هي:.....

٢٦) من العادات والتقاليد التراثية في المدينة:.....

٢٧) المأكولات الشعبية في المدينة : .....

٢٨) الزي الشعبي للقرى المقدسية : .....

٢٩) من أهم الحرف اليدوية في مدينة القدس: .....

٣٠) من أبرز شعراء مدينة القدس.....

الاستبيان للمرحلة الثانويّة:

١) كم تبلغ مساحة فلسطين؟ ٢٧٠٠٠٠كم مربع

٢) ما اسم الهضبة التي بني فوقها المسجد الأقصى ؟ هضبة موريا

٣) أقام اليهود مملكتين لهم على أرض فلسطين: «يهوذا» و «السامرا» في زمن نبي الله داود وابنه عليهما السلام حوالي ١٠٠٠ ميلادي.(صح – خطأ).

٤) توجد آثار للكنعانيين العرب في منطقة سلوان يعود تاريخها إلى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبًا،

قبل ظهور اليهود تاريخيًّا (صح – خطأ) .

٥) يعتقد النصارى أنّ قبر المسيح عليه السلام في مدينة القدس في كنيسة القيامة أقدس الكنائس لدى عموم الطوائف المسيحية (صح – خطأ) .

٦) المسجد الأقصى هو ثاني مسجد بُني على الأرض بعد المسجد الحرام، وبينهما **٤٠ سنة.**

٧) نصب القائد صلاح الدين الأيوبي منبرًا في المسجد الأقصى **عام ١١٨٧ م.**

٨) اسم السورة القرآنية التي تحدثت عن المسجد الأقصى ؟ سورة الاسراء.

٩) أكمل الفراغ : « لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، .المسجد الحرام،.المسجد النبوي، المسجد الأقصى» متفق عليه.

١٠) فضل الصلاة في المسجد الأقصى بـ خمسمائة ٥٠٠ صلاة .

١١) المسجد الأقصى هو ثالث الحرمين، وأولى القبلتين.

١٢) صلى النبي محمد -صلّى الله عليه وسلم- بالأنبياء إمامًا في المسجد الأقصى في رحلة الإسراء (صح_ خطأ).

١٣) فتح الجيش المسلم بقيادة الصحابي أبو عبيدة عامر بن أبي الجراح رضي الله عنه مدينة القدس في عام ٦٣٨ م. (صح_ خطأ)

١٤) المسجد الأقصى(القبلي) ومسجد قبة الصخرة يمثل المساحة المُسوّرة (١٤٤) دونمًا الواقعة في البلدة القديمة في القدس(صح_ خطأ).

١٥) يرجّح أن سيدنا آدم عليه السلام والملائكة من بنى المسجد الأقصى أول مرّة(صح_ خطأ) .

١٦) الخليفة الأموي الذي بنى مسجد قبة الصخرة هو عبد الملك بن مروان(صح_ خطأ) .

١٧) كسا القائد صلاح الدين الأيوبي قبة المسجد الأقصى بالفسيفساء، ووضع منبرًا مرصّعًا بالعاج مصنوعًا من خشب على يمين المحراب (صح – خطأ) .

١٨) من القائل : لن أسمح لليهود بالإقامة في فلسطين مادامت الخلافة العثمانية قائمة (السلطان عبدالحميد الثاني) (صح_ خطأ)

١٩) بدأت العصابات الصهيونية « الهاجانا « وغيرها بمهاجمة القرى الفلسطينية وارتكاب المجازر فيها عام ١٩٤٨.

٢٠) احتل الصهاينة مدينة القدس والضفة الغربية في حزيران من عام ١٩٦٧ .

٢١) وزير خارجية بريطانيا الذي أعطى وعدًا لليهود بإقامة وطن قومي على فلسطين، هو: بلفور.

٢٢) الذي أحرق المسجد الأقصى يهودي يدعى «روهان» يوم: ١٩٦٩/٨/٢١م وبلغ الجزء المحترق ثلث مساحة المسجد الإجمالية. (صح – خطأ)

٢٣) أبرز المعالم التاريخية الحضارية في مدينة القدس؟ المسجد القبلي، مسجد الصخرة المشرفة، الكنيسة المقدسة، القلعة الرومانية، باب العامود، الحائط الغربي.

٢٤) أبرز أسماء قادة الثورة الفلسطينية من مدينة القدس وأعلامها: عبدالقادر الحسيني، فخري العتيق، أمين الحسيني، محمد أبو زيد، فوزي القواسمي، محمد عجينة.

٢٥) أشهر العائلات المقدسية التاريخية، هي: الحسيني، الجعبري، القشلان، الشرفي، الجابري، الهاشمي، العلمي، الخالدي، الدجاني، النشاشيي، البيطار، نسيبة.

٢٦) من العادات والتقاليد التراثية في المدينة: الزيارات والتواصل بين أفراد المجتمع، زيارة الأماكن المقدسة، الرباط في المسجد الاقصى، إحياء المناسبات.

٢٧) المأكولات الشعبية في المدينة: الحمص، الفلافل، المقلوبة، الكنافة، الكعك، المسخن، الفتة، القطايف والنمورة، شراب الخرنوب والسوس، الشوربة .

٢٨) الزي الشعبي للقرى المقدسية : القمباز، دماية الصوف، السروال، ثوب المردن، ثوب الملك، الثوب المطرز، القمباز، العباءة، الكوفية.

٢٩) الحرف اليدوية في مدينة القدس: الخياطة، النسيج، الخزف، التطريز.

٣٠) من أبرز شعراء مدينة القدس: فرح بن عمرو القسطنطيني، محمود درويش، سعيد عكوب، محمد الماغوط، أحمد رامي.

قائمة المصادر والمراجع:

- جون سكوت: علم الاجتماع، المفاهيم الأساسية، ترجمة:محمد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٣م.
- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون. ت: د. عبدالله محمد الدويش. دار البلخي، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤ م.
- عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٦م.
- فريد كامل أبو زينه: أساسيات القياس والتقويم في التربية، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط١.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة. ترجمة: عبدالصبور شاهين. دار الفكر ـ دمشق، ط٤، ١٤٢٠هـ ـــ ٢٠٠٠م .
- محمد بن أحمد بن الأزهري، أبومنصور(٣٧٠هـ):تهذيب اللغة، تحقيق: محمد مرعب، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج٩.
- محمود عبد الحليم منسى: التقويم التربوي، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩١م.
- محمد السيد محمد مرزوق: دليل المعلم إلى صياغة الأهداف التعليميّة السلوكيّة والمهارات التدريسيّة، دار ابن الجوز: ١٤١٦ ه.
- هارلمبس، وهولبورن: سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة: حاتم حميد محسن، ط١، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
- وحدة تطوير المحتوى العلمي في ملتقى القدس الثقافي:»العالم في مدينة: القدس كما لم تعرفها من قبل»، تقديم: أ.د. عماد خليل، عمّان، ط١، ٢٠١٨.
- Sari Hanafi and Taylor Long, »Governance, Governmentalities, and the State of Exception in the Palestinian Refugee Camps of Lebanon«, Oxford Refugee Studies, vol. 23, no. 2 (2010), pp. 3460-
- John Murray» :Primitive Culture،« London 1871.

- مقالات ومواقع شبكة العنكبوت:
- **أسيل جندي: مقال بعنوان:** المناهج المدرسية.. معركة أخرى مع إسرائيل بالقدس،١/٩/٢٠١٤، أنظر موقع: https://www.aljazeera.net/.
- انتصار الدنان، مقال: «فلسطينيّو الشتات لا يدرسون تاريخهم»، ٢٢ -١- ٢٠١٥، أنظر موقع: https://www.alaraby.co.uk
- حنا عيسى:» الشعب الفلسطيني ... أكثر الشعوب ثقافة وطنية»، مقال في موقع: https://www.amad.ps/٨
- رانية إلياس: «دور الثقافة في حماية الهوية وتعزيز المقاومة والصمود»، مقال في مجلة: المركز الفلسطيني لمصادرة حقوق المواطنة: «بديل»، https://www.badil.org/
- مقال بعنوان:»الثقافة في فلسطين» أم «الثقافة الفلسطينية»، انظر: https://rommanmag.com/view/posts/٢٠١٦-١٢-٢٠.
- ملتقى وزارة الثقافة مع «الألكسو»، الدار البيضاء، المملكة المغربية، بعنوان: صياغة رؤى للعمل الثقافي العربي (خلال الفترة ٢٨-٣٠ تشرين الثاني، ٢٠١٧).
- مخرجات الندوة الثقافيّة، بعنوان: «ثقافتنا في مواجهة الصهيوني» التي عقدت بجامعة الخليل، جنوب الضفة الغربية، ضمن فعاليات يوم الثقافة الوطنية، بتاريخ: ٢٢-٣-٢٠١٢. انظر الموقع: https://www.aljazeera.net/culture/
- عزيز العصا: المشهد الثقافي المقدسي،٢٢ كانون الثاني٢٠١٨، مقال في موقع: شبكة "هنا القدس" للإعلام المجتمعي
- الشيخ، عبد الرحيم: «متلازمة كولومبوس وتنقيب فلسطين»: جينيالوجيا سياسات التسمية الإسرائيلية للمشهد الفلسطيني. مجلة الدراسات الفلسطينية؛ عدد ٨٣، ٢٠١٠: ٨٥.
- جابر سليمان:تأثير تطور الأزمة اللبنانية على اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، تقدير استراتيجي ١٢٤، كانون الثاني/ يناير٢٠٢١، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت .
- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣(نحو إقامة مجتمع المعرفة) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي: عمّان، أبريل ٢٠٠٤ انظر الموقع: bit.ly/Muh٠yR٢

- دراسة حول واقع اللاجئين في لبنان، إعداد الجامعة العربية الأمريكية، وكالة وفا: bit. ٣٤OGjSN/ly
- رضوان عبد الله : مقال بعنوان: الواقع التربوي والتعليمي للطلبة الفلسطينيين في لبنان، /https://diffah.alaraby.co.uk .٢٠١٤/١١/١٦
- رباب دبس : مقال بعنوان: نحو مخيم فلسطيني جديد.. دور الثقافة والمجتمع المدن ٢١،يونيو /uk.co.alaraby.diffah//:https ٢٠٢٢
- المؤسسة الفلسطينية لحقوق الإنسان (شاهد): دراسة عن الواقع الصحي للفلسطينيين في لبنان، شباط، ٢٠٠٩: ٢RQqq٩٧/ly.bit
- مقال بعنوان: « الفصائل الفلسطينية في المخيم»، موسوعة المخيمات الفلسطينية: bit. ٢Z٩٢٠fo/ly (بتصرف).
- net.lb-palembassy.www//:https
- //https://refugeesps.net/post
- https://www.alkhairfund.org
- /٨٥٠١٥٦/١٣/٠٩/٢٠٢٣/https://palinfo.com/news
- //https://alawda-mag.net
- /https://www.aljazeera.net/culture
- ٢٠٢٣ /https://palcamps.net/ar/camp
- //com.qudspress//:https
- ٩١٦٨=https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id
- https://www.unrwa.org/ar/activity :
- /https://www.unrwa.org/ar/where-we-work
- Culture: The Meaning, Characteristics, and Functions", http://www." ,yourarticlelibrary.com
- ،"Sally Painter, "Why Is Culture Important? Impact on People & Society family.lovetoknow.com

- ، "Why Is Culture so Important to Society?", www.reference.com ,٠٦-٠٤-٢٠٢٠
- https://www.marefa.org/

المسكوتُ في المصطلح الأصوليّ

د. عصام عبد المولى[١]

ملخص البحث

استعمل علماء أصول الفقه مصطلح «المسكوت» في العديد من المواضع، ومن أهمّها مباحث المنطوق والمفهوم، ومباحث القياس، ومباحث العفو والمباح. وتوصّل الباحث إلى أن المقصود من مصطلح السكت هو «عدمُ التّنصيصِ المباشرِ مِن قِبَل المُشرِّع على الحُكم، مِن غيْر وجود التزامٍ بين المسكوتِ والمنصوصِ، ولم يكن السكوتُ للضّرورةِ، أو للعفوِ». وتتقاطع المصطلحات ذات الصّلة مع المفهوم من زاوية عدم التّنصيص، بينما تختلف في رتبة ذلك، والدّلالة الخاصة التي يمتاز بها كل مفهوم.

ولكي تكتمل الصورة المبيِّنة للمسكوت عند الأصوليّين بيّن الباحث حجم المسكوت عنه بالنّسبة للمنصوص عليه، ورأيَ العلماء في هذا الحجم، ومدى شمول النصّ للوقائع المسكوت عنها.

الكلمات المفتاحية: المسكوت، المنصوص، العفو، دلالة الالتزام، بيان الضرورة.

Abstract

In these pages the researcher will shed light on the concept of unmentioned events in the view of AL-Usooleen and clear up the relationship between unmentioned events and other similar idioms.

The researcher will only show the sorts of unmentioned events without speaking about the ways that AL-Usooleon have used to know the rule of unmentioned events. After that the researcher will show the size of unmentioned events in relation to the mentioned ones. He will also mention the opinions of some AL-Usooleen in this size.

Then he follows the comparative method in order to choose the best opinion.

(١) أستاذ مشارك في المقاصد والسياسة الشرعية، جامعة بشاك شهير، تاريخ استلام البحث، ٢٠٢٣/٩/١م، وتاريخ قبوله للنشر، ٢٠٢٣/١٠/١م

تمهيد:

لا يخفى على المتخصصين أن مِن متطلبات الرسالة الخالدة احتواؤها على مقومات ذاتية تضمن الاستمرارية والخلود، وليس من هذه المقومات التنصيص على حُكم شرعي لكل حادثة وواقعة، إذ يعسر هذا الأمر؛ إذ الوقائع غير محصورة، متجددة تجدد الزمان، بل إنّ من كمال الشريعة التنصيص على المبادئ الكلية، والأساسات الراسخة، وفتح الآفاق للمجتهدين للانطلاق من تلك الأسس، وَفق متطلبات كل عصر. وبالتالي فإن محدودية النصوص تعد سمة مدح للشريعة الإسلامية، وهو سر خلودها، والنقص يكمن في التنصيص على الأحكام كلِّها؛ حاضرها ومستقبلها. ولعلّ النظر إلى التنصيص على كل الأحكام ـ من زاوية أنه يقطع الاختلاف، ويجمع ولا يفرق ـ يقدم رؤية إيجابية للتنصيص، ولكن هذه الإيجابية ستنحسر أمام التضخم الهائل الذي سينتج عن التنصيص.

قد أراد الله تعالى الاختلاف المثمر لهذه الأمة، ولو أراد عكسه لكان هذا ظاهرًا؛ فقد قال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]. إن الله تعالى قادر على أن يجعل الكتاب كله من «المحكم»، لكن رحمته بهذه الأمة اقتضت وجود دائرة من الاختلاف. فالاختلاف سمة حضارية، وهو سبب ثراء، وبالتالي فإن محدودية النصوص، وعدم التنصيص على كل الأحكام أكثر إيجابية من التنصيص، لكن هذه المحدودية للنصوص لا تتناسب طردًا مع الوقائع المتجددة وغير المحصورة، والتي تحتاج لأنْ تتأطر في إطار شرعي، وتعطَى حكمها الدقيق. ولا يخفى أن الله عز وجل قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وذكر عامة المفسرين أن لمعنى «الكتاب» قولين؛ الأول: إن الكتاب هو اللوح المحفوظ، فتكون معنى الآية: ما تركنا شيئًا إلا وقد كتبناه في أم الكتاب. أما القول الثاني: إن الكتاب هو القرآن، فتكون معنى الآية: ما تركنا من شيء إلا وقد بيناه لكم؛ إما تصريحًا، وإما تلميحًا..

فالله تعالى قد تكفل باستمرار هذه الشريعة، وبقائها إلى قيام الساعة، وشمر العلماء عن ساعد الجد، وبدؤوا بالبحث والكشف عن المصادر التي تساعدهم في الحكم على الوقائع، وبالتالي كشفوا عن كيفية تحقق معجزة استمرارية هذه الشريعة. وظَهرت براعتهم أكثر في كيفية التعامل مع الوقائع

المتجددة المسكوت عنها، والتي لم ينصَّ الشارع على حكمٍ لها، فاستخدم جميع الفقهاء آلية لتعدية حكم المنصوص إلى غير المنصوص، وبالتالي أثبتوا حكمًا لكل مسكوت، وكانت هذه مِيزة الشريعة الإسلامية التي انفردتْ بها عن بقية الشرائع.

في هذه الورقات، سأبين مفهوم «السكت» من الزاوية الأصولية، وفي دراسة أخرى لاحقة أبين كيفية معالجة الشريعة للوقائع المسكوت عنها، والتي تمت عن طريق آلية التعدية والإلحاق.

إشكالية الدراسة:

سؤال البحث الرئيس متعلق ببيان كنه مصطلح «المسكوت» من الزاوية الاستعمالية الأصولية، ثم ذِكر تقاطعاته مع المصطلحات ذات الصلة.

الدراسات السابقة:

المستقرئ للمكتبة الإسلامية سيعثر على عدة جهود علمية سابقة، تحوم حول بعض مفردات هذا الموضوع، ربما اشتركت تقريبًا في العنوان، لكن الفرق بدا واضحًا في زاوية التناول والدراسة. ومن أبرز الدراسات السابقة:

الدراسة الأولى:

كانت الدراسة الأولى تحت عنوان «السكوت والترك وأثرهما في الاجتهاد»، وهي رسالة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه، في كلية الشريعة بجامعة دمشق، قام بإعدادها الباحث باسل محمود الحافي عام ٢٠٠٥م، بإشراف أ. د. محمد وهبة الزحيلي، أ. د محمد خير هيكل، وبلغ عدد صفحاتها: ٥٧٧ صفحة.

شملت هذه الرسالة على فصل تمهيدي، وأربعة فصول:

الفصل الأول: الترك والسكوت الصادران عن المشرع، ثم عن مجتهدي السلف الصالح.

الفصل الثاني: المتروك أو المسكوت عن بيانه بين التأصيل الشرعي والتبديع.

الفصل الثالث: أثر قاعدة السكوت في مشروعية الاجتهاد.

الفصل الرابع: مسائل تطبيقية تتعلق بقاعدة السكوت والترك.

الرسالة تميزت بجهد علمي ملحوظ، ولكن لا بد من بيان بعض النقاط المتعلق بها:

* قد وسع الباحث معنى السكت، فقد شمل في تعريفه للسكت سكوت السلف الصالح.
* لم يُبين الباحث الفرق بين السكت، وما يشتبه به من المصطلحات ذات الصلة، كالالتزام.
* فَصَّل في سكوت المشرع وبيانه حكمه الشرعي إلى: السكوت في علم العقيدة، والسكوت في العبادات، والسكوت في أحكام الأعيان... وأظن أن من الأفضل إعطاء قاعدة عامة لمعرفة حكم المسكوت، وبالتالي تُعرف أحكام تلك المسكوت منها بشكل آلي.

الدراسة الثانية:

أما الدراسة الثانية فعنوانها: «السكوت وأثره على الأحكام في الفقه الإسلامي»، للدكتور رمزي محمد علي دراز، نشرت عام ٢٠٠٤، وبلغ عدد صفحاتها: ٤١٧ صفحة.

شمل هذا البحث على فصل تمهيدي، وبابين:

الفصل التمهيدي: التكييف الفقهي لقاعدة: لا يُنسب إلى ساكت قول..

الباب الأول: التعريف بالسكوت، والتمييز بينه وبين ما يشتبه به.

الفصل الأول: تعريف السكوت وبيان عناصره:

الفصل الثاني: التمييز بين السكوت وما يشتبه به.

الباب الثاني: حكم السكوت بمعنى وصفه الشرعي:

الفصل الأول: حكم السكوت.

الفصل الثاني: حكم السكوت بمعنى الأثر المترتب عليه:

وأرصد أهم الملاحظات:

❋ اقتصر الباحث - كما بيَّن في مقدمة بحثه- على شرح القاعدة الأصولية: تحليلًا وبيانًا، وجعلها محور الدراسة، وهو ما يفترق عن البحث الحالي

❋ جاء تعريف السكوت منسجمًا مع المحور الذي اختاره الباحث، وهو: موقف سلبي لا يدل على الإرادة إلا عند الحاجة.

❋ عرَّف الساكت بأنه الشخص الذي يلزم الصمت حيال أمر معين، وهذا دليل آخر على أن المراد به سكوت المكلف فقط، وهو عكس اتجاه البحث التي بين أيدينا؛ لذا لا داعي للكلام عن بقية الرسالة؛ إذ خطتها توضح اتجاه الباحث البعيد عن اتجاه البحث الذي نحن في صدده.

الدراسة الثالثة:

كانت الدراسة الثالثة تحت عنوان «السكوت ودلالته على الأحكام الشرعية»، للدكتور رمضان علي السيد الشرنباصي، وبلغ عدد صفحاتها: ٢٨٨ صفحة.

شملَ هذا الكتاب على ثلاثة أقسام، وخاتمة:

يحتوي القسم الأول على:

دلالة السكوت على الأحكام في السنة.	حكم الأشياء المسكوت عنها.
الإجماع السكوتي.	المسكوت وأثره في العرف.

شمل القسم الثاني على:

السكوت والتعبير عن الإرادة	السكوت والإجازة
السكوت والإسقاط	السكوت والصلح
السكوت الذي يُعتبر تدليساً	السكوت والوديعة
السكوت والشفعة	السكوت والقرعة
السكوت والشاهد	

تميز الكتاب بجهد علمي ملحوظ، ولكن لا بد من بيان بعض النقاط المتعلق بها:

- جعل المؤلف السكوت مشتملًا على سكوت المشرع، وسكوت المكلف.
- فصل كثيراً في سكوت النبي ﷺ.
- لم يميز بين المسكوت وما يتشابه معه، كدلالة الالتزام.
- فصَّل كثيراً في سكوت المكلف، من حيث: كونه سكوتًا واجبًا أو محظورًا، وسكوت الشاهد..
- **أخيراً**: الزاوية التي انطلق منها في المسكوت غير الزاوية الموجودة في ثنايا هذا البحث.

محددات البحث:

لا بد من الإشارة إلى تحديد نوع «المسكوت» الذي سينصب الجهد عليه في هذا البحث. إن المفهوم الذي سأركز عليه في هذا البحث هو «السكوت التشريعي»؛ أي: سكوت المشرِّع، وهو الصادر مِن الله تعالى، ويدخل فيه سكوتُ رسولِهِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله ﷻ أمرنا باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا ما بيَّنَتْه الآية الكريمة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. أما سكوت غيْرِ المشرِّع، كالمكلفين، فهو خارج عن مجال دائرة البحث.

خُطة البحث:

قسم الباحث موضوع الدراسة إلى مبحثين، وسيتناول الباحث في المبحث الأول تعريف المسكوت في اللغة، وفي الاصطلاح، ومن ثَم يشرح مفردات التعريف الاصطلاحي، ويعطف على ذلك تعريف العفو، وتعريف دلالة الالتزام، وتعريف بيان الضرورة، مع الإشارة إلى صلة هذه المصطلحات بعنوان البحث، لتكون خاتمة هذا المبحث بذكرٍ موجز لأنواع المسكوت.

وفي المبحث الثاني سيسلط الضوء على شمولية النص الشرعي لأحكام المسكوت، مع بيان الأدلة على ذلك الشمول، مع ذكر عينة من أقوال الصحابة في تقريرهم لهذا الأصل، ومبينًا أيضًا المقدار التقريبي للوقائع المسكوت عنها، مع مناقشة رأي الباقلاني حول خلو الواقعة عن حكم لله فيها، لنصل بعد ذلك إلى الخاتمة ونتائج البحث.

المبحث الأول: تعريف المسكوت.

سأتناول في هذا المبحث التعريف اللغوي، إضافة إلى التعريف الاصطلاحي للـ: (المسكوت)، ومن ثَم أشرع بتعريف بقية المصطلحات المشابهة للمسكوت، وهي: (العفو، دلالة الالتزام، بيان الضرورة)، وأختم هذا المبحث بذكر أنواع المسكوت.

المطلب الأول: تعريف المسكوت.

التعريف اللغوي: المسكوت اسم المفعول من سَكَتَ، ويُقصد به ما وقع عليه السكت، ولمعرفة معنى المسكوت يتعين علينا تعريف السكت.

تعريف السكت:

السين والكاف والتاء، يدلان على خلاف الكلام[١]، وسَكَتَ، يَسكُتُ سُكوتًا وسَكْتًا، إذا قطع الكلام[٢]، والسُّكوت: ترك التكلم مع القدرة عليه[٣]، فهو مختص بترك الكلام[٤].

ورَجُلٌ سَكْتٌ: قليلُ الكلامِ، فإذا تكلم أحسن[٥].

ورجل سِكِّيتٌ وسَاكُوت؛ أي: كثيْر السكوت[٦] وصَموت[٧]، وبه سُكَات: إذا كان طويل السكوت

(١) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، مادة: سكت، (دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧٩م).

(٢) يُنظر مادة «سكت» في المصادر التالية: الأزهري، محمد، تهذيب اللغة، (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م) ؛ ابن عباد، إسماعيل، المحيط في اللغة، (عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٤)

(٣) يُنظر في مادة سكت في المصادر الآتية: ابن منظور، محمد، لسان العرب، (دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ) الجرجاني، علي، التعريفات، رقم: ٧٧٨ (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣)؛ الزبيدي، مرتضى، تاج العروس، (وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ط١، ٢٠٠١).

(٤) الراغب الأصفهاني، الحسين، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: سكت، (دار القلم، الدار الشامية، دمشق، ط١، ٢٠١٢)

(٥) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة: سكت. (مؤسس الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥)

(٦) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: سكت.

(٧) الفراهيدي، كتاب العين، مادة: سكت.

مِن عِلةٍ؛ شربةٍ أو دواء[١]. وتأتي سَكَت (مجازاً[٢]) بمعنى: سَكَن، وفَتَر[٣]؛ بسبب كون السكوت ضربًا من السكون[٤]؛ ولذلك استُعيْر له في قول الله ﷻ: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ} [الأعراف: ١٥٤]. وضَرَبْتُه حتى أسْكت؛ أي: انقطع ولم يتكلم [٥].

وتأتي سكت أيضاً بمعنى مات [٦]، وجاء في حديث ماعز [٧]: «فرميناه بجَلاميد[٨] الحَرَّة[٩] حتى سكت؛ أي: سكن ومات[١٠].

من خلال ما سبق، تحصَّل لدينا ثلاثة معانٍ لكلمة سكت؛ الأول: قطع الكلام. والثاني: الفتور. بينما المعنى الثالث: الموت.

المعنى الثاني والثالث ضرب من المجاز، حسب ما نص عليه علماء اللغة، وليس له عِلاقة ببحثنا. أما المعنى الأول فهو على الحقيقة، وهو الذي تربطنا به القرابة، وإن كانت بعيدة، في البحث كما سنبين لاحقًا.

التعريف الاصطلاحي:

إنَّ الفقهاء قد استعملوا في كتبهم عبارة «المسكوت»، وتكررت هذه العبارة مراراً في كتبهم،

(١) يُنظر في مادة سكت في المصادر الآتية: الفراهيدي، كتاب العين؛ الزمخشري، محمود، أساس البلاغة، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨).

(٢) الزمخشري، أساس البلاغة، مادة: سكت.

(٣) يُنظر في مادة سكت في المصادر الآتية: الفراهيدي، كتاب العين؛ الأزهري؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة؛ ابن منظور، لسان العرب؛ الزبيدي، تاج العروس.

(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: سكت.

(٥) يُنظر في مادة سكت في: ابن عباد، المحيط في اللغة؛ الزمخشري، أساس البلاغة.

(٦) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة: سكت.

(٧) صحيح مسلم، كتاب: الحدود. باب: من اعترف على نفسه بالزنى. رقم: ١٦٩٤

(٨) الجلمود: الصخر. (ابن منظور، لسان العرب، مادة: جلمد.)

(٩) الحَرَّة: الأرض ذات الحجارة السوداء. ابن الأثير الجزري، محمد بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٦٥/١، (المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩)

(١٠) ابن الجوزي، عبد الرحمن، غريب الحديث، باب: السين مع الكاف، ٤٨٨/١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥)؛ ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، باب: السين مع الكاف، ٣٨٣/٢

ولكنْ لم أقع على من عَرَّفَ هذه الكلمة تعريفًا اصطلاحيًّا جامعًا. ومن خلال تتبع واسع لكلمة «المسكوت» في مصادر متنوعة من كتب أصول الفقه، تبين لي بعد هذا الاستقراء النتائج الآتية:

* قد استعمل الأصوليون كلمة «مسكوت» في العديد من المواضع، ومن أهمها مباحث المنطوق والمفهوم، ولم أجد تعريفًا منهم للمسكوت، ولكن يمكن فهم التعريف نفسه، الذي جاء بالسياق نفسه الموجود في حاشية ابن عابدين، والذي سيذكر بعد قليل[١].

* قد استعمل الأصوليون كلمة «مسكوت» أيضًا في أثناء عرضهم لمباحث القياس.. [٢]، ومباحث العفو والمباح[٣].

* إنَّ التعريفَ الذي ذكره ابن رجب قد اختَلَطَ بتعريفِ العفو، حيث قال المؤلف[٤]: «وأما المسكوتُ عنه: فهو ما لم يُذكر حكمُه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم، فيكون معفواً عنه، لا حَرَجَ على فاعله».

* التعريف الثاني المختصر الوارد في كتاب حاشية ابن عابدين أقرب إلى اللغة، وغيْر جامع، وورد عَرَضًا أثناء الحديث عن دلالة المفهوم: «والمفاهيم جمع مفهوم، وهو دلالة اللفظ على مسكوت عنه، وهو قسمان: مفهوم الموافقة، وهو أن يكون المسكوت عنه؛ **أي:** غيْر المذكور موافقًا للمنطوق؛ أي: المذكور في الحكم[٥]».

(١) يُنظر: ابن قدامة، موفق الدين، روضة الناظر: ١ /٢٦٤ - ٢٦٥ – ٢٦٨ – ٢٦٩ (مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤١٧)؛ الغزالي، محمد بن محمد، المستصفى: ١/١٨٤ (دار الأرقم، بيروت، د. ت)؛ الرازي، محمد بن عمر، المحصول: ١٤/٣ (جامعة الإمام سعود، الرياض، ط١، ١٤٠٠)؛ الجويني، عبد الملك، البرهان: ٢٩٨/١ (دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٩٧)؛ ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام: ٣٢٥/٧ (دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت)؛ ابن السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج: ٣٦٩/١؛ الإحكام، الآمدي: ٧٩/٣؛ ابن بدران، عبد القادر، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل: ١ /٢٧٥ (الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠١)

(٢) يُنظر: ابن قدامة، روضة الناظر: ٢٩٣/١؛ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة: ٨٩/١ – ٩٠؛ الغزالي، المستصفى: ١ /٣٠٢؛ الرازي، المحصول: ١٧٠/٥؛ الجويني، البرهان: ٢ /٥٠٢؛ ابن السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج: ٣ /٨٠؛ ابن بدران، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل: ١ /٣١٨

(٣) يُنظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة: ١ /١٧٣؛ الزركشي، المنثور في القواعد: ٢ /٧٠؛ السيوطي، الأشباه والنظائر: ١ /٦٠؛ ابن القيم الجوزية، محمد، إعلام الموقعين: ١ /٢٤٢ (دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٦)

(٤) ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن، جامع العلوم والحكم: ٢٨٢/١ (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٩٩٧)

(٥) ابن عابدين، حاشية ابن عابدين، مطلب في دلالة المفهوم: ١١٠/١

وبعد تحليلٍ للاستعمالات السابقة يمكن تعريف السكت بأنه: عدمُ التنصيصِ المباشرِ مِن قِبَل المُشرِّع على الحكم، مِن غيْر وجود التزامٍ بين المسكوتِ والمنصوصِ، ولم يكن السكوتُ للضرورةِ، أو للعفوِ.

شرح التعريف:

المقصود من قيد: «عدم التنصيص» إخراج الوقائع المنصوص على حكمها؛ فهي لا تُعد من قبيل المسكوتات.

المقصود من قيد: «المباشر» إدخال الدلالة غيْر المباشرة على الحكم؛ لأنه لابد لكل واقعة من حكم لله فيها[١]؛ وهذا الحكم يُعرَف بشكل مباشَر من التنصيص عليه من قبل المشرع، أو يُستنبط بشكل غيْر مباشر، كما سيأتي تفصيله في ثنايا الرسالة.

و«المُشرِّع» أي مَن له صفة تشريع الأحكام ابتداءً، وهو الله ﷻ، ونبيه عليه الصلاة والسلام، ويَخرُج بذلك جميعُ البشر؛ فليس لهم أيُّ صفةٍ تشريعية بعد الوحي، وإنما هم مُبَلِّغون، لا مُشرِّعون.

المقصود من قيد: «مِن غيْر وجود عِلاقة[٢] بين المسكوت والمنصوص» إخراجُ دلالةِ الالتزام، التي يكون فيها المسكوت مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا مع المنصوص، لكن تَمَّ حذفُه للاختصار، وسيأتي تفصيلٌ لذلك قريباً.

والمقصود من قيد: «ولم يكنِ السكوتُ للضرورة» إخراجُ بيانِ الضرورة، الذي هو من أنواع البيان عند الحنفية، كما سيتبيَّن لنا ذلك لاحقًا.

والمقصود من قيد: «أو للعفوِ» إخراجُ المَعْفُوَّات، والتي أَمَرَ النصُّ القرآني، والنصُّ النبوي بعدم السؤال عنها، أو التنقيب على حكمها.

---

(١) والآية التي تشهد لذلك: «مَا فَرَّطْنَا في الكِتابِ مِنْ شَيءٍ» [الأنعام: ٣٨]

(٢) العِلاقة بكسر العين، وهي في الأصل ما تعلق الشيء بغيْره، نحو: عِلاقة السوط والقوس، وغيرهما... أما العَلاقة بفتح العين، فهي علاقة الخصومة والحب، وهي تعلق الخصم بخصمه، والمحب بمحبوبه. الطوفي، سليمان، شرح مختصر الروضة: ٥٠٦/١، (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٧). وبفتح العين؛ على الأصل في المعاني، وبكسرها؛ على التشبيه بالأجسام، من علاقة السَّوط. (ابن النجار، شرح الكوكب المنير: ١٥٥/١)

المطلب الثاني: تعريف العفو.

التعريف اللغوي:

العينُ والفاء والحرف المعتل أصلان[١] يدل أحدهما على ترك الشيءِ، والآخرُ على طلبه[٢]. وأصلُ معناه التَّرك، وعليه تدور معانيه، فيُفَسَّرُ في كل مقام بما يناسبه؛ مِن تركِ عقابٍ، وعدم إلزامٍ مثلًا[٣]. فالعفو يطلق على التجاوزِ والتجافي عن الذنب، والصفحِ عن الجاني، وتركِ العقاب عليه، وبالتالي فأصله المحو والطمسُ[٤]، ومنه قول الله تعالى: ﴿عفا اللهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣] أي: محا ذنوبك. ومنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام: «تعافوا الحدود فيما بينكم»[٥] أي: تجاوزوا عنها ولا ترفعوها إليَّ[٦].

والأصلُ تعافوا عن الحدود؛ أيْ: لِيَعْفُ كلٌّ منكم عن صاحبه، إلا أنه حُذِف (عن) وأُوصِلَ الفعل، أو ضُمِّن معنى التَّرْك، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَه[٧].

والعفو مُستعارٌ لِلتَّجَافِي عن الحقِّ وَطَلَبِه، كما في قوله عليه الصلاة والسلام[٨]: «قد عَفوتُ عن

(١) والمقصود بـ (أصلان) أنهما حرفان أصليان، وليسا زائدين، كما نص على ذلك أهل الصرف، يُنظر: ابن جني، عثمان، المنصف: ١١/١ (مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٧١)؛ ابن يعيش، موفق الدين، شرح الملوكي في التصريف: ١١١- ١١٢ (المكتبة العربية، حلب، ط١، ١٣٩٣)

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة: عفو

(٣) يُنظر مادة: (عفو) في المصادر الآتية: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة؛ المطرزي، المُغرب في ترتيب المُعرِب؛ الزبيدي، تاج العروس.

(٤) يُنظر مادة: (عفو) في المصادر الآتية: الفراهيدي، كتاب العين؛ ابن عباد، المحيط في اللغة؛ الجوهري، الصَّحاح؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة؛ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن؛ ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر؛ المطرزي، المُغرب في ترتيب المُعرِب؛ ابن منظور، لسان العرب؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط؛ الفيومي، المصباح المنير؛ الزبيدي، تاج العروس.

(٥) سنن أبي داود، كتاب: الحدود. باب: العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان. رقم: ٤٣٧٦؛ سنن النَّسائي، كتاب: قطع السارق، باب: ما يكون حِرزاً، وما لا يكون، رقم: ٤٨٨٦، قال ابن حجر: وسنده إلى عَمرو بن شعيب صحيح. (فتح الباري، ٨٧/١٢) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. (المستدرك، رقم الحديث: ٨١٥٦)

(٦) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٦٥/٣؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة: عفو.

(٧) المطرزي، المُغرب في ترتيب المُعرِب، مادة: عفو.

(٨) سنن أبي داود، كتاب: الزكاة. باب: في زكاة السائمة. رقم: ١٣٤٣ ، قال ابن حجر: أخرجه أبو داود،

الخيل والرقيق، فهاتُوا صدقة الرِّقَةِ [١]» أي: تَركتُ لكم أخذَ زكاتِها، وتجاوزتُ عنه[٢].

ورأى صاحب معجم المقاييس[٣] أنَّ عفوَ الإنسان عن الشيء بمعنى الترك، لا يكون ذلك عن استحقاق؛ لأن النبي قال: «عَفوتُ عنكم عن صدقة الخيل» فليس العفو ها هنا عن استحقاق، ويكون معناه: تَركتُ أنْ أَوجَبْتُ عليكم الصدقة في الخيل.

وَعَفَا الشَّيْءُ كَثُرَ وطال[٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف: ٩٥] أَيْ: كَثُرُوا.. وعَفَوْتُ الشَّعْرَ أَعْفُوهُ عَفْواً، وَعَفَيْتُهُ أَعْفِيهِ عَفْيًا؛ تَرَكْتُهُ حتى يَكْثُرَ ويطُول، ومنه قول الرسول: «أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى»[٥].

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «الوقت الأول من الصلاة رِضوانُ الله، والوقتُ الآخِرُ عفوُ الله[٦]». قال الإمام الشافعي مُعلِّقًا على هذا الحديث: العفو لا يحتمل إلا معنيين: عفوٌ عن تقصيْر، أو

وغيْره، وإسناده حسن. (فتح الباري، ٣/٣٢٧)

(١) يريد الفضة والدراهم المضروبة منها، وأصل اللفظة الوَرِق وهي الدراهم المضروبة خاصة، فحذفت الواو وعُوض منها الهاء. (ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ٢٥٤)

(٢) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر؛ المُغرب في ترتيب المُعرِب، المطرزي، مادة: عفو.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة: عفو.

(٤) يُنظر مادة: عفو في المصادر الآتية: الأزهري، تهذيب اللغة؛ المحيط في اللغة، ابن عباد؛ الجوهري، الصَّحاح؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة؛ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن؛ الزمخشري، أساس البلاغة؛ الفائق في غريب الحديث، الزمخشري: ٣/٨؛ ابن الجوزي، غريب الحديث: ٢/١٠٩؛ ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٢٦٥؛ المطرزي، المُغرب في ترتيب المُعرِب؛ الزبيدي، تاج العروس؛ ابن منظور، لسان العرب؛ الفيومي، المصباح المنير.

(٥) مسلم، كتاب: الطهارة. باب: خصال الفطرة، رقم: ٢٥٩

(٦) سنن الترمذي، كتاب الصلاة. باب: ما جاء في الوقت الأول من الفضل رقم: ١٧٢ قال أبو عيسى: هذا حديث غريب. قال ابن حجر: الترمذي والدارقطني من حديث يعقوب بن الوليد المدني، عن عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر به، ويعقوب. قال أحمد بن حنبل: كان من الكذابين الكبار، وكذبه ابن معين. وقال النسائي: متروك. وقال ابن حِبان: كان يضع الحديث وما روى هذا الحديث غيْره... وقال البيهقي: يعقوب كذبه سائر الحفاظ ونسبوه إلى الوضع. (التلخيص الحبيْر: رقم: ٢٥٩) قال النووي: حديث ضعيف رواه الترمذي. (المجموع، ٣/٦٧)، علَّق محققُ سنن الترمذي الشيخ أحمد محمد شاكر، قائلاً: ومما لا أزل أعجب منه أن الشافعي يذكر هذا الحديث محتجاً به بدون إسناد، وهو حديث غير صحيح، بل حديث باطل.

توسعةٌ، والتوسعةُ تُشبِه أن يكون الفضل في غيْرها إذ لم يؤمر بترك ذلك الغيْر الذي وسع في خلافها[١].

من خلال العرض السابق لثلة من أقول علماء اللغة يمكن القول: إن المعنى المركزي للتعريف اللغوي قائمة على معنى التَّرْكِ، ويُوَزَّعُ هذا المعنى بحسب المقام الذي يناسبه:

فإن كان المقام يدور حول العقوبة، يُصبح المعنى: تَرْكُ العقوبةِ. وإن كان المقام يدور حول الحدود، يُصبح المعنى: ترْكُ رفعِها للنبي. وإن كان المقام يدور حول الصدقات، يُصبح المعنى: تَرْكُ أَخذِها. وإن كان المقام يدور حول الشَّعر، يُصبح المعنى: تَرْكُ قَصِّهِ. وإن كان المقام يدور حول تركِ المؤاخذةِ، يدور المعنى حول التوسعة، كما أشار الإمام الشافعي رحمه الله إلى ذلك.

التعريف الاصطلاحي للعفو:

لا نجد في كتب أصول الفقه مَن أفاض في تفسيْر المعفوات إلا كتاب الموافقات، ومن أجل تعريف العفو تعريفًا دقيقًا لابد مِن حصر جميع ما ورد في هذه المسألة؛ مِن آيات وأحاديث، وتحليلِها، وتحليلِ أقوال المفسرين، وشُرَّاحِ الأحاديث، وبذلك ترتسم كامل الصورة، وتتحدد فيها المعالم.. وسيكون كلامي في المعفوات حول النقاط الآتية:

- **النقطة الأولى: التعريف الاصطلاحي:**

هناك تعريفان -مستنبطان من أقوال العلماء- للعفو، وكل تعريف كان من زاوية خاصة، سأعرضهما تباعاً:

التعريف الأول: بعد الاطلاع على ما قاله أئمة التفسيْر، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا﴾ [سورة المائدة: ١٠١] تبين لي أن المعفوات: هي المسائل التي تَرَكَ الشارعُ ذِكر حكمِها، وأخفاها عن العباد، واستأثر بعلمِها، ولم يَذكرْها في كتابه، ولم ينص عليها.. [٢]

ويدل على هذا التأويل ما يأتي:

(١) الشافعي، الرسالة، رقم المسألة: ٧٨٩

(٢) يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن؛ ابن كثيْر، تفسيْر القرآن العظيم؛ الجصاص، أحكام القرآن. وذلك في معرض تفسيْرهم للآية: لا تسألوا.. عفا الله عنها [المائدة: ١٠١]

-قول النبي: «ما أَحَلَّ اللهُ في كتابه فهو حلال، وما حَرَّم فهو حرام، وما سَكت عنه فهو عفو، فَاقْبَلوا مِن الله عافيته؛ فإنَّ الله لم يكنْ ليَنْسَى شيئاً، ثم تلا قول الله ﷻ: وما كانَ ربُّكَ نَسِيًّا [سورة مريم: ٦٤] [(١)]».

-وقال عُبيد بنُ عُمَيْر: « إنَّ اللهَ أَحَلَّ وَحَرَّم، فما أَحَل فاستحِلوه، وما حَرَّم فاجتنبوه، وتَرك بين ذلك أشياء لم يُحِلَّها ولم يُحَرِّمْها، فذلك عفوٌ مِن الله عَفَاه»[(٢)].

التعريف الثاني: جعل بعضُ المفسرين والفقهاء العفو يدور حول تركِ المؤاخذةِ والتوسعة، ورفع الحرج، وبالتالي هو مِن باب الإباحة.

-قال الشاطبي: «إن الأحكام الخمسة إنما تتعلق بأفعال المكلفين مع القصد إلى الفعل، وأما دون ذلك فلا، وإذا لم يتعلق بها حكمٌ منها مع وجدانه ممن شأنه أن تتعلق به، فهو معنى العفو المتكلم فيه؛ أي: لا مؤآخذة به»[(٣)].

-وجاء في إعلام الموقعين: « ومعنى عفا الله عنها: لم يُؤاخِذ بها»[(٤)].

-وجاء في جامع العلوم والحكم[(٥)]: « وأما المسكوتُ عنه، فهو ما لم يُذكرْ حكمُه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم، فيكون معفواً عنه، لا حرج على فاعله..... المعفوّ عنه: ما تُرك ذِكرُه فلم يُحرَّم ولم يُحلَّل.... فدل على أن الأشياء على الإباحة..... وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان؛ يعني أنه سكت عن ذِكْرِها؛ رحمة بعباده، ورِفقاً، حيث لم يُحرِّمها عليهم حتى يعاقبَهم على فِعْلها، ولم يُوجبْها عليهم حتى يعاقبَهم على تركِها، بل جَعَلها عفواً؛ فإنْ فَعَلوها فلا حَرج عليهم، وإنْ تركوها فكذلك».

---

(١) مسند الشاميين، الطبَراني، رقم الحديث: ٢١٠٢ قال الهيثمي: رواه البزار، والطبَراني في الكبيْر، وإسناده حسن، ورجاله موثقون. (مجمع الزوائد، كتاب: العلم، باب: في اتباع الكتاب والسنة ومعرفة الحلال من الحرام. رقم: ٧٩٤)

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، رقم الحديث: ٣٥٠٠٤

(٣) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة: ١٦٢/١

(٤) ابن القيم، إعلام الموقعين: ٤٣٥/٢

(٥) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، الحديث رقم: ٣٠

- وجاء في أضواء البيان[١]: « وليس ذلك التَّرك جهلًا وتجهيلًا لحكمه، بل إثباتٌ لحكم العفو، وهي الإباحةُ العامة، ورفعُ الحرجِ عن فاعله».

- وجاء في كتاب تيسيْر الكريم الرحمن[٢]: «عفا الله عنها؛ أي: سكت معافيًا لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه، وعفا عنه».

- وقال صاحب الفتح[٣]: «وفي الحديث[٤] أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة حتى يَرِدَ الشرع بخلاف ذلك».

- وجاء في التحفة[٥]: « (وما سكت) أي: الكتاب (عنه) أي: عن بيانه، أو وما أَعرضَ اللهُ عن بيان تحريمه وتحليله؛ رحمة من غير نسيان (فهو مما عفا عنه)؛ أي: عن استعماله، وأباح في أَكلِه، وفيه أن الأصل في الأشياء الإباحة».

يظهر من خلال ما سبق أن التعريفين ينطلقان من زاويتين مغايرتين، وليس بينهما أي تعارض.. وكأن أصحاب التعريف الأول وقفوا في منتصف الطريق، وجاء أصحاب الفريق الثاني وأكملوا الرحلة. فالفريق الأول تكلم عن المسائل التي تَرَكَ الشارعُ ذِكر حكمِها، وأخفاها عن العباد، وجاء الفريق الثاني وأكمل الطريق وتكلم عن حكم المسائل التي تَرك الشارعُ ذِكر حكمِها، وأخفاها عن العباد... وبالتالي: التفسيْران يؤولان إلى معنى واحد، ولا تعارض بينهما.

- **النقطة الثانية: سبب عدم التنصيص على المعفوات:**

لمْ ينص عليها الشارع، بل سكت.. فلماذا لمْ ينص.؟ وما نوع هذا السكوت؟

إن عدم التنصيص هذا له دلالة خاصة، وهو أنه من باب الرخصة والتوسعة على العباد، وليس من باب النسيان، بخلاف «المسكوت» الذي يدور البحث حوله، فليس عدم التنصيص فيه من

(١) للشنقيطي، وذلك في معرض تفسيره للآية: { يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [سورة المائدة: ١٠١]

(٢) للسعدي، وذلك في معرض تفسيره للآية السابقة.

(٣) ابن حجر، فتح الباري: ٢٦٩/١٣

(٤) أي حديث: «إنَّ أعظمَ المسلمين جُرْماً مَن سألَ.. » مر تخريجه في الصفحة السابقة.

(٥) المباركفوري تحفة الأحوذي: ٣٢٥/٥

باب الترخص، إنما من باب ردِّ الأدلة بعضها إلى بعض، كالرد للقياس مثلًا. جاء في جامع العلوم والحكم: «وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان؛ يعني أنه سكت عن ذِكْرِها؛ رحمة بعباده، ورِفقًا، حيث لم يُحرِّمها عليهم حتى يعاقبَهم على فِعْلها، ولم يُوجبْها عليهم حتى يعاقبَهم على تركِها، بل جَعَلها عفوًا»[١]. وجاء في أضواء البيان[٢]: « وليس ذلك التَّرك جهلاً وتجهيلاً لحكمه، بل إثباتٌ لحكم العفو، وهي الإباحةُ العامة، ورفعُ الحرجِ عن فاعله».

- **النقطة الثالثة: السؤال عن حكمها.**

أما السؤال عن المعفوات، فبناء على الآية السابقة يجب عدم السؤال والبحث عنها؛ ولا يستحسن التنقيب عنها؛ لعدم حاجة العباد إليها، ولعله إنْ ظَهَر لنا حكمُ اللهِ ﷻ فيها ساءَنا ذلك، وشَقَّ علينا سماعُه، بل ربما وقَعْنا في الضرر إنْ أُبدِيَتْ لنا[٣].

قال رسول الله:

- «إنَّ الله فَرض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، ونَهى عن أشياءَ فلا تَنْتَهِكوها، وحَدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وغفَل عن أشياء من غيْر نسيان، فلا تبحثوا عنها»[٤].

- «إنَّ أعظمَ المسلمين جُرْماً مَن سألَ عن شيء لم يُحرَّم فحُرِّم مِن أجلِ مسألته»[٥].

وفي رواية: «رَجلٌ سأل عن شيء ونَقَّر عنه»[٦].

---

(١) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، الحديث رقم: ٣٠.

(٢) للشنقيطي، وذلك في تفسيره للآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ [سورة المائدة: ١٠١].

(٣) المرجع السابق.

(٤) الطبراني، المعجم الكبير: ٢٢/٢٢٢ قال الهيثمي: رواه الطبَراني في الكبيْر، ورجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد، كتاب: العلم، باب: في اتباع الكتاب والسنة ومعرفة الحلال من الحرام. رقم: ٧٩٦)

(٥) البخاري، كتاب: التمني. باب: ما يُكره من كثرة السؤال، وتكلف ما لا يعنيه. رقم: ٦٨٥٩؛ مسلم، كتاب: الفضائل. باب: توقيْره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه.. رقم: ٢٣٥٨ واللفظُ للبخاري.

(٦) صحيح مسلم، كتاب: الفضائل. باب: توقيْره وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه... رقم: ٢٣٥٨ ، نَقَّرَ عنه: بالغ في البحث عنه والاستقصاء. (شرح النووي)

- **النقطة الرابعة: حكم المعفوات بعد السؤال عنها:**

قد ورد النهي في السؤال عن المعفوات، لكن إذا خولف النهي، وتم السؤال عن المعفوات فما هو حكم الشارع في ذلك..؟ قد تضافرت أقوال العلماء، وانصبتْ في الإباحة العامة، ومن هذه الأقوال:

جاء في التحفة[١]: « (وما سكت) أي: الكتاب (عنه) أي: عن بيانه، أو وما أَعرضَ اللهُ عن بيان تحريمه وتحليله؛ رحمة من غير نسيان (فهو مما عفا عنه) أي: عن استعماله، وأباح في أَكلِه، وفيه أن الأصل في الأشياء الإباحة».

قال ابن رجب الحنبلي: وأما المسكوتُ عنه، فهو ما لم يُذكرْ حكمُه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم، فيكون معفواً عنه، لا حرج على فاعله..... المعفوّ عنه: ما تُرك ذِكرُه فلم يُحرَّم ولم يُحلَّل.... فدل على أن الأشياء على الإباحة[٢].

وجاء في كتاب تيسيْر الكريم الرحمن[٣]: «عفا الله عنها؛ أي: سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه، وعفا عنه».

- **النقطة الخامسة: أنواع المعفوات.**

وهذه المسائل المعفو عنها قد تكون أحكاماً شرعية، وقد تكون متعلقة بالقدَر[٤].

مثال القَدَرية: حقائق الأنساب[٥]، كقول عبد الله بن حُذافة: مَن أبي يا رسول الله.. [٦]؟

وكذلك الرجلُ الذي سأل الرسول قائلًا: أين مَدْخلي يا رسول الله.؟ فقال: «النار» [٧].

---

(١) المباركفوري، تحفة الأحوذي: ٥/٣٢٥

(٢) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، الحديث رقم: ٣٠

(٣) للسعدي، وذلك في معرض تفسيره للآية السابقة.

(٤) ابن القيم، إعلام الموقعين: ١/٧١

(٥) الجصاص، أحكام القرآن، وذلك في معرض تفسيره للآية: { لا تسألوا.. عفا الله عنها }

(٦) صحيح البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة. باب: ما يُكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه. رقم: ٦٨٦٤

(٧) البخاري، نفس التخريج السابق.

وفي رواية: في الجنةِ أنا..؟ فقال: «في النار»[١].

فلم يَكن للرَّجل حاجةٌ إلى كشفِ عيبِه في كونه من أهل النار[٢]؛ ولذلك سكت الشارع عنها، وجاء النهي عن سؤالها؛ لئلا يكن في الجواب ما يكرهه السائل ويسوؤه. [٣].

مثال الشرعية: قول النبي وقد سُئل عن الحج: أَكُلَّ عام..؟ فقال: «لو قلتُ: نعم، لوَجَبتْ ولما استَطعتم.. ذَروني ما تركتُكم؛ فإنما هَلَك مَن كان قبلَكم بكثرة سؤالِهم، واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتُكم عن شيء فدعوه[٤]. »

الخلاصة:

الأمر الذي يتشابه فيه المعفو والمسكوت، هو عدم التنصيص.

الأمر الذي يختلفان فيه هو أن عدم التنصيص له دلالة خاصة في كل منهما، مختلفة عن الآخر.

وبعبارة أخرى: إن كلَّ عفوٍ مسكوتٌ عنه، وليس كلُّ مسكوتٍ عفوًا، والفرق بينهما هو أن المسكوت ليس من باب الترخص، إنما من باب ردِّ الأدلة بعضها إلى بعض، كالرد للقياس، والدلالة. أما العفو فإن المسكوت فيه من باب الإذن والسماح فيه.

المطلب الثالث: تعريف دلالة الالتزام.

دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنىً غيْرِ موضوعٍ له، خارجٍ عن مسماه، لكن هذا المعنى من لوازمه[٥].

---

(١) قال الهيثمي: رواه الطبَراني في الكبيْر، ورجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد، كتاب: العلم، باب: قول العالِم: سلوني. رقم: ٧٣٣)

(٢) الجصاص، أحكام القرآن. وذلك في معرض تفسيره للآية: {لا تسألوا.. عفا الله عنها} [المائدة: ١٠١]

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، ١١٠/١٥

(٤) مسلم، كتاب: الحج. باب: فرض الحج مرة في العمر، رقم: ١٣٣٧

(٥) ابن السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج: ٢٠٤/١؛ ابن النجار، شرح الكوكب المنير: ١٢٧/١؛ الرازي، المحصول: ١/ ٢٩٩؛ الآمدي، الإحكام: ٣٦/١؛ الشنقيطي، نشر البنود: ٨٥/١

ودلالة الإشارة[١] عند الحنفية تُقارب دلالة الالتزام عند الجمهور[٢].

ومن أمثلة دلالة الالتزام، قوله تعالى: ﴿وَعلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوف﴾ [البقرة: ٢٣٣] قد سيقت هذه الآية لإيجاب النفقة على الآباء، ولكن عَبَّر تعالى بقوله: وعلى المولود له.. ونَسب الولد إليه بحرف اللام، ففيه إشارة إلى اختصاص الولد بالوالد نسبًا.

الفرق بين الالتزام والمفهوم:

اختلف الأصوليون في تصنيف دلالة الالتزام[٣]، فمنهم من جعلوا دلالة الالتزام من باب المنطوق[٤] غيْر الصريح[٥]، والبعض الآخر جعلها من باب المفهوم[٦]. ويبدو أن سبب إدراج البعض لدلالة الالتزام تحت المفهوم هو أنه مسكوت عنه، وكأنهم ساوَوا بين الالتزام والمفهوم! ولبيان هذا اللبس لابد من ذكر نقطتين:

النقطة الأولى: إن وجود المسكوت عامل مشترك بين الالتزام والمفهوم، لكن من الواضح أن المسكوت الذي في الالتزام، ليس كوزْنِ المسكوت الذي في المفهوم، ويجب أن يكون مع المنطوق؛ فهو في حكم الملفوظ[٧]؛ لأنه يكاد أن ينطق به، لكن حُذِف للاختصار. فعندما يُقال: «زيد يصلي» يلزم من هذه العبارة أنه متوضئ. وعندما يُقال: «اسأل القرية». أي: اِسأل أهل القرية. فهل (الوضوء)،

(١) الاستدلال بإشارة النص هو العمل بما ثبت بنظمه لغةً، لكنه غير مقصود، ولا سيق له النص، وليس بظاهر من كل وجه. (البخاري، كشف الأسرار: ١/١٧٤)

(٢) البخاري، كشف الأسرار: ١/١٧٤ -١٧٧؛ ابن أمير الحاج، التقرير والتحبير: ١/١٣٢؛ السرَّخسي، أصول السرَّخسي: ١/ ٢٣٧؛ ابن نظام الدين الأنصاري، فواتح الرحموت: ١/٧٢٣؛ السمرقندي، ميزان الأصول في نتائج العقول: ٣٩٧

(٣) الشنقيطي، نشر البنود: ١/٨٥

(٤) المنطوق: ما دلّ عليه اللفظ في محل النطق. والمفهوم: ما دلّ عليه اللفظ لا في محل النطق.. (الإسنوي، نهاية السول: ١/٣٥٧؛ ابن مفلح، أصول الفقه: ٣/١٠٥٦)

(٥) ابن النجار، شرح الكوكب المنير: ٣/٤٧٣؛ العطار، حاشية العطار على جمع الجوامع: ١/ ٣٠٧؛ ابن مفلح، أصول الفقه: ٣/١٠٥٦؛ السبكي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب: ٣/٤٨٣؛ الشنقيطي، نشر البنود: ١/٨٦

(٦) الطوفي، شرح مختصر الروضة: ٢/ ٧٠٩؛ ابن السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج: ١/٢٠٤؛ الشيرازي، اللمع: ١٠٥

(٧) المحبوبي، التوضيح شرح التنقيح: ١/٣١١

و (أهل) مسكوت عنه، أم لا..؟

هو يشبه المسكوت بأنه لم يُنطق ولم يُذكر، لكن ما ذُكِرَ لا يتحقق إلا به، وبالتالي المسكوت الذي في الالتزام له عِلاقة وطيدةٌ بالالتزام.

النقطة الثانية: إن المسكوت في اللزوم يلزم من ذات اللفظ، ولا ينفك عنه، فقول الله ﷻ: ﴿وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ.. ﴾ يلزم أن الولدَ له عن طريق اللام المفيدة للاختصاص.

وقوله ﷻ: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] يلزم أن يقع الصوم في وقت كان الرجل فيه جنباً.

أما المسكوت في المفهوم فإنه لا يلزم من ذات اللفظ، ولا يرتبط به، أو يلزم من غيْر ذات اللفظ، كالسياق.

فلفظ (أف) ليس له علاقة بالضرب، ولا يوجد رابط بينهما، وعدم إيذاء الأبوين لم يلزم من ذات اللفظ، بل لزم ذلك من السياق، والذي يأمر ببر الأبوين، وطاعتهما.

والمعلوفة لا علاقة بينها وبين غيْر المعلوفة، ولا يلزم بذات اللفظ أن يكون في غيْر سائمة الغنم زكاة.

نعم يوجد وجه شبه بين الالتزام والمفهوم، وهو أنه يوجد شيء مسكوت فيهما، لكن كما ذَكرتُ المسكوت عنه لا يرتبط من ذات اللفظ بالمنطوق في المفهوم، أما بالالتزام فهو يرتبط من ذات اللفظ، وتوجد علاقة وطيدة بينهما. وبالتالي: فليس كلُّ سكوتٍ دلالةَ التِزامٍ.

وبسبب الخلط بين الالتزام والمسكوت وقع الاختلاف عند بعض الفقهاء في فهم بعض المسائل، ومنها: لعاب الكلب. فقد روي عن رسول الله أنه قال: «إذا ولغَ الكلبُ في الإناءِ فاغسلوه سبع مرات» [(١)].

ونُقل عن الإمام مالك ترك العمل بالحديث القاضي بنجاسة لعاب الكلب، وقال: « قد جاء

(١) مسلم، كتاب: الطهارة باب: حكم ولوغ الكلب رقم: ٢٨٠

هذا الحديث وما أدري ما حقيقته»[١]. وقال: « يُؤكَل صيدُه، فكيف يُكره لعابُه» [٢]!؟ ويقصد مالك بذلك قوله تعالى: ﴿يسألونَكَ ماذا أُحِلَّ لهم قُلْ أُحلَّ لكم الطيباتُ وما علَّمْتُم مِن الجوارحِ مُكَلِّبِيْنَ.. ﴾ [المائدة: ٤]. ويقصد أيضًا قول النبي: «إذا أَرسلْتَ كلبَكَ المعلَّمَ فَقَتَلَ، فَكُلْ»[٣].

فالآية، والحديث ـ حسب فهمهم ـ لـمَّا أجازتا أكل لحم الصيد الذي التقطه الكلب بفمه، مِن غيْر غسل، دلتا على طهارة فمه، من باب الالتزام.! أو بعبارة أخرى: سَكَتَ الشارع عن غسل الصيد، الذي التقطه الكلب بفمه، فلَزِمَ منه أنَّ فمَهُ طاهرٌ! هكذا يفهم من السادة المالكية.

والجواب: إنَّ الآية والحديث سِيقتا لبيان أنَّ قَتْلَ كَلْبِ الصيدِ ذَكاتُه، وليس فيهما إثباتُ نجاسةٍ، ولا نفيُها[٤]. وبالتالي هذا سكوتٌ وليس التزامًا، وفَرْقٌ بيْن الالتزامِ والسكوت.

ومن الواضح أن الشارع اشترط في الصيد بالآلة أن تجرحه، وتسيل دمه، ولم تأمر بغسله، بل سكتتْ عنه، فلا يُعد هذا السكوت دليلًا على طهارة دم الصيد.

المطلب الرابع: بيان الضرورة.

تنقسم الدلالة الوضعية عند الحنفية إلى قسمين لفظية وغيْر لفظية، وتُسمى الدلالة غيْر اللفظية: بيان الضرورة[٥].

وبيان الضرورة: هو نوع من البيان يقع بما لم يُوضع له في الأصل[٦]. وسُمِّي هذا القسم بهذا الاسم؛ لأن الموضوع للبيان في الأصل هو النطق، وهذا يقع بما هو ضِدُّه، وهو السكوت؛ لأجل الضرورة الآتي تفصيلها[٧].

---

(١) المدونة، مالك بن أنس، كتاب: الوضوء، في الوضوء بسؤر الدواب والدجاج والكلاب، ١/ ٥
(٢) المرجع السابق، ١/ ٦
(٣) البخاري، كتاب: الوضوء. باب: الماء الذي يُغسَل به شعر الإنسان. رقم: ١٧٣
(٤) ابن حجر- فتح الباري، ٢٧٩/١
(٥) يُنظر: ابن أمير الحاج، التقرير والتحبير: ١/ ١٣٤
(٦) يُنظر: البخاري، كشف الأسرار: ٢١٧/١؛ السرخسي، أصول السرخسي: ٥٠/٢
(٧) يُنظر: ابن أمير الحاج، التقرير والتحبير: ١/ ١٣٥

وبيان الضرورة على أربعة أقسام[١]، وجميع هذه الأقسام دلالة سكوت مُلحق باللفظية في الاعتبار[٢].

القسم الأول: هو في حكم المنطوق، ويُنَزَّل مَنْزِلة المنصوص عليه في البيان؛ أي: لازم مسكوت عنه لملزوم مذكور. ومثاله: ﴿وورثَهُ أبواهُ فلأمِّه الثُّلُث﴾ [النساء: ١١]. فالله ﷻ لما أضاف الميْراث إليهما في صدر الكلام، ثُم بَيَّن نصيب الأم، كان ذلك بيانًا أن للأب ما بقي، فلا يحصل هذا البيان بترك التنصيص على نصيب الأب، بل بدلالة صدر الكلام يَصيْر نصيبُ الأبِ كالمنصوص عليه..

القسم الثاني: ما يكون بيانًا بدلالة حال المتكلم؛ **أي**: دلالة حال الساكت الذي وظيفته البيان مطلقًا، أو في تلك الحادثة؛ بسبب سكوته عند الحاجة إلى البيان. ومثاله: سكوت النبي عند أمرٍ يشاهده؛ مِن قولٍ أو فعل، ليس مُعْتَقَدَ كافرٍ، ولا سبق تحريْمُه، كالمعاملات التي كان الناس يتعاملونَها، والمآكل والمشارب التي كانوا يتعاطونها، ولم يقع منه عليه الصلاة والسلام نهيٌ عنها، ولا نكيْرٌ على فاعليها، فإنه دليل على جواز ذلك في الشرع؛ لأنه لا يَجوز عليه أن يُقِرَّ الناسَ على مُنْكَر؛ فهو داعٍ الخَلْقَ إلى الحق، ووصَفَه اللهُ بالقيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فقال: ﴿يَأمُرُهُم بالمَعْروفِ ويَنهَاهُمْ عَن المُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن هذا القسم سكوت البكر عند استئذان الولي في تزويجها مِن رجل معين؛ فإن سكوتها يُفيد الإجازة بدلالة حالها، وهي الحياء؛ لأن الحياءَ يَمْنعها من التصريح بالإجازة، لما فيه مِن إظهار الرغبة في الرجال والوقاحة.

القسم الثالث: ما يكون بيانًا بضرورة دفع الغُرور؛ أي: ما اعتُبِرَ مِن سكوت الساكت دلالةً، كالنطق؛ لدفع التغرير؛ أي: لضرورة دفع وقوع الناس في الغُرور. ومثاله: دلالة سكوت الشفيع عن طلب الشفعة بعد عِلمِه بالبيع على إسقاطها؛ لضرورة دفع الغرور عن المشتري؛ فإنه يحتاج إلى التصرف في الدار المبيعة. فلو لم يُجْعَل سكوتُ الشفيعِ إسقاطًا لها لنقض البيع لو وقع ظنًّا من المالك أن لا غرض للشفيع فيها، فلا جرم أن جُعل سكوتُه كالتنصيص على إسقاطها.

(١) يُنظر: البخاري، كشف الأسرار: ٢١٧/١؛ أصول السرَّخسي: ٥٠/٢؛ ابن أمير الحاج، التقرير والتحبير: ١٣٥/١

(٢) يُنظر: ابن أمير الحاج، التقرير والتحبير: ١٣٥/١

القسم الرابع: الثابت ضرورة الطول فيما تُعُورِفَ فيه؛ أي: دلالة السكوت على تَعْيِيْنِ معدودٍ تُعُورِفَ حذفُه، ضرورةَ طُولِ الكلامِ بذِكره، مع وجود معطوفٍ على عدده يُفيده عُرفًا. ومثاله قول القائل: «لفلانٍ عَليَّ مئةٌ ودرهمٌ، أو مئةٌ ودينارٌ». فالسكوت عن مُمَيِّز المئةِ في هذا القول يَدل عُرفًا على أنه في الأول من الدراهم، وفي الثاني من الدنانيْر.

من الواضح أن بيان الضرورة عند الحنفية فيه شبه كبيْر بدلالة الالتزام، ومن أوجه الشبه وجودُ شيءٍ مسكوتٌ عنه. وبالتالي يُمكن القول: إنَّ كلَّ بيانَ ضرورةٍ مسكوتٌ، وليس العكس.

وزيادة في التفصيل: يمكن اعتبار النوع الأول من بيان الضرورة من «دلالة الالتزام» إذ لا فرق بينهما؛ فكلاهما يتضمن مسكوتًا عنه، وهذا المسكوتُ شبيهٌ أيضًا بالمسكوت الذي في دلالة الالتزام، والذي حُذِف للاختصار، ولا يستقيم الكلام إلا به، وعلاقتُه وطيدةٌ بالمنصوص. وأما النوع الثاني والثالث فتحكمه قاعدة: «السكوت في معرض الحاجة إلى بيان بيان». بينما يندرج النوع الأخير تحت المقتضى المحذوف الذي لا يستقيم الكلام بدونه[1].

المطلب الخامس: أنواع المسكوت

استعرضْنا في المبحث السابق تعريف المسكوت، والفرق بينه وبيْن بقية المصطلحات ذات الصلة، ولعلنا في هذا المطلب نُبيِّن أقسام المسكوت، والذي ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: السكوت عن مسألة يُعرف حكمُها بواسطة دلالة اللفظ.

إنَّ الحاكمية المطلقة في هذا الكون مرجعها إلى الله ﷻ وحده؛ فهو الخالق، وهو القادر على كل شيء: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]. والله ﷻ أنزل القرآن الكريم ليكون هذا الكتاب المعجِز مبيِّنًا لأحكام الله ﷻ، وأَرسلَ رسوله ليكون مبلِّغًا لأحكام الله ﷻ، وأوحى إليه أحكامًا أخرى من غيْر أن ينص عليها في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، وبالتالي وجد لدينا مصدران أساسيان لأخذ التشريع منهما -وحي متلو، ووحي غير متلو- وهما

(١) المقتضِى بالكسر: اللفظ الطالب لإضمار شيء، لا يستقيم اللفظ إلا بذلك الإضمار. والمقتضَى بالفتح هو ذلك المضمر نفسُه، الذي اقتضى وجودُه تصحيحَ الكلام. يُنظر: ابن النجار، شرح الكوكب المنير: ١٩٩/٣؛ الزركشي، بدر الدين، البحر المحيط: ٢١٠/٤ (وزارة الأوقاف، الكويت، ط١، ١٤١٠)؛ العطار، حاشية العطار على جمع الجوامع: ٢١/٢

القرآن الكريم، والسنة النبوية. وكلا المصدرين كانا بلغة القوم الذين قُصدوا بحمل رسالة الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ﴿وَكَذَلِكَ أَنزلناهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]، وغيْرها من النصوص التي أشارت إلى عربية القرآن الكريم. ولذلك لا بد لفهم هذين المصدرين من التشبع باللغة العربية، وعلى قدر التضلُّعِ من هذه اللغة يكون الفهم أقرب للصواب[١]. فمعرفة أساليب اللغة العربية، وطرق دلالة الألفاظ على معانيها المرادة من الأشياء الأساسية لفهم نصوص الكتاب والسنة. وخصوبة الألفاظ تدل على أحكام الوقائع بنوعيها؛ الوقائع المنصوصة، والأخرى المسكوت عليها، وقد أفاض فقهاء الشريعة الإسلامية في بيان الدلالات وتعريفها، وتصنيفها حسب قوتها. وانقسموا في تصنيف الدلالات إلى طريقتين؛ طريقة الحنفية، وطريقة الجمهور، والطريقتان استفاض الأصوليون في بيانها.

القسم الثاني: السكوت عن مسألة يُعرف حكمها بغيْر اللفظ.

تنوعت أساليب الشريعة السمحة في بيان أحكام الله ﷻ فمنها الأسلوب المعتمِد على دلالة الألفاظ، والذي أشرنا له بشكل موجز في القسم الأول، ومنها الأساليب التي تشيْر إلى حكم الشارع من غيْر اعتماد على اللفظ، ومن هذه الأساليب: القياس، فعن طريق معرفة علة حكم الشارع -في مسألة ما- يُمكن أن نعرف حكم مسألة أخرى غيْرِ منصوص على حكمها بحيث تنطبق عليها العلة نفسها.

المبحث الثاني: شمول النص للمسكوت.

سأتناول في هذا المبحث بيان شمول النص للوقائع المسكوت عنها، ونبذة من أقوال الصحابة المبينة لهذا الشمول، إضافة إلى بيان مقدار المسكوت بالنسبة إلى المنصوصات، ورأي العلماء في هذه الفكرة.

(١) قال الشاطبي: إن هذه الشريعة المباركة عربية... مَن أراد تفهمه (أي القرآن) فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غيْر هذه الجهة... (الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة: ٦٤/٢) ، وقال: لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشارع... (المرجع السابق، ٣٢٤/٤) ، وقال: إن الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيان في النمط.. فإذا فرضنا مبتدِئاً في فهم العربية، فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسِّطاً فهو متوسطٌ في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهم الصحابة، وغيْرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة... (المرجع السابق، ١١٥/٤)

المطلب الأول: الأدلة الناهضة بشمول النص للوقائع المسكوت عنها.

لما كانت الشريعة الإسلامية خاتمة الرسالات السماوية، وكان النبي خاتَم النبيين كان لابد من تمكين خصائص الشمولية في الشريعة الإسلامية، بحيث تشمل على حكمٍ لكل شيء إلى قيام الساعة. وبالتالي يجد البشرُ حكمَ الله تعالى في كل ما يطرأ عليهم من جديد، إضافة إلى حكمٍ للأشياء التي كانت تتكرر منذ نزول التشريع. وهذه الشمولية تضمن بقاء الشريعة واستمرارها في كل الأزمنة والأمكنة. وظهرت خاصية الشمولية في أسمى صورها عندما أنزل الله القرآن الكريم، ذلك الكتاب الخالد، الذي وصفه الرسولُ بقوله: «كتابُ الله هو حبلُ الله، مَن اتَّبعه كان على الهدى، ومَن تَرَكَه كان على ضلالة»(١).

وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله قال: «إنها ستكون فتنة. » فقال علي: ما المخرج منها يا رسول الله.؟ قال النبي: «كتابُ الله؛ فيه نبأُ ما كان قبلكم، وخبَرُ ما بعدكم، وحكمُ ما بينكم، وهو الفصلُ ليس بالهزلِ، مَن تَرَكَه مِن جبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، ومَن ابتغى الهُدَى في غيْره أضلَّهُ اللهُ، وهو حبلُ اللهِ المتين، وهو الذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواءُ، ولا تَلتَبِس به الألسنةُ، ولا يَشبَع منه العلماءُ، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضِي عجائِبُه، هو الذي لم تنتهِ الجنُّ إذ سمِعَتْه حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ.. ﴾ [الجن: ٢] مَن قال به صَدَقَ، ومَن عمل به أُجِر، ومَن حَكَم به عدل، ومن دعا إليه هَدَى إلى صراطٍ مستقيم»(٢). فالرسول عليه الصلاة والسلام أشار إلى المَخرَج الحق عندما تُخيِّم الفتَن؛ وما ذلك إلا لأنَّ التمسكَ بهذا الكتابِ هو الفرجُ مِن كلِّ عُسْرٍ، وهو المَخرَجُ مِن كل ضيق(٣).

(١) صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب. رقم: ٢٤٠٨

(٢) سنن الترمذي، كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله باب: ما جاء في فضل القرآن. رقم: ٢٩٠٦ قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول.. قال الهيثمي بعد أن رواه بألفاظ تقارب ما عند الترمذي: رواه الطبَراني، وفيه عمرو بن واقد، وهو متروك. (مجمع الزوائد، كتاب: التفسير، رقم: ١١٦٦٤)

(٣) لا يخفى أن التمسك بالقرآن الكريم لا ينفي التمسك بالسنة، بل إن التمسك بالسنة هو عين التمسك بالقرآن، وهو من التبعات الصحيحة للتمسك بالقرآن، فقد قال الله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٤] فالنبي بنص هذه الآية مُبلِّغ عن الله ﷻ... وقال الله ﷻ أيضاً: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: ٧] فبهذه الآية أشار الله إلى الدور التكميلي للسنة النبوية المطهرة.. وقال الرسول: «إني أوتيت الكتابَ، وما يعدلُه». (صحيح ابن حِبان، كتاب: الوحي، باب: الاعتصام بالسنة. رقم: ١٢)

ومن ثَم قد ثبتَ بنص الرسول أنَّ الشريعةَ الإسلامية، والتي دستورها القرآن ذاتُ خصائصَ تجعلها شاملةً لكل ما يمس العباد من أحكام، فهي مستمرة إلى أن يرث اللهُ الأرضَ، وَمن عليها.. ومن ثَم لم يُترك الإنسانُ يَتخبط في بحر من الحَيْرة: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

وقد أشار اللهُ ﷻ إلى شمولية الشريعة عندما قال: ﴿ونَزَّلْنَا عَليكَ الكتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيء﴾ [النحل: ٨٩]، وقال أيضًا: ﴿مَا فَرَّطْنَا في الكِتابِ مِنْ شَيءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والكتاب في القول الأرجح عند علماء التفسير(١) هو القرآن الكريم، وليس المقصود بهذه الآية أن القرآن فيه كل شيء على وجه التفصيل؛ لأنَّ ظاهر القرآن خالٍ عن دقائق الهندسة، والحساب، وتفاريع الحيض، والوصايا.. بل إن معنى الآية: ما تركنا مِن شيء إلا وقد بيناه لكم؛ إما تصريحًا، وإما تلميحًا(٢).

فالله ﷻ بيَّن بهذه الآية الكريمة أنه ﷻ مراعٍ لمصالح عباده، وظَهَرَتْ هذه المراعاةُ عندما نَصَّ، وبَيَّن اللهُ بشيء من التفصيل بعضَ الأحكامِ التي لا تَتغيَّر مع الزمن، بل هي أحكام باقية؛ كأحكام المواريث، وأحكام الحدود؛ كحد رجم الزاني، وكحد الحرابة.. فأحكام المواريث، والحدود التي ذُكِرتْ، لا تخضع لزمن دون آخر، بل تبقى ثابتة، وتنصيص الله على هذا النوع من الأحكام بسبب كون مَقْدرة الإنسانِ ستقف حائرةً عاجزة -أو ستكون ناقصة- عن معرفة الحكم الصحيح لهذه المسائل.

وفي المقابل لم يُبيِّن اللهُ بنصِّ القرآنِ أحكامَ بعضِ المسائلِ وتفصيلَها، بل اكتفى بذكر الأُسس العامة لها، وفي الوقت نفسه لم يكن عدم التبيين هذا نهائيًّا، بل أَشار الله ﷻ إلى حَلِّ هذه النقطة، عندما أَمَرَنا بعَرْض أيِّ مسألة، وردِّها على سنة نبيِّه، وعلى رَدِّها إلى أولي الأمر(٣) الذين مِن وظائفهم الأساسية تبيين حكم الله للعباد.

---

(١) القول الأول: إنَّ الكتاب هو اللوح المحفوظ، فتكون معنى الآية: ما تركنا شيئاً من إلا وقد أثبتناه في أمِّ الكتاب. يُنظر في تفسير الآية رقم: ٣٨ من سورة الأنعام في المراجع الآتية: ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنْزيل؛ تفسير أبي السعود؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن؛ ابن الجوزي، زاد المسيْر.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ٨٨/١١؛ أصول السرَّخسي: ١٢٠/٢؛ الرازي، المحصول: ٦٢/٥؛ الغزالي، المستصفى: ٢٩٣/١؛ البصري، المعتمد في أصول الفقه: ٢٣٠/٢ ، ويُنظر في تفسير الآية رقم: ٣٨ من سورة الأنعام في المراجع الآتية: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن؛ الآلوسي، روح المعاني؛ ابن الجوزي، زاد المسيْر؛ الجصاص، أحكام القرآن

(٣) قال تعالى: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣] ، وقال أيضًا: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: ٧]

فصدق خبَر اللهُ ﷻ بأنه مَا فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره؛ إما تفصيلًا، وإما تأصيلًا، وقال: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتمَمْتُ علَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. ومن هنا يتبين لنا أنه لا تخلو حادثة، مهما كان نوعها، إلا ولله فيها حكم[١]؛ إما بطريق مباشر بالتنصيص على حكمها، أو بطريق غيْر مباشر عن طريق معرفة حكمها بالطُّرُق التي أرشد اللهُ عبادَه باتباعها لمعرفة أحكام ما يريدون، وبالتالي تحقق وعدُ الله عندما قال: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

المطلب الثاني: نبذة من أقوال الصحابة والعلماء ومن بعدهم حول المسكوت.

لمس الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من علماء الأمة شمول الشريعة لأحكام العباد، وظهر هذا في أقوالهم، ومن هذه الأقوال:

- قال عمر: حسبُنَا كتابُ اللهِ[٢].

- وقال أبو ذر: لقد تَرَكَنَا رسول الله وما يُحرِّكُ طائرٌ جناحيه في السماءِ إلا ذَكَّرَنا منه عِلمًا[٣]. وقال أبو الدرداء: لقد تركنا رسول الله وما في السماءِ طائرٌ يطيْر بجناحيه إلا ذَكَّرَنا منه عِلمًا[٤]. جاء في كتاب النهاية[٥]: وفي حديث أبي ذر: لقد تركنا رسول الله وما يُحرِّكُ طائرٌ جناحيه في السماءِ إلا ذكرنا منه علمًا.. يعني أنه استوفى بيان الشريعة، وما يُحتاجُ إليه في الدين حتى لم يبق مشكل.. وقيل أراد أنه لم يترك شيئًا إلا بينه.

---

(١) سأعرض لرأي القاضي المخالف لهذه الفكرة في المطلب الثالث، مع المناقشة.

(٢) البخاري، كتاب: المرضى، باب: باب قول المريض قوموا عني. رقم: ٥٣٤٥؛ مسلم، كتاب: الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصى فيه. رقم: ١٦٣٧.

(٣) مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: ٢٠٤٦٧؛ المعجم الكبير، الطبراني، رقم: ١٦٤٧. قال الهيثمي: «رواه أحمد، والطبَراني... ورجال الطبَراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، وهو ثقة، وفي إسناد أحمد مَن لم يسم. « (مجمع الزوائد، كتاب: علامات النبوة، باب: فيما أوتي من العلم، رقم: ١٣٩٧١) ، واللفظ الذي ذكره ابن حِبان: تركنا رسول الله e وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم. (صحيح ابن حبان، كتاب العلم، باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها، رقم: ٦٥) .

(٤) قال الهيثمي: رواه الطبَراني، ورجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد، كتاب: علامات النبوة، باب: فيما أوتي من العلم e رقم: ١٣٩٧٣) .

(٥) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، باب: الطاء مع الياء. ١٥٠/٣ .

- وقال الإمام الشافعي: وليس يُؤمَر أحدٌ أن يَحكم بحقٍ إلا وقد عَلِمَ الحقَّ، ولا يكون الحقُّ معلومًا إلا عن اللهِ نَصًّا أو دلالة مِن الله، فقد جَعل الله ﷻ الحقَّ في كتابه، ثم سنةُ نبيه، فليس تنْزِل بأحد نازلةٌ إلا والكتابُ يَدُلُّ عليها نصًّا أو جملةً. فإن قال: وما النص والجملة.؟ قيل: النص ما حرم اللهُ ﷻ وأَحَلَّ نَصًّا. فإن قيل: فما الجملة.؟ قيل: ما فَرض اللهُ من صلاةٍ وزكاة وحج، فدلَّ رسولُ الله كيفَ الصلاةُ، وعددُها، ووقتُها، والعملُ فيها، وكيف الزكاةُ، وفي أيِّ المالِ هي، وفي أيِّ وقتٍ هي، وكم قدْرُها[1].

- وقال الشافعي أيضًا: فليستْ تَنْزلُ في أَحدٍ مِن أهل دِينِ اللهِ نازلةٌ إلا وفي كتابِ اللهِ الدليلُ على سبيل الهُدَى فيها[2].

من كل النصوص السابقة التي ذُكِرتْ يتبين لنا أنَّ الله تعالى قد تكفل باستمرار هذه الشريعة، وبقائِها إلى قيام الساعة. وشمَّر العلماء بادئين البحث والكشف عن المصادر التي تُساعدهم في الحكم على المسائل المسكوت عنها تفصيلًا، المنصوص على أمثالها بالجملة، وبالتالي كشفوا عن كيفية تحقق معجزة استمرارية هذه الشريعة. وظَهرت براعتهم أكثر في كيفية التعامل مع الوقائع المتجددة المسكوت عنها، والتي لم يَنصَّ الشارع على حكمٍ خاص لها، ومن ثَم أثبتوا حكمًا لكل مسكوت، وكانت هذه مِيزة الشريعة الإسلامية، التي انفردتْ بها عن بقية الشرائع.

المطلب الثالث: مقدار المسكوتات من المنصوصات.

تبين لنا في المطلب الأول من هذا المبحث أن لكل واقعة حكمًا لله تعالى فيها؛ فهذا الأمر من سمات الرسالة الخالدة. ومن الواضح أن نصوص الوحي بشقيه محدودة من حيث الكم، فآيات القرآن ليست قابلة للزيادة، والأحاديث النبوية أيضًا توقفتْ عن الزيادة بعد وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام. بالمقابل نجد التزايد البيِّن للوقائع المستجدة في كل عصر، فلكل زمان عدد لا بأس به من المستجدات تنتظر من يُؤطِّرُها في إطارها الشرعي اللائق بها. ومن هنا يتساءل المرء:

ما مقدار مسكوتات الوقائع من المنصوصات.؟ وهل النصوصُ (غَ)غُرفة من بحر..؟ وهل لكل واقعة نص.؟

(١) الشافعي، الأم، كتاب: إبطال الاستحسان، باب: إبطال الاستحسان. رقم: ٥٥

(٢) الشافعي، الرسالة: ٢٠ .

وإذا لم يكن لكل واقعة نص، أفلا يدل هذا على وقوع خلو الواقعة عن حكم لله فيها.؟

إنَّ كون النصوص محدودة، والوقائع غير محدودة.. لا يخفى على كل مضطلع على القرآن والسنة، وملمٍّ بالواقع الذي هو مترامٍ بين أحضانه. وقد نص الفقهاء على المحدودية في النصوص، وعكسها في الوقائع في كتبهم، وسأعرض لعينة من هذه النصوص:

- إذ الوقائع لا حصر لها[١].

- الوقائع غير متناهية، والنصوص محصورة، والقياس كافل بها[٢].

- النصوص لا تفي بجميع الأحكام لتناهيها؛ وعدم تناهي الأحكام[٣].

- لا يخفى على من شَدَا طرفًا من التحقيق أن مآخذَ الشريعة مضبوطة محصورة، وقواعدَها معدودة محدودة؛ فإنّ مرجعها إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله، والآي المشتملةُ على الأحكام، وبيان الحلال والحرام معلومة، والأخبار المتعلقة بالتكاليف في الشريعة متناهية[٤].

- نحن نعلم قطعًا أنَّ الوقائع التي جرتْ فيها فتاوى علماء الصحابة وأقضيتُهم، تزيد على المنصوصات زيادةً لا يحصرها عَدٌّ، ولا يحويها حدّ؛ فإنهم كانوا قايسين في قريب من مئة سنة، والوقائع تترى[٥]، والنفوس إلى البحث طُلَعَةٌ[٦].

- والآيات والأخبار المشتملة على الأحكام نصًّا وظاهرًا، إضافة إلى الأقضية والفتاوى، كغَرْفة من بحر لا ينْزف[٧]. ومَن أنصف من نفسه لم يُشكل عليه إذا نظر في الفتاوى والأقضية أنَّ تسعةَ أعشارها

---

(١) القرافي، الفروق: ٦٨/٤

(٢) ابن أمير حاج، التقرير والتحبير: ٢٣٤/٣

(٣) البخاري، كشف الأسرار: ٣٠١

(٤) الجويني، الغياثي: غياث الأمم في التياث الظلم، رقم المسألة: ٦٣٩

(٥) أي: متتابعة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: وتر.

(٦) نفسٌ طُلَعَةٌ، كهُمَزَة: تُكثِر التطلعَ إلى الشيء. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة: طلع.

(٧) الجويني، البرهان: رقم المسألة: ٧١١

صادرةٌ عن الرأي المحض[١] والاستنباط، ولا تَعَلُّق لها بالنصوص والظواهر[٢].

يلاحظ أنّ الجويني فقط قد أعطى بالأرقام نسبة المسكوتات من الوقائع إلى المنصوصات، وهي تسعة أعشار، وبغض النظر عن دقة هذا الرقم -إذ يتطلب استقراءً واسعًا- فمعظم العلماء مقرٌّ بأنّ الوقائع غيْر متناهية، والمنصوصات متناهية، بغضِّ النظر عن النسبة بينهما.

ملاحظة:

أنكر ثلة العلماء[٣] -إلا القاضي الباقلاني- خلو الوقائع عن حكم لله فيها، حيث وردتْ عدة نصوص في كتب أصول الفقه تنسب للقاضي الباقلاني تَبَنِّيهِ لخلو الوقائع عن حكمٍ لله فيها، فقد جاء في كتاب المنخول[٤]:

«المقدمة الثانية: في تقدير خلو واقعة عن حكم الله مع بقاء الشريعة على نظامها، وقد جَوزه القاضي حتى كان يوجبه». وجاء في كتاب البُرهان[٥]: «وأما القول في خلو الواقعة عن حكم الله تعالى فقد اضطرب الأصوليون في جواز ذلك فصار القاضي إلى جواز ذلك وترقي عنه إلى وقوعه فقطع به وقال لا بد أن يقع ذلك» .

وربما كان سبب القرار الذي اتخذه القاضي رحمه الله بناءً على أنَّ النصوصَ محصورة ومحدودة، وكونَ الوقائعِ بعكس ذلك! فقد نُقِل عنه:» فإن مآخذ الأحكام محصورة مضبوطة من الكتاب والسنة والإجماع والوقائع لا تنضبط ولا تتناهى ويستحيل أن يرد ما لا يتناهي إلى ما يتناهي[٦].

---

(١) من البدهي ألا يكون قصد الشيخ بالرأي: مجرد الهوى؛ فهذا لا يقول به عاقل، فضلًا عن مجتهد كالجويني، فهو يقصد الرأي المسيَّج بأصول الشريعة، جاء في كتابه: «على كل ناظر ألا يتبع رأيه المحضَ حتى يربطه بأصول الشريعة، ومَن أَعمَلَ الرأيَ المجردَ أَحَلَّ وحَرَّمَ على خلافِ الشريعة، فلا حجةَ إذًا في قوله». الجويني، البرهان: المسألة: ٧١٩

(٢) الجويني، البرهان: رقم المسألة: ٧١٦

(٣) يُنظر في هذه المراجع: المنخول، ٤٨٥/١؛ حاشية العطار على جمع الجوامع: ٣٢٨/٢؛ القرافي، الفروق: ٦٨/٤ ابن أمير الحاج، التقرير والتحبير: ٣/ ٣٢١؛ الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة: ٤/ ١٣٠؛ الآمدي، الإحكام: ٢/ ٦٨؛ الجويني، البرهان، رقم المسألة: ١٥٢٨.

(٤) للغزالي، ٤٨٥/١.

(٥) للجويني، رقم المسألة: ١٥٢٧.

(٦) الجويني، البرهان، رقم المسألة: ١٥٢٧

وقال[١]: المآخذ محصورة والوقائع لا نهاية لها فلا تستوفيها مسالك محصورة [٢].

لا بد من مناقشة مختصرة لفكرة القاضي رحمه الله:

أ) إنَّ قول القاضي لا يتفق إلى حد ما مع كلام الله ﷻ القائل: ﴿ونَزَّلْنَا عَليكَ الكتابَ تبْيانًا لِكُلِّ شيءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ومع قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا في الكِتابِ مِنْ شَيءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ب) الشريعة الإسلامية قد كملتْ كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، والقول بخلو الوقائع عن حكمٍ للهِ يتنافى مع هذا الكمال للشريعة[٣].

ج) إنَّ كون النصوص متناهية، وكون حوادث العباد غير متناهية.. أمر غير منازع فيه، لكن الشيء غير المقبول هو الخروج بنتيجة عجز النصوص عن استيلاد الأحكام، وعجزها عن الإحاطة بالحوادث غير المتناهية. فنصوص الشارع ليست كبقية النصوص؛ لأنها تتمتع بخصوبة دلالية واضحة في صلاحيتها لكل زمان ومكان.. ولا يمتنع أن يُجعل المتناهي أنواعًا، ويُحكم لكل نوع منه بحكم خاص به، ومن ثَم تدخل الحوادث غير المتناهية تحت تلك الأنواع، وهذا من ميزات الشريعة؛ فالرسول قد مَنَّ اللهُ ﷻ عليه بأنْ بَعَثَهُ بجوامع الكَلِم[٤]، فهو عليه الصلاة والسلام ينطِق بالكلمة الجامعة، وهي قاعدة عامة، ويندرج تحتها أنواعٌ متنوعة.

د) إنَّ من أهم الأشياء التي ترد قول القاضي هو الوقوع العملي، فهل يا تُرى وقعتْ حادثة ولم نجد فيها حكماً لله تعالى[٥]!؟

الخاتمة:

بعد هذه الجولة الأصولية المتناولة لمسألة المسكوت، من الممكن أن نخلص إلى عدة نتائج نذكرها تباعًا:

١) استعمل الأصوليون كلمة «مسكوت» في العديد من المواضع، ومن أهم هذه المواضع

(١) أي: القاضي.
(٢) الغزالي، المنخول: ١/٤٨٥
(٣) يُنظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة: ٤/١٣٠
(٤) قال رسول الله: «بعثتُ بجوامع الكلم». البخاري، كتاب: الجهاد والسير. باب: قول النبي نُصرت بالرعب مسيرة شهر. رقم: ٢٨١٥؛ مسلم، كتاب: المساجد... رقم: ٥٢٣
(٥) يُنظر: الجويني، البرهان، رقم المسألة: ١٣٣

مباحث المنطوق والمفهوم، ومباحث القياس، ومباحث العفو والمباح.

٢) السكت هو: عدمُ التنصيصِ المباشرِ مِن قِبَل المُشرِّع على الحكم، مِن غيْر وجود التزامٍ بين المسكوتِ والمنصوصِ، ولم يكن السكوتُ للضرورةِ، أو للعفوِ.

٣) هناك تعريفان للعفو، وكل تعريف كان من زاوية خاصة، والتفسيْران يؤولان إلى معنى واحد، ولا تعارض بينهما؛ التعريف الأول: «المسائل التي تَرَكَ الشارعُ ذِكر حكمِها، واستأثر بعلمِها، ولم ينص عليها». بينما يركز التعريف الثاني حول: «تركِ المؤاخذةِ والتوسعة، ورفع الحرج، والإباحة».

٤) لا يستحسن التنقيب والسؤال عن المعفوات؛ لعدم حاجة العباد إليها.

٥) قد تضافرت أقوال العلماء في أن حكم المعفوات بعد السؤال عنها الإباحة العامة.

٦) الأمر الذي يتشابه فيه المعفو والمسكوت، هو عدم التنصيص، والأمر الذي يختلفان فيه هو أن عدم التنصيص له دلالة خاصة في كل منهما، مختلفة عن الآخر.

٧) إن وجود المسكوت عامل مشترك بين الالتزام والمفهوم، والمسكوت الذي في الالتزام ليس بمرتبة المسكوت الكائن في المفهوم، ويجب أن يكون مع المنطوق؛ فهو في حكم الملفوظ.

٨) إن المسكوت في اللزوم يلزم من ذات اللفظ، ولا ينفك عنه، **أما** المسكوت في المفهوم فإنه لا يلزم من ذات اللفظ، ولا يرتبط به، أو يلزم من غيْر ذات اللفظ، كالسياق، وبالتالي: ليس كلُّ سكوتٍ دلالةَ التِزامٍ.

٩) كلّ بيان ضرورةٍ مسكوتٌ، وليس العكس.

١٠) إن الشريعة شاملة لأحكام العباد، كما يظهر ذلك من القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة، وقد تكفل الله تعالى باستمرار هذه الشريعة، وبقائِها إلى قيام الساعة.

١١) إن المنصوصات متناهية، والوقائع الحادثة لا نهاية لها، وقد استخرج العلماء من المنصوصات أحكامًا للمسكوتات.

١٢) أنكر العلماء -إلا القاضي الباقلاني- خلو الوقائع عن حكم لله فيها، والوقوع العملي يفند قول القاضي رحمه الله.

المصادر والمراجع

- الإحكام، الآمدي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٤/١
- أساس البلاغة، الزمخشري مكتبة لبنان، لبنان ١٩٩٦/١
- أصول السرخسي، السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١/ ١٤١٨
- أصول الفقه، ابن مفلح المقدسي، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٠/١
- إعلام الموقعين، ابن القيم دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦/١
- الأم، الشافعي، دار قتيبة سوريا ١٤١٦/١
- البحر المحيط، الزركشي، وزارة الأوقاف الكويت ١/ ١٤١٠
- تاج العروس، محمد الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت،١٣٨٧/١
- تحفة الأحوذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت
- التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر، دمشق١٤١٠/١
- التقرير والتحبير، ابن أمير الحاج، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٩/١
- تهذيب اللغة، محمد الأزهري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د. ت
- حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن العطار/ الجلال المحلي/ ابن السبكي، المكتبة التجارية الكبْرى، مصر، د. ت
- الرسالة، الشافعي، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت
- رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، السبكي، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٩/١
- روضة الناظر، ابن قدامة، مكتبة الرشد، الرياض١٤١٧/٥
- شرح الملوكي في التصريف، ابن يعيش، المكتبة العربية حلب، ١٣٩٣/١
- شرح مختصر الروضة، الطوفي، مؤسسة الرسالة، بيروت،١/ ١٤٠٧
- الصحاح، إسماعيل الجواهري، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠/٤
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان، ابن لبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤/٢
- صحيح مسلم بشرح النووي، النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٣٩٢/٢
- العين، الفراهيدي، دار الهجرة، إيران، ١٤٠٥/١

- غريب الحديث، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥/١
- الفائق في غريب الحديث الزمخشري، دار الفكر، ١٣٩٩/٣
- فواتح الرحموت على هامش المستصفى، ابن نظام الدين الأنصاري، دار الأرقم، بيروت، د. ت
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩/٦
- كشف الأسرار، البزدوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧/٣
- لسان العرب، ابن منظور دار الفكر، بيروت، ١٤١٧/٦
- اللمع، الشيرازي، دار الكلم الطيب، بيروت، ١٤١٦/١
- المحصول، الرازي، جامعة الإمام سعود، الرياض، ١/ ١٤٠٠
- المحيط في اللغة، ابن عباد عالم الكتب، بيروت، ١٤١٤/١
- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ابن بدران الدمشقي، الرسالة، بيروت،١٤٠١/٢
- المدونة، الإمام مالك، دار الكتب العلمية، بيروت د. ت
- المستصفى، الغزالي، دار الأرقم، بيروت، د. ت
- المعتمد في أصول الفقه، أبي الحسين البصري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣/١
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر ١٣٩٩
- المُغرب في ترتيب المُعرِب المطرزي مكتبة لبنان لبنان ١٩٩٩/١
- المنخول، أبو حامد الغزالي، دار الفكر، دمشق١٤٠٠/٢
- المنصف، ابن جني، مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٧٣/١
- ميزان الأصول في نتائج العقول السمرقندي وزارة الأوقاف قطر ١٤١٨/٣
- نشر البنود على مراقي السعود الشنقيطي دار الكتب العلمية بيروت١٤٠٩/١
- نهاية السول، الإسنوي، دار ابن حزم بيروت ١٤٢٠/١
- النهاية في غريب الأثر، ابن الجزري، المكتبة العلمية، بيروت ١٣٩٩

معركة طوفان الأقصى في ضوء السنن الإلهيّة

د. مجدي قويدر [١]

يحاول البحث قراءة معركة طوفان الأقصى في ضوء السنن الإلهيّة ومفاعيلها في مجريات الأحداث ومآلات المعركة، باعتبار السنن الإلهيّة ناظمة لسلوك المجتمعات، ومؤثّرة في مجريات الأحداث، واستبصار السنن الإلهيّة، والسير وفق مقتضياتها، خاصّة سنن الصراع بين الحقّ والباطل يضيء للمؤمنين الطريق، ويلهمهم صوابيّة القرار، وتحديد المسار، ويرشد العمل، ويعالج الخلل، وقد تناول البحث مفهوم السنن الإلهيّة وأهمّيّة فقهها، ونماذج محدّدة من السنن في معركة طوفان الأقصى، وانتهى البحث إلى أنّ التعامل الصحيح مع سنن الصراع كفيل بحسم مادّة الشرّ، وتقليم أظفاره

الكلمات المفتاحيّة: السنن الإلهيّة، طوفان الأقصى، معركة.

Abstract

The research attempts to read the battle of the Al-Aqsa Flood in the light of the divine laws and their effects on the course of events and the outcomes of the battle, considering the divine laws regulating the behavior of societies and influencing the course of events. Insight into the divine laws and proceeding in accordance with their requirements, especially the laws of conflict between truth and falsehood, illuminates the path for believers and inspires them to the correctness of the decision. , determines the path, guides action, and addresses the defect. The research dealt with the concept of divine laws, the importance of their jurisprudence, and specific models of laws in the battle of the Al-Aqsa Flood. The research concluded that correct dealing with the laws of conflict is sufficient to resolve the issue of evil, and trim its nails.

(١) أستاذ الفقه المقارن المساعد في جامعة الإسراء- مينيسوتا، تاريخ استلام البحث، ٢٠٢٣/١١/١م، وتاريخ قبوله للنشر، ٢٠٢٣/١٢/٢٤م

المقدّمة

إنّ قضيّة فلسطين قضيّة الأمّة المركزيّة، وجرحها النازف، وجسدها الدامي، وهي قضيّة عقديّة محوريّة مركوزة في وجدان كلّ مسلم حرّ، ولهذا كانت همًّا يؤرّق كلّ مخلص لدينه وأمّته، وهي اليوم تختزل أبعاد الصراع الحضاري والعقائدي بين مشروعين: المشروع الإسلامي والمشروع الصهيوني الغربي الذي مكّن لليهود في أرض فلسطين، صراع بين أصحاب الحقّ المسلمين، والغرباء الصهاينة المحتلّين، ففلسطين عنوان الملحمة بين الحقّ والباطل، والإيمان والكفر، والنور والظلام، وعلى ثراها تدور معركة طوفان الأقصى منذ السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، هذه الملحمة البطوليّة التي صنعها رجال غزّة بسواعدهم الفتيّة، وعقولهم الذكيّة، وصناعتهم العسكريّة أذهلت العدوّ والصديق، وكشفت زيف أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وأثبتت أنّه بالإمكان هزيمة العدوّ، وكسر إرادته، وزلزلة كيانه، لو صحّ العزم وصدقت الإرادة.

وإنّ من الواجب قراءة الأحداث وقضايا الأمّة ومعاركها المصيريّة في ضوء سنن الله في المجتمعات قراءة متأنّية مستبصرة بحقائق التاريخ، وأبعاد الصراع، وطبيعة العدوّ، وسنن الصراع بين الحقّ والباطل؛ لأهمّيّة هذه القراءة الواعية في بناء المعرفة بأصول السنن الناظمة لحركة الأحياء، وأثرها في فهم طبيعة المعركة مع العدو الصهيونيّ، وكشف طبائعه، وخبايا شخصيّته ونفسيّته، وكيفيّة التعامل معه، والاسترشاد بالسنن في معركة التحرير يوفّر الجهود والطاقات، ويختصر المسافات، ويقلّل من الخسائر والتضحيات، ويشحذ الهمم والإرادات، ويصنع الانتصارات، ويحقّق الإنجازات.

وفي هذا البحث محاولة لقراءة معركة طوفان الأقصى في ضوء السنن الإلهيّة ومفاعيلها في مجريات الأحداث ومآلات المعركة، وقد جاء البحث على النحو الآتي:

المبحث الأوّل: مفهوم السنن الإلهيّة وأهمّيّتها.

المطلب الأوّل: مفهوم السنن لغة واصطلاحًا.

فالسُّنّة لغة: مأخوذة من «سنّ» ولها أصل واحد مطّرد، وهو جريان الشيء واطّراده في سهولة ويسر، «والأَصل فيه الطريقة والسِّيرَة»[١]، جاء في لسان العرب: «وسُّنة الله: أحكامه، وأمره، ونهيه،

(١) ابن منظور، محمد بن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت، ج١٣، ص٢٢٠.

وسنَّها الله للناس: بيَّنها، وسنَّ الله سُنة، أي: بيَّن طريقًا قويمًا، قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾[سورة الأحزاب: ٦٢][١]، وجاء في التعريفات للجرجانيّ أنّ السُّنّة في اللغة هي: «الطريقة، مرضيّة كانت أو غير مرضيّة»[٢]، وفي التوقيف للمناوي أنّ «السُّنّة بالضمّ طريقة المصطفى التي كان يتحرّاها وسُّنة الله طريقة حكمته وطريقة طاعته، قال ابن الكمال السُّنة لغة: الطريقة مرضيّة كانت أو لا، وشرعًا: الطريقة المسلوكة في الدّين من غير افتراض ولا وجوب»[٣].

تطلق السُّنّة في الاصطلاح على عدّة وجوه حسب مجال الاختصاص:

أوّلًا: السُّنّة عند الأصوليّين بأنّها: «ما صدر عن الرّسول ﷺ من الأدلّة الشرعيّة، ممّا ليس بمتلوّ، ولا هو معجز، ولا داخل في المعجز»[٤].

ثانيًا: السُّنّة عند أهل الحديث: «أقوال النبيّ ﷺ ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية والخُلقية، وزاد بعضهم: وأقوال الصحابة والتابعين، وأفعالهم»[٥].

ثالثًا: السُّنّة عند الفقهاء: «ما طلب الشرع فعله من المكلّف طلبًا غير لازم»[٦].

السنن الإلهيّة: اصطلاحًا

وردت السُّنة في القرآن ستّ عشرة مرّة، في إحدى عشرة آية، جاءت مرّة مجموعة، ومرّة أخرى مفردة، وجاءت مرّة مضافة، ومرّة أخرى مجرّدة عن الإضافة، وقد جاءت بمعنيين اثنين في القرآن: الأوّل: وقائع الهلاك بالمكذّبين للرّسل. والثّاني: المناهج والشرائع في الأمم السالفة.

(١) ابن منظور، محمد بن منظور، لسان العرب، ٢٢٥/١٣.

(٢) الجرجاني، علي- التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ص١٦١.

(٣) المناوي، محمد - التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ، ص١٩٨.

(٤) الآمدي، سيف الدّين علي بن أبي علي- الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٥٦/١.

(٥) أبو شهبة، محمد- الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، عالم المعرفة بجدة، ١٤١٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٦.

(٦) الزحيلي، وهبة- الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر بدمشق: ط٤، ١/ ٥٢.

وللعلماء والمفكّرين تعريفات كثيرة للسنن الإلهيّة، وهي في الأغلب تتّفق في المعاني، وتختلف في الألفاظ والمباني، أذكر عددًا منها على النّحو الآتي:

١- **تعريف أحمد كنعان:** هي «مجموعة القوانين التي سنها الله عزوجل لهذا الوجود وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»[١].

٢- **تعريف عبد الكريم زيدان:** هي «الطريقة المتّبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتّب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»[٢].

٣- **تعريف الطيب برغوث:** «الأنظمة الذاتية الثابتة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في كل مفردة كونية لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والخارجية بالكفاءة والفعالية المطلوبة»[٣].

٤- **تعريف هيشور:** «مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كلّه، وتتحرّك بمقتضاها الحياة وتحكم جزئيّاتها ومفرداتها، فلا يشذّ عنها مخلوق»[٤].

٥- **تعريف الخطيب:** «منهج الله تعالى في تسيير هذا الكون، وعمارته، وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله» [٥].

بالنظر إلى التعريفات السابقة يمكن ملاحظة ما يأتي:

---

(١) كنعان، أحمد- أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، كتاب الأمة، عدد٢٦، الدوحة، ١٩٩١م، ص٥٢

(٢) زيدان، عبد الكريم - السنن الإلهيّة في الأمم والجماعات والأفراد، مؤسّسة الرسالة، ط٣، ٢٠٠٢م، ص١٣.

(٣) برغوث، الطيب- المدخل السنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، كتاب مقاصد القرآن، مؤسسة الفرقان، ط١، ٢٠١٦م، ٤٣٤/٢.

(٤) هيشور، محمّد- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٥) شريف الخطيب، السنن الإلهيّة في الحياة الإنسانيّة، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ٢٠٠٤م، ص٢٧.

- حضور الدلالة اللغويّة الأصليّة لمعنى السُّنّة، وهي الطريقة والعادة، وأضافت بعض التعريفات القوانين والنظام.

- سلطت بعضها الضوء على الوظيفة والفاعلية للسنن في التدافع والتداول.

- التمييز بين السنن الكونيّة والاجتماعيّة، والجمع بينهما في التعريف، وهناك من نظر إليها في بعدها الاجتماعيّ التاريخيّ دون التعرّض للسنن الكونيّة.

وأرى أنّ هذه التعريفات على تنوّعها تتكامل وتتعاضد في بيان مفهوم السنن، وطبيعتها، وأبعادها المختلفة، ومجالاتها المتنوعة.

المطلب الثاني: أهمّيّة فقه السنن الإلهيّة:

يمكن أن نجمل أهمّيّة فقه السنن وضرورتها في النقاط الآتية:

١- فقه السنن جزء لا يتجزّأ من الدين والمعرفة والإحاطة به، واستثماره، والعمل بمقتضاه، واجب شرعيّ، ومطلب واقعيّ، إذ من مقتضيات التكليف إعمال النظر والاعتبار، وإقامة العمران، وتحصينه من عوامل الاندثار، وعلل الانحطاط[١].

٢- إنّ السنن الإلهيّة تمثّل إرادة الله، وأقدار الله وأوامره ونظامه في تسيير الكون، وعدم الإيمان بها، وإدراكها والكشف عنها، ومن ثمّ عدم القدرة على تسخيرها يعدّ اختلالًا في الإيمان، واستسلامًا وجبرية وعطالة، وانحسارًا للرؤية، وانطفاء للفاعلية[٢] تنافي مراد الله وأمره.

٣- فقه السنن تأصيلًا وتنزيلًا من خلال أسباب انهيار العمران، وأحوال الأمم السالفة، والاعتبار بما حصل لها يشكّل عونًا لنا؛ لتلمّس مواطن الضعف والخلل في مسيرة الأمّة الحضاريّة، ويدفعها للأخذ بعوامل النهوض، وتجنّب أسباب السقوط[٣].

(١) البطيوي، عزيز- سنن العمران البشري في السيرة النبويّة، المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، ط١، ٢٠١٨م، ص١٩٢.

(٢) حسنه، عمر عبيد- المنهج السننيّ أفق حضاريّ متجدّد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٢٩.

(٣) البطيوي، عزيز- سنن العمران البشريّ في السيرة النبويّة، ص١٩٦.

٤- يشكّل فقه السنن منارًا لنا، وهاديًا؛ لتسخير الكون بكلّ ما فيه من أجل فهم أشمل وأكمل للحياة، وبالتالي لامتلاك الأدوات المساعدة على استشراف المستقبل من خلال تلك السنن[١]، وبذلك يستطيع الإنسان القيام بمهمّة الاستخلاف في هذه الأرض، وأداء أمانة الشهادة على الناس.

٥- إنّ السنن الإلهيّة تقدّم قراءة شاملة متكاملة للتاريخ، من خلالها نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء والنهوض، وعوامل الهدم والسقوط، وأسباب النصر والهزيمة والنجاح والفشل، ولماذا حلّت بنا الهزائم والمصائب، وأصابنا الركود والتخلّف، بينما انتصر الآخرون علينا، وتقدّموا في كلّ مجالات الحياة.

إنّ معرفة التاريخ من خلال السنن يبعث الوعي، ويشحذ الهمم للخروج من حالة التخلّف الحضاريّ، والعمل على التخلّص من أسباب الضعف، ويجنّب الأمّة مصارع السابقين[٢].

٦- إنّ فقه السنن يسهم في إرساء قواعد تفكير منهجيّ ومعرفيّ يعمل القراءتين؛ الكتاب المنظور (الكون)، وما فيه من ظواهر مادّيّة، وتاريخيّة، وإنسانيّة، وأسرار، وسنن بهدف تسخيرها، وقراءة الكتاب المسطور (القرآن) للاستهداء ببصائره، وكشف سنن الأنفس والمجتمعات؛ تحقيقًا لمقصد الخلافة والشهادة على الناس[٣].

المبحث الثاني: السنن الإلهية الناظمة لحركة المجتمعات البشرية في الأرض.

وفي هذا المبحث محاولة لقراءة معركة طوفان الأقصى وتأثيراتها، ومدى انسجامها مع السنن الإلهيّة الحاكمة لحركة المجتمعات في المطالب الآتية:

المطلب الأول: سُنَّة التدافع في معركة طوفان الأقصى

إنّ سنّة التدافع من السنن الحاكمة لحركة الحياة والأحياء، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ

(١) خصاونة، عماد وقزق، خضر- السنن الإلهيّة في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، مجلّة المنارة، المجلّد١٥، العدد ٢، ٢٠٠٩م، ص٢١٥.

(٢) كهوس، رشيد- السنن الإلهيّة من الوعي النظريّ إلى التأسيس العمليّ، مركز جمعة الماجد، دبي، ط١، ٢٠١٥م، ص١٠٠-١٠١.

(٣) البطيوي، عزيز- سنن العمران البشريّ في السيرة النبويّة، ص٢٠١.

اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥] أي: لولا أنّ الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحقّ، وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتّى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحقّ المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين، فأهل الحقّ حرب لأهل الباطل في كلّ زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحقّ وأرادوا الإصلاح في الأرض، وقد سمّى هذا دفعًا على قراءة الجمهور باعتبار أنّه منه سبحانه، إذ كان سنّة من سننه في الاجتماع البشري، وسمّاه دفاعًا في قراءة نافع باعتبار أنّ كلًّا من أهل الحقّ المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله[١]، وفي قول الله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ولولا شرعة القتال والجهاد، والإذن للمظلومين في مواجهة الظالمين ومدافعتهم بالقوّة لاستشرى الفساد في الأرض، وانتهكت الحرمات، وهدمت المقدّسات من صوامع ومساجد وغيرها من دور العبادة، وضاعت معالم الخير والهداية بضراوة الباطل وسيطرة الضّلال، وغلب الشرك في الأرض[٢]، قال ابن كثير: «أي: لولا أنّه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شر أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدّره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القويّ الضعيف»[٣].

وسنّة التدافع بين الحقّ والباطل مستمرّة باقية ما بقيت الدنيا، وتتّخذ عدّة أشكال، وتمتدّ لمساحات طويلة ومتعدّدة ومجالات متنوّعة، ومقصدها الأسمى حماية القيم والأديان من الاستهداف، وصيانة الأوطان من العدوان، «فالباطل المتبجّح لا يكفّ ولا يتوقّف عن العدوان إلّا أن يدفع بمثل القوّة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحقّ أنّه الحقّ ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بدّ من القوّة تحميه وتدفع عنه»[٤].

---

(١) رضا، محمد رشيد- تفسير المنار، ١٤٨/٤،

(٢) قطب، سيد- في ظلال القرآن، ٢٤٢٥/٤، حوى، سعيد- الأساس في التفسير، ٣٥٧٠/٧، ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٢٧٦/١٧.

(٣) ابن كثير- تفسير القرآن العظيم، ٣٨٢/٥.

(٤) قطب، سيد- في ظلال القرآن، ٢٤٢٥/٤.

وقد ضمن الله تعالى للمؤمنين أنّه يدافع عنهم، ويحميهم من عدوّهم، ومن يدافع اللّه عنه فهو منصور حتمًا على عدوّه[1]، وعدوّهم حتمًا مخذول مهزوم لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الْحَج: ٣٨].

ومعركة طوفان الأقصى التي تدور رحاها على أرض غزة هي في سياق سُنَّة التدافع بين الخير والشرّ، والصلاح والفساد، والحقّ والباطل، فالعدوّ الصهيونيّ لم يترك جريمة إلّا وارتكبها في حقّ الشعب الفلسطينيّ قبل الطوفان وبعده، ولم يدع موبقة إلّا وفعلها، فهو بؤرة الفساد، وسرطان خطير غرس في قلب الأمّة يدنّس مقدّساتها، وينتهك حرماتها، ويهدّد حاضرها ومستقبلها، وأهل فلسطين والمقاومة في غزّة تحديدًا من يتصدّى لهذا العدوّ، ويدافع عن مقدّسات المسلمين، وتعمل لتحرير الأرض وتطهير المسجد الأقصى من رجس الصهاينة الذين يسعون لهدمه، وإقامة هيكلهم المزعوم على أنقاضه، فلا بد للحق من قوة تحميه، وترفع شأنه وتعليه؛ حتى يتحقق توزان الرعب والردع، وتصطدم القوى المبطلة بعناد الحق، فتجده صعب المراس، شديد البأس تتحطم على صخرة صموده كل المكائد، فالحق الأعزل من القوة العسكرية لا يصمد أمام الطغيان، والحقوق لا تنال بالاستجداء، وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وهذا الطوفان الفلسطينيّ أحد مراحل المواجهة، وجولة من جولات الصراع سيتوّج بالظفر على العدوّ، أو يكون بداية التحرير ويقظة الأمّة؛ لامتلاك القوّة واستعداد دورها الحضاريّ وحقّها التاريخيّ، كما أنّ الطوفان وضع حدًّا للهرولة نحو التطبيع الجارف ومحاولة الولايات المتّحدة دمج العدوّ مع دول المنطقة وشعوبها.

المطلب الثاني: سُنَّة المداولة في معركة طوفان الأقصى

إنّ من سنن الله في الاجتماع البشريّ سُنَّة المداولة، وهي قاعدة أساسيّة يجري وفقها قيام الدول وانهيارها، وتصريف الأحوال بين الشدّة والرخاء، والنصر والهزيمة، وتعاقب الأجيال، وقد أشار إليها القرآن في قول الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. والمداولة: وهِيَ مَصْدَرُ داول فلَان فلَانًا الشَّيْءَ إِذَا جَعَلَهُ عِنْدَهُ دُولَةً وَدُولَةً عِنْدَ الْآخَرِ أَيْ يدوله كلّ

(١) قطب، سيد- في ظلال القرآن، ٢٤٢٥/٤.

مِنْهُمَا[١]، والمراد بها أن تتنقّل الغلبة والتمكين كلّ حين بين أطراف الناس، فتارة تكون الدولة والغلبة للمبطلين من الأعداء، وتارة تكون لأصحاب الحق، وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقّين والمبطلين، فهي سُنَّة عامّة متعلّقة بجميع البشر، وإنّما المضمون لأهل الحقّ أن تكون العاقبة لهم، وإنّما الأعمال بالخواتيم[٢].

والآيات نزلت بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد، وأصابهم القرح، فأراد الله أن يعلّمهم أنّهم ليسوا بدعًا في الحياة، فالنّواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلّف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنّما هي تتبّع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبيّنت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنّوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خطّ السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرّد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أوّلها طاعة اللّه وطاعة الرسول[٣].

وقد أورد الطبريّ عند تفسيره الآية أنّ قتادة قال: «إنّه والله لولا الدُّوَل ما أوذي المؤمنون، ولكن قد يُدال للكافر من المؤمن، ويبتلى المؤمن بالكافر، ليعلم الله من يطيعه ممّن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب»[٤].

وعند البخاريّ عن محاورة أبي سفيان لعظيم الروم في الشام، عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟، فَزَعَمْتَ «أَنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوَلٌ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ»[٥].

والمداولة في واقع الدول والمجتمعات تكون مبنيّة على أعمال الفريقين المتصارعين، فتكون

(١) ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٤/١٠٠.

(٢) ابن كثير- تفسير القرآن العظيم، ٤٢/١١٠، رضا، محمد رشيد- تفسير المنار، ٤/١٤٨، وسيد قطب- في ظلال القرآن، ٣/١٥٠٥، ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٤/١٠٠.

(٣) قطب، سيد- في ظلال القرآن، ٣/١٥٠٥، ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٤/١٠٠.

(٤) الطبري- تفسير الطبري، ٦/٨٣.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب قَوْلِه: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، ح٢٨٠٤.

الغلبة لمن أدرك قانونها، وأخذ بأسبابها[١]، وأكمل استعداده للمواجهة، وبذل قصارى جهده وطاقته في التمكّن من وسائلها وأدواتها، وأحكم تخطيطه، وأخذ الأهبة، وأحسن بعد ذلك توكّله على ربّه، مستعينًا بالله، معتمدًا عليه، موقنًا أنّ النصر من عنده، وأنّ العاقبة للمتّقين، فعلى المؤمنين واجب إدراك سُنَّة المداولة، والأخذ بأسبابها؛ ليمكّنهم الله من الإدالة على عدوّهم.

والمعركة اليوم مع اليهود المحتلّين لفلسطين مفتوحة، والصراع مستمرّ، وطريق التحرير طويل، والتضحيات جسام، لكنّ العاقبة محمودة، والنتيجة مضمونة، كما قال موسى لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] ، أو كما قال الله لخليله محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]. فقانون المداولة حتمًا سيجري على هؤلاء اليهود الغاصبين، وستكون لنا الكرّة عليهم وسيغلبون، فالقويّ لا يبقى قويًّا أبد الدهر، والضعيف لا يبقى ضعيفًا أبد الدهر، وقد قضى الله أمر مبرما بالإدالة من بني إسرائيل، وأخبر بإنهاء إفسادهم في الأرض وتدميرهم والقضاء عليهم، وتكرار هذا التدمير مرتين؛ لتكرر أسبابه من أفعالهم. وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الإفساد في الأرض، يؤكد على أنها سُنَّة اللّه الجارية فيهم، ولن تجد لسُنَّة الله تحويلا[٢] ، فقال سبحانه في سورة الإسراء: {وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا} [الإسراء: ٤-٥]، وقوله: {فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً} [الإسراء: ٧]، وقوله: {وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً} [الإسراء: ١٠٤]، وقد عادوا اليوم مجددا إلى الفساد في الأرض المقدسة، ومحاربة الحق، وممارسة الظلم والبغي، وارتكاب الجرائم الموبقة بحق الآمنين وأصحاب الأرض، فهيئ الله طائفة من المجاهدين من أبناء فلسطين للوقوف في وجه فسادهم، ومقاومة عدوانهم، ومدافعة طغيانهم، تحقيقا لسُنَّة الله فيهم بإساءة وجوههم وتتبير علوهم الكبير في هذا العصر، وإنهاء إفسادهم عما قريب بإذن الله.

(١) رضا، محمد رشيد- تفسير المنار، ١٤٨/٤.

(٢) قطب، سيد- في ظلال القرآن، ٢٢١٣/٤.

المبحث الثالث: معركة طوفان الأقصى من منظور سنن الصراع بين الحق والباطل.

شكّلت معركة طوفان الأقصى ملحمة نوعيّة في مسار المقاومة في قطاع غزّة، وتحوّلًا فريدًا على مستوى الصراع مع الكيان الصهيوني، من جهة اختيار التوقيت، والهجوم البرّيّ في المناطق المتاخمة لغزة، ونوعيّة الحجم والأسلوب، والخداع التكتيكيّ والإستراتيجيّ، والتطوّر الاستخباراتيّ للمقاومة، والتخطيط الإستراتيجيّ لأسر أكبر عدد من الجنود، وقدّمت جرأة وشجاعة غير مسبوقة، وحافظت على سرّيّة عالية جدًّا كأهمّ عوامل إنجاح عنصر المفاجأة للعدوّ وجيشه ومخابراته، وحطّمت معنويّات الجيش الصهيونيّ، وكسَّرت هيبته لدى الرأي العامّ العالميّ في يوم ٧ أكتوبر تشرين الأوّل ٢٠٢٣، وكشفت زيف قوّته المزعومة، وهشّمت صورته الأسطوريّة، وفضحت حقيقته ككيان عنصريّ فاشيّ، قام على الحديد والنار والمجازر منذ اغتصابه أرض فلسطين قبل ٧٥ عامًا. وهو اليوم يفتك بالمدنيّين بكلّ قسوة، ويمارس إبادة جماعيّة ضدّ الشعب الفلسطينيّ دون رادع من قوانين أمميّة أو أخلاقيّة.

وفي هذا المبحث تسليط الضوء على معركة الطوفان في ضوء سنن الصراع بين الحق والباطل على النحو الآتي:

المطلب الأول: سُنَّة الله في الماكرين.

المكر من سنن الصراع بين الحقّ والباطل، وقد بيَّن سبحانه وتعالى في مواضع عديدة من القرآن أنّ مكر الأقوام بأنبيائهم ورسلهم حالة مطّردة، وسُنَّة متّبعة على مَرِّ العصور، وطريقة قديمة في الكيد للدين، وأنّها من خلق الأوّلين، وليس كفّار مكّة بدعًا من الماكرين، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]، وقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] إلى غير ذلك من مكرهم[1]. وبيَّن في سورة الأنفال مكر كفّار مكّة برسوله -صلّى الله عليه وسلّم- بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

---

(١) الطبري- تفسير الطبري، ١٣/ ٥٨٠، الشنقيطي- أضواء البيان، ٢/٣٦٥، ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٣/٢٥٦،

وقد تعرَّض الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم- لمراحل متعدّدة من الكَيْد والمكْر والخديعة، وذلك لحكمة أرادها الحقّ تبارك وتعالى، وهي أن يُؤيس الكفّار من الانتصار عليه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم-، فقد بيَّتوا له ودَبَّروا لقتله، وحَاكُوا في سبيل ذلك الخطط، وقد باءتْ خُطّتهم ليلة الهجرة بالفشل إلى غير ذلك من محاولات يائسة، ومكائد بائسة، دحضها الله، وكشف أمرهم، وخيَّب سعيهم، فلم ينجحوا فيها، ونصره عليهم[١]؛ لأنّه قال: ﴿كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١]. ويُعرَّف المكر بأنّه: صرف الغير عمّا يقصده بحيلة[٢]، أو التدبير الخفيّ المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب[٣]، أو هو: تدبير إلحاق الضّرّ بالغير في خفية؛ لئلّا يأخذ حذره[٤].

والمكر قسمان:

مكر محمود: وهو أن يقصد فاعله إلى استدراج الممكور به إلى مصلحة له، كما يُفْعَل بالصَّبيّ إذا امتنع مِن تعلُّم خيرٍ، فهذا المكر الذي يقصد منه فعل الخير وتحقيق المصلحة خفية، يسمّى مكرَ خير أو مكرًا حسنًا، ووجه الحاجة للمكر الحسن أنّ من الناس من إذا علم بما يراد به من الخير، ويدبّر له من النفع؛ أفسد على الفاعل تدبيره؛ لجهله أو استعجاله، فيحتاج إلى أن يُحتال عليه ويُمكر به حتّى يتحقّق المقصود.

ومكر مذموم: وذلك أن يقصد فاعله إنزال مكروه أو الضرر بالممكور به[٥]، ويسمّى المكر السيّئ، وهو الأشهر والأكثر عند الناس؛ ولهذا غلب استعمال المكر في التدبير السيّئ؛ لأنّ من يدبّر للإنسان ما يسرّه وينفعه لا يكاد يحتاج إلى إخفاء تدبيره[٦]، فالمكر لا يُمدح ولا يُذَمُّ لذاته، إنّما بالغاية من ورائه.

والمراقب لمجريات معركة طوفان الأقصى يرى ألوانًا وأشكالًا من المكر كبارًا على المستوى

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ٣/، ١٥٠١، ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٣٢٧/٩-٣٢٨.
(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن الفضل- مفردات ألفاظ القرآن، وزارة الأوقاف، قطر، ط١، ٢٠١٧م، ص٦١٢.
(٣) تفسير المنار، ٢٥٩/٣.
(٤) ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٢٧٤/٢٢.
(٥) الراغب الأصفهاني- الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص٢٥٥.
(٦) تفسير المنار، ٢٥٩/٣.

الدولي والإقليمي، والتواطؤ الجماعيّ لتصفية القضيّة الفلسطينيّة، وإنهاء حالة المقاومة، وفضّ حاضنتها عنها، وإفراغ غزّة من أهلها بالتجويع والتهجير.

وقد مضت سنّة الله في الاجتماع البشريّ أنّ المكر السيّئ الذي يدبّره أعداء هذا الدين سيبطله، ويظهر زيفه، ويكشف أمره، ويعطّل تأثيره، ويبطل مفعوله، فلا يروج، ولا ينطلي على عباده، ولا ينخدع به أحد، ولا يؤتي ثماره، ولا يحقّق مبتغاه، ولا يبلغ مناه، ونهايته إلى بوار كحال صاحب التجارة أو السلعة التي يحاول ترويجها بالتزيين والتنميق والدعاية، فيتعرّض للكساد وعدم نفاق سلعته، فيخيب سعيه، ويخسر تجارته، وتفشل صفقته، فالله لهؤلاء الماكرين بالمرصاد سيفشل مكرهم، ويبطل كيدهم، ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[فاطر:١٠]، وقد عبّر المولى سبحانه بضمير الفصل، الذي أفاد القصر، أي: مكرهم يبور دون غيره، وأنّ الله يمكر بهم مكرًا يصيب منهم المقاتل، ويقطع الختائل، وصيغة المضارع (يبور) للدلالة على استمرار بوارهم وعدم انقطاعه، مع ما ينتظرهم من العذاب الشديد في الآخرة جزاء مكرهم وكيدهم بدينه وعباده المؤمنين(١).

وبيّنت سورة فاطر أنّ سنّة الله تعالى في المكر والماكرين إحاقة المكر السيّئ بأهله: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وهذا قانون ثابت، وسنّة مطّردة من سنن الله في حياة البشر بأنّ وبال المكر السيّئ يصيب أصحابه، ويحيط بهم إحاطة السوء، وينزل بساحتهم، ويرتّد إليهم، ويعود أثره عليهم، ويحدق بهم من كلّ جانب، وما يشعرون بأنّ عاقبة مكرهم تحيق بهم، وترجع إليهم؛ لجهلهم بسنن الله في خلقه، وسنن الله لا تتخلّف أَبَدًا، ولا تتبدَّل ولا تتحوَّل، ووقوعها يستلزم تحقّق أسبابها وشروطها وانتفاء موانعها: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، فسُنَّة الله ماضية بالانتقام من الماكرين بدينه، المكذّبين برسله الذين يتوهّمون أنّ مكرهم السيّئ سيقضي على الإسلام، ويصيب المؤمنين به، ويصدّ الناس عن الحقّ، ويحقّق لهم ما يصبون إليه من الفتنة، فليعلموا أنّهم ينتظرون في واقع الأمر حتفهم، ونهاية مكرهم بأن تجري عليهم سنّة الله الماضية التي حلَّت بالأمم السابقة من المكذّبين الأوّلين، وأدناها أن ينصر الله رسوله والمؤمنين به عليهم، ويحبط كيدهم، ويردّ مكرهم(٢).

(١) ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٢٢/٢٧٤-٢٧٥.

(٢) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٤٩-٢٩٥٠، ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٢٢/٣٣٧، أمحزون، محمد- السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، دار طيبة، الرياض، ط١، ٢٠١١م، ١/٥٥٥.

وما يليق بأهل غزّة أن يطمئنّوا إلى أنّ الله يتولّى الصالحين، أو أنّه لا يصلح عمل المفسدين، ويراقبوا جريان سنّة الله في الماكرين، قال سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧]، وأنّ هؤلاء الماكرين من اليهود وأعوانهم ضعاف مهازيل أمام مكر الله بهم مهما ملكوا من القوّة والدهاء والتزوير: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠]، ومكرهم وبالٌ عليهم، وتدبيرهم تدمير لهم، وكأنّهم يوجّهون سهامهم نحو نحورهم؛ وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٥٠-٥١].

المطلب الثاني: سُنَّة توهين كيد الكافرين

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الصراع بين الحقّ والباطل خاضع للسنن الإلهيّة المطّردة، وهي نافذة في خلقه، متحقّقة الوقوع، صارمة الحدوث، ثابتة لا تتبدّل، ولا تتخلّف، ولا تحابي أحدًا، ومعرفة السنن الحاكمة للاجتماع البشريّ يحيي الأمل وينفي العلل، ويحارب الكسل، ويدعو للعمل، ومن السنن الملهمة في هذا الصراع الدامي على أرض غزّة البطولة ما أكّدت عليه سورة الأنفال من توهين كيد الكافرين، ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨] ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ الله مَعَ المؤمنين﴾ [الأنفال: ١٩]، فكيد اليهود مهما بلغ قوّته، وإحكام خططه، وخطورة وسائله، وقوّته الناريّة، وفتكه بالإنسان، فإنّ سنّة الله الثابتة ستضعف شوكته، وتفلّ عزيمته، وتوهن قوّته، وتكسر شكيمته، وتبطل خطّته، وتحلّ عقدته، فإنّ ما يعتمد عليه العدوّ إنّما هو الأسباب المادّيّة والقوّة العسكريّة، وحبل الناس من قوى الشرّ في العالم، ودعمهم غير المحدود للعدوان، ومع ذلك لم يستطيعوا تحقيق أهدافهم، وحسم المعركة لصالحهم؛ لأنّ سنّة الله قضت بتوهين كيدهم، وإبطال تدبيرهم؛ وتعطيل تأثيره: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨] ومُوهِنُ-اسم الفاعل من أوهن يوهن، وفي قراءة أخرى (موهِّنٌ) اسم فاعل من (وهَّن) أي ضعّف، ووهَّن وأوهن بمعنى واحد، وقراءة التشديد تفيد التكرير والمبالغة فهو توهين بعد توهين، فهي سنّة إلهيّة ثابتة ومطّردة مع عباده المؤمنين في كلّ معركة يلتقي فيها الحقّ والباطل، ما دام أهل الحقّ قد أخذوا بالأسباب، وأعدّوا ما استطاعوا من القوى المادّيّة الممكنة، والقوّة المعنويّة الصلبة، فإنّ توهين كيد العدوّ يغدو أحد أهمّ ضمانات النصر ومعالم

التأييد، ويحسم نتيجة المواجهة مع العدوّ لصالح المؤمنين[١]، ومن مظاهر توهين كيد الكافرين ما يأتي:

١- إلقاء الرعب في قلوب الأعداء، قال سبحانه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

٢- معيّة الله مع المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ الله مَعَ المؤمنين﴾ [الأنفال: ١٩].

٣- الجبن والخور الكامن في قلوبهم، المغروس في أفئدتهم فلا يستطيعون القتال إلّا في القرى المحصّنة أو الدبّابات قال تعالى: ﴿لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤].

٤- ولاية الله لعباده المؤمنين وتأييده لهم، فهو يتولّى الصالحين، ويخذل من يناوئهم من الكافرين، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

٥- أنّ الكفّار أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين وقوّة الله معهم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

فالوهن الكامن في قلوب الأعداء، والضعف المخبوء في صفوفهم؛ لأنّهم أحرص الناس على حياة، ومعيّة الله وولايته لنا، ستجعل كيدهم في نحرهم، وتكون نتيجة الوهن تهيئتهم للهزيمة على أيدينا، وإفشال مخطّطاتهم، ودحر قوّاتهم، وانحصار مشروعهم، ومن كان له بصر بتاريخ الأمم، وسنن الله، لم تخدعه ظواهر القوّة، ولم يأسره مشهد الباطل المنتفش؛ فالكيد الإلهيّ بالكافرين قويّ متين، يمهل ولا يهمل، قد يطول الأمد، ويضعف السند، لكنّه حتمًا يأتي من مأمن، ويصيب في مقتل، ويهدم أركانهم، ويقوّض بنيانهم حتّى يتهاوى السقف على أهله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢٧]، والواجب علينا أمام هذا الكيد إيقاظ جذوة الإيمان في القلوب، وتجديد الثقة بربّنا، والاطمئنان إلى وعده، والاستمساك بحبله المتين، والاعتصام بالكتاب والسّنّة، يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة: «ومن سنّة الله: أنّه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه، فيحقّ الحقّ بكلماته،

(١) ابن عطيّة- المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٥٢٩/٤، رضا، محمد رشيد- تفسير المنار، ٥١٨/٩، قطب، سيد- في ظلال القرآن، ١٤٩٠/٣-١٤٩١.

ويقذف بالحقّ على الباطل؛ فيدمغه؛ فإذا هو زاهق»[١]. وهكذا ينقلب كيدهم نقيض ما أرادوا وخطّطوا ودبّروا وموّهوا، كما حكى الله عاقبة كيد قوم إبراهيم عليه السلام به، فقال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨].

فلتطمئنّ الفئة المؤمنة الصامدة في أرض الرباط بأنّ الله لن يتركهم وحدهم، وأنّ الله معهم، وأنّهم هم المنصورون، وأنّ جندنا هم الغالبون الذين يحقّقون سنّته في الأرض، ويعلون كلمته في الناس، ويرفعون رايته وينطلقون باسمه، ويجاهدون لحماية دينه، وصيانة شعائره، وإزالة رجس اليهود وكفرهم من الأرض المقدّسة، ولن يفلت الخونة من عقابه.

المطلب الثالث: سُنَّة الله في إنفاق الكافرين.

إنّ محاولة أهل الباطل لاستئصال المسلمين وفتنتهم عن دينهم لم تتوقّف يومًا، وفي سبيل ذلك يبذلون أموالهم العزيزة على نفوسهم والغالية على قلوبهم من أجل الغلبة على المؤمنين، والصدّ عن سبيل الله، ويصرّون على التمسّك بباطلهم، ويستميتون في الدفاع عنه، وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والذين كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] فقد نزلت الآية تخبر عن استعداد قريش لمعركة بدر، وما سيكون بعدها من المعارك، فقد روى محمّد بن إسحاق عن الزهريّ وغيره قَالُوا: «لَمَّا أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ، وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إِلَى مَكَّةَ، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بِعِيرِهِ، مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ بِبَدْرٍ فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ، فَقَالُوا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ لَعَلَّنَا أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُ ثَأْرًا بِمَنْ أُصِيبَ مِنَّا فَفَعَلُوا»[٢]، وأنفق أبو سفيان في تجهيز الجيش يوم أحد أربعين أوقيّة من الذهب، وكانت الأوقيّة يومئذ اثنين وأربعين مثقالًا، واستأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة، فقاتل بهم النبيَّ ﷺ[٣]، واللفظ عامّ ينبئ عن سلوك الكافرين في كلّ زمان بما يؤكّد على سنيّة الإنفاق في الصراع، فإنّ صيغة المضارع في ينفقون

(١) ابن تيميّة، أحمد بن عبد الحليم- مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبويّة، ١٩٩٥م، ٥٧/٢٨.

(٢) الطبري- تفسير الطبري، ١٧٣/١١، ابن كثير – تفسير القرآن العظيم، ٤٨/٤.

(٣) الطبري- تفسير الطبري، ١٧٠/١١.

تفيد دأبهم وسخاءهم في الإنفاق لقتال المسلمين، ومحاولة استئصالهم، وقد حصل الإنفاق في الماضي والحاضر، وسيحصل في المستقبل، ولام التعليل مشعرة باستمراريّة الإنفاق؛ لأنّه منوط بعلّة ملازمة لنفوسهم، وهي بغض الإسلام، وصدّهم الناس عنه(١).

وإذا تتبّعنا حجم الإنفاق الإسرائيليّ على حرب غزّة، فإنّه في الأسابيع الثلاثة الأولى للحرب أنفقت (إسرائيل) من الميزانيّة العامّة ٣٠ مليار شيكل (٨ر٣ مليارات دولار)، وفي شهر نوفمبر بلغت كلفة الحرب نحو ٢٦٠ مليون دولار يوميًّا من الاقتصاد الإسرائيليّ، وأنّ الحرب أصبحت أكثر تكلفة بالنسبة لـ(إسرائيل) ممّا كان متوقّعًا في البداية، حيث إنّها تفرض ضغطًا على الماليّة العامّة، وقال بنك (إسرائيل) المركزي، إنه باع ٨ر٢ مليار دولار من النقد الأجنبي في أكتوبر، ممّا أدّى إلى تراجع الاحتياطيّ إلى ١٩١ر٢ مليار دولار(٢).

وأمّا عن الإنفاق الأمريكيّ لدعم الكيان ومساندته في الحرب على غزّة، فقد وافق مجلس النوّاب الأميركي على قانون لتقديم مساعدات بقيمة ١٤ر٣ مليار دولار لـ(إسرائيل)، وذلك برغم تأكيد الديمقراطيّين أنّه لن تتمّ المصادقة عليه في مجلس الشيوخ الذي يسيطرون عليه (٣).

وفي ٢٥ ديسمبر ٢٠٢٣م، كشفت صحيفة «يديعوت أحرونوت" أنّ الولايات المتّحدة أرسلت إلى الكيان الإسرائيليّ «أكثر من ٢٣٠ طائرة شحن و٢٠ سفينة محمّلة بذخيرة لسلاح الجوّ، وقذائف مدفعيّة بزنة ١٧ ألف طنّ، ومركبات مدرّعة وعتاد عسكريّ للجنود وصلت من الولايات المتّحدة إلى إسرائيل»(٤)، بالإضافة إلى تزويدها بالتقنيات الدفاعيّة الأكثر تقدّمًا، بما في ذلك مجموعة من الطائرات المقاتلة الأميركيّة الصنع من طرازF-٣٥، والتي تعدّ الطائرة المقاتلة الأكثر تقدّمًا في العالم، والدعم الأمريكي بكلّ أنواعه متواصل لم ينقطع منذ قيام الكيان المسخ.

وقد مضت سُنَّة الله في الكافرين أنّهم ينفقون أموالهم، ويبذلون جهدهم في فتنة الناس عن دينهم، والصدّ عن سبيل الله، ومغالبة المؤمنين، وإقامة العقبات في طريق الحقّ، ومحاولة إطفاء نور الله، وأنّ

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم، ٤٧/٤، ابن عاشور، محمد الطاهر- التحرير والتنوير، ٣٤٠/٩.

(٢) موقع: https://www.aljazeera.net/ebusiness/٢٠٢٣/١١/١٢و https://www.aa.com.tr/ar/

(٣) موقعhttps://www.aljazeera.net/news/٢٠٢٣/١١/٣ /https://www.aa.com.tr/ar/

(٤) نقلًا عن موقع: https://www.aa.com.tr/ar/

هذا الإنفاق سيضيع سدى، ويذهب عبثًا، ولن يجدي نفعًا، وسيعود عليهم حسرة وندمًا، فلن يحصلوا من إنفاقهم على نتيجة، ولن يصلوا إلى غاية، وسيبوؤون بالخيبة والخذلان، والهزيمة والخسران، وسيغلبون مرّة تلو مرّة، وينكسرون كرّة بعد كرّة، وينتصر الحقّ في الدنيا، وتعلو كلمته، وترتفع رايته، ويزهق الباطل، ويندحر البغي -إن شاء الله تعالى- ويحشر الله الذين كفروا بدينه وقاتلوا أولياءه في الآخرة إلى جهنّم، هي حسبهم وبئس المصير، والوعد دائم، والموعود حاصل(١).

وإذا كان الكفّار ينفقون بسخاء في سبيل الباطل، فالمؤمنون أولى بالإنفاق والسخاء وبذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لأنّ لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين، ومن حيث أفرادهم الفوز بإحدى الحسنيين، هكذا كان في كلّ زمان قام المسلمون فيه بحقوق الإسلام والإيمان، وهكذا سيكون، إذا عادوا إلى ما كان عليه سلفهم الصالحون.

المبحث الرابع: سنن الله في النصر

للنصر والهزيمة في حياة الأمم والشعوب سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتخلف وفي هذا المبحث إشارة إلى بعضها في ضوء معركة طوفان الأقصى على النحو الآتي:

المطلب الأول: الابتلاء للتمييز بين الطيّب والخبيث

إنّ الابتلاء من سنن الله العامّة التي لا تتبدّل ولا تتخلّف: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وكشف القرآن عن الغاية من سُنَّة الابتلاء، وهي التمييز بين الحقّ والباطل، والغثّ والسمين، الطيّب والخبيث، فقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وغيرها من الآيات التي تؤكّد على حتميّة سُنَّة الابتلاء.

إنّ الله تعالى يبتلي عباده بالشدائد والمحن والجهاد في سبيله؛ ليميّز النفوس، ويمحّص الصفوف،

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم، ٤٧/٤، قطب، سيد- في ظلال القرآن، ١٥٠٦/٣-١٥٠٧، ابن عاشور، محمد الطاهر- التحرير والتنوير، ٣٤٠/٩-٣٤١،

ويتبيّن الصادق من الكاذب، ويعلم المؤمن من المنافق، وقويّ الإرادة من ضعيفها، ويظهر الصابر المثابر، وينكشف البليد الخائر، فالشدائد هي التي تكشف معادن النفوس، وصدق العزائم، وحقيقة الإرادة، فبالشدائد تعرف الجماعة وزن قوّتها الحقيقي، وإخلاص رجالها، وصلابة أبطالها، وتقف عند نقاط الضعف، ومدى الترهّل في صفوفها، وحجم المنافقين المندسّين بينها، وضعفاء النفوس الذين لم تعركهم الشدّة، وتصقلهم الحوادث، وتُعرّف الأفراد بحجب الغرور، وتكشف المستور من ضعف الإيمان أو الأخلاق، وحبّ الدنيا وكراهية الموت، والتعلّق بالشهوات، وإيثار الملذّات[1].

إنّ بقاء الجماعة والأفراد دون تمايز بين الحقائق والدعاوى ضرر يفتك بجسد الأمّة، ومرض قاتل صامت، وآفة خطيرة تهدّد وجودها، وتنخر صمودها؛ ولهذا مضت سنّة الله في تخليصها من هذه الأوبئة، بالتمييز بين الخبيث والطيّب وإظهار ما في الضمائر، وابتلاء السرائر، فيظهر معدن الذين صهرتهم التجربة والابتلاء الصامدون المثابرون الذين يحملون الأمانة، ويؤدّون الرسالة، ويستحقّون النصر، ويؤتمنون على الأمّة، ويحقّقون شهودها على العالمين، ويصدحون بالحقّ في كلّ الميادين، لا ترهبهم قوّة، ولا تخيفهم شدّة، ولا تضعفهم فتنة أو محنة.. ونهاية الصراع ونتيجة التدافع بعد تحقّق التمايز؛ انتصار الحقّ وزهوق الباطل في الدنيا، وأمّا في الآخرة فإنّ الله يجمع الخبيث على الخبيث، فيلقي به في جهنّم، وهي غاية الخسران.

وهذا المصير للكفر المتعاون، والنهاية للخبث المتراكم يطمئن العصبة المسلمة المجاهدة إلى أنّ الله مولاها ونصيرها، فلا غالب لها من الناس بحرب ولا بكيد، والله وليها الناصر المعين.

ومعركة طوفان الأقصى هي من ابتلاء الله تعالى عباده المؤمنين الصادقين بالجهاد في سبيله، وفيه صنوف من نقص الأموال بنقصها وهلاكها، واستشهاد الأنفس والجراحات والآلام الدامية؛ قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقد كشفت هذه المعركة عن صمود عجيب وإيمان راسخ، وصبر منقطع النظير، وعزيمة لا تلين للشعب الفلسطيني ومقاومته، ورضى بقضاء الله وتسليم لأمره، بإرادة قوية ويقين ثابت.

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم، ٤٨/٤، قطب، سيد- في ظلال القرآن، ١٥٠٧/٣، ابن عاشور، محمد الطاهر- التحرير والتنوير، ٣٤٣/٩.

ومحّصت معركة الطوفان كلّ ما حولنا، وميّزت بين القوى الحيّة في أمّتنا والفئات المترهّلة الضعيفة، والمنافقين والموالين للعدوّ الكافر، من الذين يحسبون كل صيحة عليهم، والذين سارعوا في إدانة الجهاد والمقاومة وتحميلها المسؤولية، وتبرئة العدو المجرم.

وكشفت عن العورات المستترة للأنظمة العربيّة المتخاذلة والنخب المثقّفة المنخورة، بل إننا لم نسمع من أي عاصمة عربية حديثاً حول حق الشعب المحتل في الدفاع عن نفسه، ومشروعية مقاومته ضد غاصبي الأرض والمقدسات، وعن دجل ما يُدعى النظام العالمي، وزيف أنظمة الغرب وسقوطها الأخلاقي، ودعمها اللامتناهي لدولة الاحتلال الصهيوني التي باتت نموذجا صارخا للطغيان والإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، وارتكاب الموبقات الإنسانية، دون خشية من قانون دولي أو محاسبة من أحد، فأسراب الطائرات والسفن المحملة بالأسلحة إلى كيان الاحتلال، لم تتوقف على مدار الشهور السابقة، في الوقت الذي يحرم فيه العالم المدنيين الواقعين تحت الاحتلال من الحصول حتى على أسلحة دفاعية، في مواجهة أقوى أسلحة العصر الحديث، وهذه الأنظمة الغربية لطالما نادت بالقيم الإنسانيّة وحقوق الإنسان، ها هي اليوم تقف مع الجلّاد ضدّ الضحيّة، وتمده بكل وسائل القتل والتدمير وتحميه في مجلس الأمن من مجرد الإدانة، ولا تزال كلّ الأقنعة تتساقط مع استمرار اشتعال المعركة.

المطلب الثاني: سُنَّة معيّة الله مع المؤمنين

جاء الحديث عن سُنَّة معيّة الله سبحانه وتعالى لعباده المرسلين وأوليائه المؤمنين الصادقين ثماني وثلاثين مرّة في القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الله مَعَ المؤمنين﴾ [الأنفال:١٩]، وقوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ودلّت الآيات القرآنيّة على ورودها على قسمين اثنين، هما:

المعيّة العامّة: والمراد بها أنّ الله مع جميع الخلق بعلمه، ومحيط بهم، ومطّلع عليهم، وعالم بهم، وشهيد على أعمالهم، فهي معيّة تشمل جميع الخلق، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ٧].

المعيّة الخاصّة: وهي بمعنى النُّصرة والتأييد والتوفيق لأنبيائه وأوليائه المؤمنين، وهذا النوع هو المراد في الموضعين من سورة الأنفال، أي: إنَّ الله مع الصابرين بعونه وتوفيقه وتسديده(١).

وهذه المعيّة تبعث على الطمأنينة إلى أنّ الله مع المؤمن في كلّ لحظة لا ينساه ولا يقلاه، معه في ساعة العسرة، وساعة المحنة، وفي ميدان الحرب، يشعر على قدر إيمانه وتأصّل هذا الإيمان بأنّ الله معه، فيحسّ بالطمأنينة تسري في قلبه، وأنّه في أمان الله متحصّن بقوّة الله، ولو كادت له كلّ قوى الأرض، وأنّه لن يهزم ولن يهون، فالله أكبر من القوى والحصون والبشر والأموال والسلاح(٢).

والمعركة عندما تكون معيّة الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد، والكفّار لا مولى لهم ولا نصير، وليس معهم إلّا ناس من البشر من أمثالهم لن تكون متكافئة أبدًا؛ لأنّ المؤمنين- ومعهم الله- سيكونون في صفّ قويّ ومنيع لا يهزم، وستكون المعركة محسومة النتيجة مقرّرة المصير، وقد كان مشركو العرب يعرفون هذه الحقيقة(٣)، فورد «أنّ خُفاف بن أيماء ابن رخصة الغفاري، أو أبوه أيماء بن رخصة الغفاري، بعث إلى قريش حين مرّوا به ابنًا له بجزائر (أي: ذبائح)، أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نمدّكم بسلاح ورجال؛ فعلنا، قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم، قد قضيت الذي عليك؛ فلعمري لئن كنّا إنّما نقاتل الناس؛ فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنّا إنّما نقاتل الله - كما يزعم محمّد-؛ فما لأحد بالله من طاقة»(٤).

ومن كان الله معه فلن يضلّ طريقه، فإنّ معيّة الله سبحانه تهديه وتكفيه، مصداقًا لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ولكنّ معيّة الله لم يجعلها الله سبحانه جزافًا ولا محاباة، ولا كرامة شخصيّة، منقطعة عن أسبابها وشروطها، إنّ معيّة الله لمن يعبدونه حقّ العبادة ويحملون منهجه ونظامه، ويحملون دعوته، ويجاهدون في سبيله، ويسعون لتحقيق مرضاته(٥).

---

(١) ابن كثير- تفسير القرآن العظيم، ٥٢٨/٤، الشنقيطي- أضواء البيان، ٤٦٨/٢.
(٢) بتصرف: قطب، سيّد، في ظلال القرآن، ١٤٩١/٣.
(٣) بتصرف: قطب، سيّد، في ظلال القرآن، ١٤٩١/٣.
(٤) ابن هشام، عبد الملك- السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٥٥، ١/ ٦٢١.
(٥) بتصرّف: قطب، سيّد، في ظلال القرآن،٨٥٧/٢.

وقد تجلّت معيّة الله للمجاهدين ولأهل غزّة في معركة طوفان الأقصى أن مكّنهم من تحقيق هجوم مباغت للعدوّ، وتحقيق انتصار عسكريّ وأمنيّ أذهل العدوّ والصديق، وزلزلت الكيان الصهيوني، وأرغمت أنفه في الوحل والطين، وجعلته يتخبّط في ظلمات الهزيمة النكراء، وحطّمت معنويّات جيشه وشعبه، وسحقت صورة الجيش الذي لا يقهر، وأثبتت للعالم أنّ قوّته أوهن من بيت العنكبوت.

كما وتجلّت معيّة الله تعالى للمجاهدين في توفيقهم وهدايتهم لصناعة أسلحة نوعيّة، قليلة التكلفة الماديّة تفتك بترسانة العدوّ الضخمة والمتطوّرة من الدبّابات وناقلات الجند، وثبّتهم في ميدان المواجهة فلم يفرّوا، ولم يتقهقروا، والتحموا مع العدوّ في كلّ محاور الجهاد دون خوف أو وجل، ولا زالت المواجهة مفتوحة، والمعركة مستمرّة، وجند الله في إقدام، وعدوّنا في هزيمة وإحجام.

وظهرت معيّة الله في معركة الطوفان بالثّبات المنقطع النظير لأهل غزّة وجندها الميامين، وصبرهم على أهوال الحرب وشدائدها، وتحمّلهم لتغوّل الصهاينة عليهم بالقتل والتدمير، ومحاولة التهجير، فلم تنكسر لهم إرادة، ولم تلن لهم قناة، ولم يسخطوا أو يتبرّموا من دفع ضريبة الكرامة، ولم يجزعوا من كثرة الشهداء والتضحيات، وضربوا أروع الأمثلة في الصبر والمصابرة، «وقد جرت سنّة الله أنّ الأعمال العظيمة لا تنجح إلّا بالثبات والدأب عليها، ومدار ذلك كلّه الصبر، فمن صبر فهو على سنّة الله والله معه، فيسهّل له العسير من أمره، ويجعل له فرجًا من ضيقه، ومن لم يصبر فليس الله معه؛ لأنّه تنكّب عن سنّته، فلن يبلغ قصده وغايته»[١].

إنّ الله تعالى مع الذين جاهدوا في سبيله وتحمّلوا عناء الطريق، فلم ينكثوا ولم ييأسوا، وصبروا على قلّة المساندين، وكثرة المتخاذلين، وحملوا أعباء التحرير، ودفعوا ضريبة النصر من دمائهم، وأرواحهم، وفلذات أكبادهم، وقدّموا الغالي والرخيص في سبيل تحرير الأرض وتطهير المقدّسات، «أولئك لن يتركهم اللّه وحدهم، ولن يضيع إيمانهم، ولن ينسى جهادهم، إنّه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم. وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء»[٢].

(١) رضا، محمّد رشيد، تفسير المنار، ٣٠/٢، المراغي- تفسير المراغي، ٢٣/٢.
(٢) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ٢٧٥٢/٥.

المطلب الثالث: سُنَّة الله في النّصر

ورد لفظ النصر ومشتقّاته مائة وثماني وخمسين مرّة في سبع وأربعين سورة، منها إحدى وثلاثون سورة مكّيّة، وستّة عشرة سورة مدنيّة، وكثرة ذكر النصر وتعدّد صيغه حتّى سمّيت سورة في القرآن بسورة النصر يدلّ على أهمّيّته كقانون وسُنَّة، وضرورة الاحتفاء به لما يحمله من بشرى للمؤمنين وشفاء لما في صدورهم وذهاب لغيظ قلوبهم، وطمأنة لنفوسهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقوله: ﴿وَإِن يريدوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالمؤمنين﴾ [الأنفال:٦٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:٤٠] وغيرها من الآيات كثير.

كشفت الآيات عن سُنَّة الله في نصر عباده المؤمنين وتأييده للمجاهدين على أعدائه الكافرين، وسنن الله مطّردة، فمع وجوب الأخذ بالأسباب وإعداد القوّة الممكنة من الوسائل المادّيّة والمعنويّة والتعبئة الروحيّة؛ لتحقيق النصر، فالأسباب الظاهرة ما هي إلّا ابتلاء من الله لعباده واختباره لهم؛ ليعملوا بمقتضى التكليف، ويلتزموا بالسنن الإلهيّة التي تربط الأسباب بمسبّباتها، ويوقنوا بأنّ الأسباب لا تترتّب عليها نتائجها إلّا بإذن الله، وأنّ الأمر كلّه بيد الله وحده، فلا يحدث في ملكه إلّا ما أراد، ولحكمة يعلمها الله؛ ليستقرّ في أعماق قلب المؤمن أنّ النصر بيد الله، يمنحه من يشاء في الوقت الذي يشاء، فهو وحده الناصر، وأنّ الوسائل مهما كانت كثيرة ووفيرة، فلا تعدو أن تكون ستارًا لقدر الله، فالله هو الذي يأذن بإعمال الأسباب وترتّب النتائج، فقال سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠] والتعبير في الآية من أقوى أساليب الحصر وهو النفي بـ(ما) المتبوع بالاستثناء بـ(إلّا)، وهو يفيد هنا حصر النصر في الله وحده، فالنّصر يتنزّل بإذنِه سبحانه وحده، لا بعدد ولا عدّة حتّى يتعلّق قلب المؤمن بالله وحده، ويستشعر طلاقة القدرة الربّانيّة وفاعليّتها الكاملة في الكون، وأنّ الأسباب لا تفعل بذاتها، وهذا يحفظ على المسلم عقيدته وإيمانه، ويبصّره بحقيقة السُّنن الإلهيّة التي تحكم حركة الحياة[1].

(١) ابن عطية- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٥١٢/٤، رضا، محمد رشيد- تفسير المنار، ٥٠٥/٩،

وإذا تخلّفت الأسباب أو ضعفت، فالله يمنحها مسبباتها، ويرتّب عليها نتائجها امتنانًا منه على من يشاء من عباده، فينصر الضعفاء على الأقوياء، والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض سننه الثابتة[١]، فالله أيّد المسلمين وساعدهم على بلوغ الهدف في معركة بدر، وأنزل ملائكته تقاتل معهم، وتثبّت أقدامهم، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وغشّاهم النعاس ليهدئ روعهم، ويذهب خوفهم، وأغاثهم بالمطر؛ ليطهّرهم من رجز الشيطان، ويثبّت الأرض تحت أقدامهم، وأفاض على نفوسهم بالسّكينة، وهذا المدد من عنده ما هو إلّا وسيلة للبشرى وطمأنة القلوب بوعده بالنّصر، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]، فسخّر الله السنن الكونيّة لنصرة عباده، وأنزل جنوده؛ لتثبيت المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، وضرب رقابهم؛ وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، ولم تغنِ عنهم كثرتهم العدديّة وقوّتهم العسكريّة، وهزموا شرّ هزيمة بتدبير الله للمعركة في قتل أعدائهم والرمي عنهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وخذل الله الكافرين، وأوهن كيدهم، وأضعف تدبيرهم، ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، فالذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله، أو يعجزوا عباده المؤمنين، والله معهم وناصرهم ﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونْ﴾ [الأنفال ٦٠] فالله يتولّى الصالحين بالنّصرة والتأييد، ويخذل من يناوئهم من الكافرين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الذين آمَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] فلا تفكّروا في ولاية أحد، ولا تطلبوا النصرة من غير الله، فهو القادر على نصركم وهو خير ناصر ومعين، ﴿بَلِ الله مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الناصرين﴾ [آل عمران: ١٥٠]، ولن يقوى أحد على هزيمتكم ما دمتم في ولاية الله، وتقاتلون معتمدين على نصرة الله، فهو نعم المولى ونعم النصير.

والآيات الواردة في سورة الأنفال للتعقيب على غزوة بدر تقرّر دستور النصر والهزيمة، وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة؛ الأسباب الحقيقيّة لا الأسباب الظاهرة المادّية، وغزوة بدر بأحداثها وتفاصيلها تشكّل كتابًا مفتوحًا تقرؤه الأجيال في كلّ زمان وفي كلّ مكان، لا تتبدّل دلالتها ولا تتغير طبيعتها، فهي آية من آيات اللّه، وسنّة من سننه الجارية في خلقه، ما دامت السماوات والأرض[٢].

قطب، سيّد- في ظلال القرآن، ١٤٨٣/٣-١٤٨٤، ابن عاشور- التحرير والتنوير، ٢٧٦/٩.

(١) رضا، محمد رشيد- تفسير المنار، ٥٠٥/٩.

(٢) قطب، سيد- في ظلال القرآن، ١٤٨٢/٣.

ويؤكّد سيّد قطب: أنّها «قاعدة وسنّة، لا فلتة ولا مصادفة، قاعدة وسنّة أنّه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهيّة اللّه وحده، وإقامة منهج اللّه وحده، ثمّ وقف منها عدوّ لها موقف المشاقة للّه ورسوله، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقّون اللّه ورسوله، ما استقامت العصبة المسلمة على الطريق، واطمأنّت إلى ربّها، وتوكّلت عليه وحده، وهي تقطع الطريق»[1].

وسُنَّة النصر من الله ذات البعد العقديّ، تحرّر المسلم من الارتهان للقوى الأرضيّة، والتعلّق بالأسباب المادّيّة الظاهرة، وتحرّره من ربقة الاستسلام لواقع الضعف، أو القبول بالذّلّ والتبعيّة، أو الانهزام أمام قوى البغي؛ لكثرة عددها وقوّة عتادها، وتربطه بالقوّة العظمى التي لا تهزم، والإرادة المطلقة التي لا تقاوم، والقدرة التي لا يصمد أمامها شيء؛ ليطلب العون والمدد منها، ويستجلب النصر من الله وحده، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أنّها تصحّح التصوّر للحياة، والنظر للقوانين الكونيّة، والأسباب المادّيّة، وكأنّها تعمل مستقلّة بذاتها، أو منفصلة عن إرادة الله، فيتعلّق القلب بالوسائل والأدوات، ويغفل عن الفاعل الحقيقيّ وهو الله، فالكثرة العدديّة والقوّة المادّيّة مؤثّرة في مسار المعركة، وهو جزء مهمّ من مفهوم القوّة، لكنّها لا تحسم نتيجة المعركة لصالح الأقوياء، فهي غير فاعلة بذاتها، فالقوّة المعنويّة، والعناية الربّانيّة، التي تكون بها القوّة الروحانيّة، أحقّ بالنّصر من القوّة المادّيّة.

وقد تجلّت سُنَّة النصر للمؤمنين في معركة طوفان الأقصى يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣م، حيث أثخنت المقاومة في صفوف العدوّ قتلًا وأسرًا، وأسقطت منظومته الأمنيّة وهيبته العسكريّة، وأذاقتهم مرارة الهزيمة، ولم يستطع العدو بكل قوته وترسانته العسكرية وجبروته القضاء على المقاومة وتفكيك قواها، أو الوصول إلى قادة المقاومة، وعجز حتى اللحظة في تحرير أسراه الذين في قبضة المقاومة من خلال الآلة العسكرية، وهو بالمناسبة أكثر ملف ضاغط على عصب حكومة الاحتلال الإسرائيلي وحتى على الادارة الامريكية التي أرسلت فرقة دلتا المتخصصة بتحرير الرهائن والأسرى دون حدوث أي فارق يُذكر.

(١) قطب، سيد- في ظلال القرآن، ١٤٨٦/٣.

وهذا النصر الاستراتيجي للمقاومة يتمثل في الاحتفاظ بقوتها وقدرتها على تهديد العدو، وتثبيت وضعيتها السياسية وشرعيتها وإفشال العدو ومخططاته، وقدرتها على خوض معارك المدن والشوارع باقتدار وإبداع، وأعادت القضية الفلسطينية إلى الواجهة ومكانتها التي تستحقها في قلوب الأمة وضميرها، ومقدمة القضايا التي تستحق الانتصار لها والتضحية في سبيلها، وأثبتت إمكانية هزيمة هذا العدو وسحقه، وأن التحرير ممكن، والنصر عليهم ليس مستحيلا.

إن المعركة الطوفان هي بداية الطريق نحو التحرير الذي تلوح بشائره في الآفاق، ومقدّمة الزحوف نحو تطهير المسجد الأقصى من دنس الصهاينة، فوعد الله قائم وسنّته ماضية، ونصره أكيد لعباده المؤمنين، وهزيمته لأعدائه من المجرمين.

وفي الختام: إنّ معركة طوفان الأقصى قد أضاءت فجرًا جديدًا، وفتحت آفاقًا بعيدة لمستقبل الأمّة، وبدّدت القتام الذي يحجب مستقبل التحرّر، ووضّحت الطريق نحو استعادة المسجد الأقصى.

خاتمة البحث:

بعد هذه القراءة لمعركة الطوفان في ضوء نماذج من السنن الإلهيّة نأمل من الله أن تكون نتيجة هذه المعركة إيذانًا ببدء معركة تحرير فلسطين ونهاية المشروع الصهيوني وتتبير علوّه في الأرض، وتطهير المسجد الأقصى من رجس هؤلاء الأوغاد، ومن أهم نتائج البحث ما يأتي:

١- ضرورة الوعي بالسنن الإلهيّة في الصراع بين الحق والباطل، فهي تبشّر بقرب زوال هذا الكيان المحتلّ، وتبعث الأمل في الأجيال بأنّ النصر قريب، وهزيمة العدوّ ممكنة، برغم قلّة العتاد والزّاد، فالنّصر منحة إلهيّة، وسنّة حتميّة لمن أخذ بمعاييرها، وسلك دروبها، وأخذ بأسبابها متوكّلًا على الله، معتمدًا عليه، متسلّحًا بالصبر والثبات، ملتجئًا إلى معيّته، فهو ملاذ المجاهدين، وحصن المدافعين عن حرمة الأوطان والدين، لا يتركهم وحدهم دون ظهير أو نصير، يمكر لهم كما يبطل مكر عدوّهم وهو خير الماكرين، ولن تغني عنهم قوّتهم ولا جيوشهم، وستبوء جهودهم بالفشل والهزيمة فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا.

٢- إنّ اكتشاف السنن الإلهيّة، وكيفيّة التعامل معها وتسخيرها، وقراءة الأحداث في ضوئها،

ضرورة ملحة، وواجب دينيّ، خاصّة سنن الصّراع بين الحقّ والباطل، وكيفيّة عملها في المجتمعات كفيل بحسم مادّة الشرّ، وتقليم أظافر الباطل. ٣- كل الأمم والمجتمعات عبر تاريخ البشرية الطويل وما جرى فيها من تحولات وتغييرات إيجابية كان لأخذها بسنن النهوض الحضاري، وما تعرضت لهم من سقوط وانهيار كان بسبب غفلتها وسيرها عكس السنن.

٤- ضرورة حشد الطاقات والإمكانات المادية لمواصلة تطوير أداء المقاومة ومراكمة القوة والخبرة العسكرية؛ لمدافعة مشروع العدو الصهيوني، وأن واجب الإعداد والإمداد يقع على عاتق الأمة بأسرها، ولا يعفى منه إلا العاجز.

المصادر والمراجع

الآمدي، سيف الدين علي بن أبي علي- الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت.

أمحزون، محمد- السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، دار طيبة، الرياض، ط١، ٢٠١١م.

البخاري، محمد بن إسماعيل- صحيح البخاري، الرسالة ناشرون، ٢٠١٨.

برغوث، الطيب- المدخل السنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، كتاب مقاصد القرآن، مؤسسة الفرقان، ط١، ٢٠١٦م.

البطيوي، عزيز- سنن العمران البشري في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٨م.

الجرجاني، علي- التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

حسنه، عمر عبيد- المنهج السنني أفق حضاري متجدد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

حوى، سعيد- الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، ط٦، ١٤٢٤ه.

خصاونة، عماد وقزق، خضر- السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، مجلة المنارة، المجلده١، العدد ٢، ٢٠٠٩م.

أبو داود، سليمان بن الأشعث- سنن أبي داود، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة، ٢٠٠٩م.

الزحيلي، وهبة- الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر بدمشق: ط٤.

زيدان، عبد الكريم - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، مؤسسة الرسالة، ط٣، ٢٠٠٢م،

السعدي، عبد الرحمن- تيسير الكريم الرحمن، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.

شريف الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ٢٠٠٤م.

أبو شهبة، محمد- الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، عالم المعرفة بجدة، ١٤١٣هـ/١٩٨٣م.

الطبري، محمد بن جرير- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار هجر، مصر، ط١، ٢٠٠١م.

ابن عاشور، محمد الطاهر- التحرير والتنوير، الدار التونسية، ١٩٨٤م.

ابن عطية، عبد الحق بن عطية- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وزارة الأوقاف، قطر، ط١، ٢٠١٥م.

الفخر الرازي، محمد بن عمر- مفاتيح الغيب، دار الفكر، ١٩٨١م.

قطب، سيد- في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٤١، ٢٠١٤م.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر- تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ه.

كهوس، رشيد- السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، مركز جمعة الماجد، دبي، ط١، ٢٠١٥م.

كنعان، أحمد- أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، كتاب الأمة، عدد٢٦، الدوحة، ١٩٩١م، .

المراغي، أحمد- تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

المناوي، محمد - التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ.

ابن منظور، محمد بن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت.

الميداني، عبد الرحمن- معارج التفكر ودقائق التدبر، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.

ابن هشام، عبد الملك- السيرة النبوية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٥٥.

هيشور، محمد- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

المواقع الإلكترونية:

موقع الجزيرة نت: https://www.aljazeera.net/ebusiness/٢٠٢٣/١١/١٢

موقع الجزيرة نت: https://www.aljazeera.net/news/٢٠٢٣/١١/٣/

موقع: https://www.aa.com.tr/ar/